

الشاہ عباس الکبیر

الشاہ عباس الکبیر

۹۹۶ - ۱۰۲۸ هـ ۱۵۸۸ - ۱۶۲۹ م

الدكتور بدیع محمد جمعة

۱۹۸۰

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بيروت ص.ب ۷۶۹

تقديم

يتفق المؤرخون على أن قيام الدولة الصفوية (٩٠٦هـ - ١٥٠٠م) كان نقطة تحول كبيرة في تاريخ ايران والشرق كله ، ف لأول مرة يعلن المذهب الشيعي الاثني عشري مذهباً رسمياً لكل ايران . حدث هذا والدولة العثمانية في عنفوان مجدها ، وقمة انتصاراتها ، ونحن نعرف أن الخلافة العثمانية كانت تعتبر نفسها حامية حمى المذهب السني والمسئولة عن العالم الاسلامي كله ، ولهذا لن ترضى عن خروج ايران عن التبعية للخلافة السنية و اعلان المذهب الشيعي مذهباً رسمياً ، فثارت الحروب بين الدولتين العثمانية والصفوية ، مما سبب ضرراً كبيراً أحاق بالعالم الاسلامي ، حيث استشر الغرب الاستعماري هذا الخلاف ، وتسلسل الى الشرق الاسلامي ناهباً ثرواته ، ومستعمراً بلدانه !

و اذا كانت الدولة الصفوية تمثل نقطة تحول هامة بالنسبة لتاريخ ايران والعالم الاسلامي ، فان الشاه عباس الكبير كان واسطة العقد بالنسبة لهذه الدولة ، حيث تجسدت خلال سني حكمه (٩٩٦-١٠٣٨هـ - ١٥٨٨ - ١٦٢٩م) كل أهداف الدولة الصفوية . ففي عصره تم تدعيم المذهب الشيعي في ايران ، كما تمكنت الدولة الصفوية على عهده من استعادة السيطرة على الاماكن المقدسة الشيعية في العراق العربي ، مما أتاح للايرانيين الفرصة لزيارة هذه المزارات بعد ان حرموا من زيارتها طول قرن من الزمان بدأ مع بداية حكم الدولة الصفوية واستمر حتى تمكن عباس من اخراج القوات العثمانية من النجف و كربلاء .

كما تميز عصر عباس الكبير بانفتاح ايران على الغرب ، وعقد المزيد

من المعاهدات التجارية والسياسية بين ايران وسائر الدول الاوروبية، ولقد كان المحور الاساسي الذي تقوم عليها هذه المعاهدات هو العداء المشترك للدولة العثمانية ، وكذلك ايجاد أسواق جديدة لبيع الحرير الايراني ذي الشهرة الواسعة .

ويعتز الايرانيون بالشاه عباس الكبير كذلك بسبب حركة العمران الكبيرة التي تميز بها عصره ، وبخاصة في مدينة اصفهان حتى راج قول مشهور : «اصفهان نيم جهان» أي : أصفهان نصف العالم!

وهكذا كان الشاه عباس نجما ساطعا اخترق ضوءه كل الحجب والغيوم التي غطت سماء ايران قبل عصر عباس وبعده، ولذلك حظي عباس باهتمام كل المؤرخين الايرانيين والعالميين ، فكتبت عنه العديد من المؤلفات باللغة الفارسية وباللغات الاوروبية المختلفة .

وعلى الرغم من هذا الاهتمام العالمي بالشاه عباس ، فان المكتبة العربية تخلو تماما من أي كتاب يتعلق بفترة حكم الشاه عباس ، وهذا مادفعني لتقديم هذا الكتاب . على أمل أن يتعرف القارئ العربي على بطل قومي ايراني حمل الراية وتقدم بها حتى أصبحت ايراز محط أنظار الجميع في ذلك الوقت ، وليدرك القارئ كذلك الآثار الضارة للفرقة والانقسام في العالم الاسلامي وما ينتج عن ذلك من اتاحة الفرصة للدول الاستعمارية كي تسيطر على مقاليد الأمور في الشرق وتنهب ثرواته !

والله الموفق

بديع جمعة

بيروت في ١٩٨٥

تمهيد

١ - الصفويون :

ينتسب الصفويون الى الشيخ صفي الدين الاردبيلي ٦٥٠-٥٧٣٥هـ (١٢٥٢-١٣٤٣م) ، وقد ادعى البعض بأن نسب هذا الشيخ يمتد الى الحسين بن علي بن أبي طالب ، ولكن هذا النسب قد شك فيه كثير من المؤرخين ، فلم يرد في المراجع بان الشيخ صفي هذا كان من السادة الذين ينتسبون لبيت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وهكذا ثار الجدل حول تشيع الشيخ صفي وتسنيته ، وان كانت أرجح الأقوال تؤيد أنه كان سني المذهب ومن أنصار الشافعية ، فقد قال حمد الله المستوفي القزويني ، وهو يتحدث عن سكان أردبيل: «وأكثرهم على مذهب الامام الشافعي ، وهم من مريدي الشيخ صفي الدين الأردبيلي» (١) كما كتب عبيد الله خان قائد الأوزبك الى الشاه طهماسب الصفوي في عام ٩٤٦هـ (١٥٣٠م) يعاتبه ، وقد أشار في كتابه الى تسني الشيخ صفي ، حيث قال : «... لقد كان - الشيخ صفي - رجلا معززا مكرما ، كما كان من أهل السنة والجماعة...» (٢) . وعلى

١ - حمد الله مستوفي القزويني : نزهة القلوب ، المقالة الثالثة : في صفة البلدان والولايات والبقاع ، بسعي واهتمام جاي ليسترانج ص : ٨١ .
٢ - نصر الله فلسفي : زندكاني شاه عباس اول ، جلد اول ، جاب اول ١٢٢٤ ش ، ص ١٦٥ ، حاشية (٢) .

هذا فان معظم المؤرخين يرون أن اتجاه البيت الصفوي نحو المذهب الشيعي قد تم بعد وفاة الشيخ صفي الدين ، وفي عهد أبنائه وأحفاده، ولعلمهم أرادوا تجميع أكبر عدد من الانصار والمريدين ، عندما روجوا بأنهم من نسل الحسين بن علي .

وقد ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تمر بها ايران خلال حكم المغول والتموريين على زيادة الاقبال على دعوات الزهد والتصوف التي راجت في كل أرجاء ايران ، ومنها دعوة الزهد التي نادى بها الشيخ صفي الدين الاردبيلي، لذا تجمع حوله مريدون عديدون ، كما كان الناس يزورونه في أردبيل للبركة والتعلم ، حتى ذكر بعض المؤرخين أن عدد الذين وفدوا على مقر الشيخ صفي الدين الاردبيلي من سكان مدينتي مراغة وتبريز خلال ثلاثة اشهر فقط، قد زاد على الثلاثة عشر ألف مريد .

وبعد وفاة الشيخ صفي الدين تبعه أبنائه وأحفاده في تولي مشيخة الجماعة الصوفية التي أسسها صفي الدين ، ولكن نتيجة للاضطرابات السياسية والاجتماعية التي اجتاحت ايران بعد وفاة تيمورلنك عام ٨٠٧ هـ (١٤٠٤م) ، بدأ أحفاد صفي الدين يهتمون بتدريب أتباعهم عسكريا ، وتعويدهم على التضحية والفداء ، حتى يكونوا خير مدافع عن الطريقة في حالة تعرضها لأي ضغط سياسي من حكام القبائل التركمانية التي سيطرت على مقاليد الحكم في غربي ايران - ومن بينها منطقة أردبيل التي كانت المقر الاساسي للبيت الصفوي والتي تضم أذربايجان وشيروان والتي يتجمع فيها أكبر عدد من مريدي البيت الصفوي - ، وأهم هذه القبائل قبيلتان هما : قره قوينلو ، وآق قوينلو . وقد حدثت معارك كثيرة بين أنصار البيت الصفوي ورؤساء هاتين

الطائفتين التركمانيتين اتهمت بمقتل الجنيد جد الشاه اسماعيل الاول مؤسس الدولة الصفوية فيما بعد بأمر من حاكم شيروان ، وهو رئيس طائفة قره قوينلو ، كما قتل ابنه الحيدر (والد الشاه اسماعيل) على أيدي الآق قوينلو والقره قوينلو معا ، وذلك عندما اتحدا لبعض الوقت أملا في التصدي للخطر الذي بدأ أنصار البيت الصفوي يشكلونه بعد أن تزايدت أعدادهم ، وتضاعف تسليحهم وتدريبهم •

وتتيجة لما كابده البيت الصفوي من هاتين الطائفتين ، فقد نشأت خصومة شديدة فيما بينه وبينهما ، وأصبح الامر قضية حياة أو موت لأي طرف من هذه الاطراف ، ولهذا لجأ البيت الصفوي الى تدعيم مركزه عن طريق توطيد صلاته ببعض القبائل التركمانية المتطلعة الى القيام بدور فعال في الحياة السياسية الايرانية ، ولكن لم تواتها الفرصة لتسلط طائفتي القره قوينلو والآق قوينلو ، وقد أطلق على هذه القبائل والطوائف التركمانية التي انضمت الى البيت الصفوي اسم «قزلباش» (١) وقد بلغ عدد هذه القبائل القزلباشية تسع قبائل كان أهمها قبائل : روملو، وشاملو، واستاجلو، والأفشار، والقاجارية • وقد حدث هذا التلاحم بين هذه القبائل القزلباشية التركمانية وبين البيت الصفوي بدافع - بالاضافة الى الوحدة المذهبية - المصلحة المشتركة ، فالصفويون في حاجة الى مرادين وأعوان يحاربون معهم ضد أعدائهم، حتى يتحقق الأمل المنشود ويصبح البيت الصفوي هو البيت الحاكم لكل ايران ، ويكون المذهب الشيعي مذهب كل الايرانيين ، كما كانت تتطلع هذه القبائل للقيام بدور متميز في حكم ايران ، حيث سيكون لها الفضل على البيت الصفوي في حالة الوصول الى الحكم •

(١) اي اصحاب القلانس الحمراء ، حيث كانوا يغطون رؤوسهم بلباس رأس احمر ، وقد كانت هذه القلانس الحمراء رمز الطريقة الصفوية •

٢ - الدولة الصفوية قبل عباس :

سبق أن ذكرت أن الشيخ حيدر المرشد السادس من مرشدي البيت الصفوي ، ووالد الشاه اسماعيل الاول قد قتل نتيجة لتآمر طائفتي القره قوينلو ، والآق قوينلو ، ولهذا تم اسناد المشيخة لابنه اسماعيل الذي تجمع حوله المريدون ، وعقدوا العزم على الانتقام من هاتين الطائفتين التركمانيتين ، وقد استطاع أنصار البيت الصفوي دخول شيروان وقتل حاكمها انتقاما لمقتل حيدر والد اسماعيل ، وقد تم ذلك الفتح عام ٩٠٦ هـ (١٥٠٠م) ، وكان هذا الفتح بمثابة اعلان رسمي بقيام الدولة الصفوية ، فقد تم بعد هذا الفتح تنصيب الشاه اسماعيل (الأول) كأول شاه يحكم من البيت الصفوي ، وتنتج عن ذلك زيادة الصراع بين اسماعيل ومريديه وأعوانه ، من جانب ، وبين الآق قوينلو الذين يحكمون تبريز حاضرة أذربايجان من جانب آخر ، فنشبت الحرب بين الطرفين ، وانتهت بانتصار اسماعيل وجنده ، وتم لهم دخول تبريز عام ٩٠٧ هـ (١٥٠١م) ، واتخذوها بعد ذلك عاصمة لهم ، وبعد دخوله تبريز أمر بأن تقرأ الخطبة باسم الأئمة الاثني عشرية ، وأن تسك على العملة عبارة :

« لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، علي ولي الله » .

ثم يتبع ذلك ذكر اسم السلطان .

بعد ذلك اتسعت رقعة المعارك بين الصفويين وبين أعدائهم من التركمان ، ولكن النصر كان حليف البيت الصفوي في معظم المعارك ، مما حقق للصفويين شهرة كبيرة ، والمزيد من البلاد التي دخلت تحت سيطرتهم ، فقد أخضعوا لسلطانهم كل أذربايجان والعراق العجمي وفارس وكرمان وخوزستان ومازندران واستراباد ولاهيجان وكل أنحاء جيلان وكذلك مدينة يزد ، وهكذا أصبحت معظم الاراضي الايرانية

تحت لواء العلم الصفوي الاثني عشري ، بل ان الشاه اسماعيل استطاع بعد ذلك ان يمد سلطان دولته الفتية حتى الأماكن الشيعية المقدسة في النجف وكربلاء بالعراق العربي .

وتيجة لهذا التوسع بدأ جيران ايران من أهل السنة يتحرشون بهم ، فثارت عدة معارك على الجبهة الشرقية بين الصفويين والأوزبك الذين كانوا يحكمون منطقة ما وراء النهر ، فقد هاجموا خراسان كي يقتطعوها من الدولة الصفوية الشيعية ، ولكن اسماعيل استطاع اخراجهم من خراسان ، ثم كلف ولي عهده ليقوم بصفة دائمة بمدينة مشهد حاضرة خراسان ، كي يتولى الدفاع عنها .

أما عن الجبهة الغربية فقد هال العثمانيون ما وصل اليه البيت الصفوي من قوة ومنعة ، كما أغضبهم دخول الصفويين النجف وكربلاء، فسارع الخليفة العثماني بارسال انذار الى الشاه اسماعيل ، يطالبه فيه بسرعة التخلي عن المناطق التي استولى عليها خارج الأراضي الايرانية ، ولم يترك له فرصة للتفكير ، حيث سارع الجيش العثماني بدخول تبريز واحتلالها مما دفع اسماعيل الى الفرار بعيدا عنها ، ولكن لم يدم بقاء العثمانيين في تبريز الا ستة أيام ، عادوا بعدها للاعداد كي يعدوا العدة لحملة جديدة على أوروبا ، مما أتاح الفرصة للشاه اسماعيل بالعودة الى حاضرة ملكه مرة اخرى .

وتيجة لكثرة الحروب التي خاضها الشاه اسماعيل الأول في الداخل وفي الخارج ألم به المرض والوهن ، فأسلم الروح وله من العمر ثمانية وثلاثون عاما فقط ، وذلك في عام ٩٣٠ هـ . مات وقد ترك العرش لابنه طهماسب الاول ، الذي اتسم عهده بكثرة الحروب بين الصفويين وبين اعدائهم السنين - في الشرق الأوزبك ، وفي الغرب العثمانيون - فقد هاجم العثمانيون العاصمة

تبريز واحتلوها أكثر من مرة ، مما دفع طهماسب الى نقل العاصمة الى داخل البلاد ، فاتجه جنوبا واتخذ من مدينة قزوین عاصمة جديدة للدولة الصفوية .

ولاشك أن الحروب المتعاقبة بين العثمانيين والصفويين قد أدخلت السرور على الاوروبيين ، لذا نراهم يحاولون الاتصال بالشاه طهماسب، يعرضون عليه خدماتهم ، وذلك على أمل عقد اتفاقية ضد العدو المشترك ، وأعني به الدولة العثمانية ، بغية ارباك الدولة العثمانية التي كانت تهاجم أوروبا بصفة منتظمة ، فوجد الاوروبيون في الدولة الصفوية عوناً لهم يستطيع طعن العثمانيين من الخلف كلما تقدموا صوب أوروبا ، وبالتالي يضطر العثمانيون لتفتيت قواهم ونقل أعداد كبيرة من جنودهم الى الجبهة الشرقية المتاخمة لایران ، مما يخفف الضغط عن أوروبا . والحق يقال بان هذه المحاولات الاوروبية لم تحقق نجاحاً يذكر في عهد طهماسب الاول ، ولكنها حققت كل ماكانت تصبو اليه وأكثر في عهد الشاه عباس كما سنرى من خلال الفصل الخامس من هذا الكتاب .

وبعد فترة حكم دامست أكثر من نصف قرن (٩٣٤ - ٩٨٤ هـ) ودع الشاه طهماسب الحياة تاركا الحكم لعدد من الأبناء ، فنشب بينهم صراع انتهى بتولي ابنه اسماعيل الثاني عرش الصفويين وذلك بمساندة بعض طوائف القزلباش ، وقد كان هذا الصراع بين أبناء البيت الصفوي مؤدياً الى صراع كذلك بين طوائف القزلباش مما أوجد شيعاً وأحزاباً متناحرة حول السلطة والنفوذ، وتنتج عن ذلك انتشار الفتك بأبناء البيت الصفوي للتخلص منهم ، فاقدم اسماعيل الثاني على الفتك بكل من نازعوه السلطة من اخوته وأبناء اخوته عدا أخاه الضرير محمد خدابنده، وهكذا

أصبحت العلاقة بين أبناء البيت الصفوي علاقة عداة وتوجس وخيفة كما أصبح الشاه لعبة في أيدي القزلباش الذين يوجهونه وفق أهوائهم، حتى أن بعض هذه الطوائف أرادت أن تمتص الخلافات الداخلية بافتعال خصومة خارجية ، حيث شجعوا اسماعيل على مهاجمة العثمانيين، ولكن العثمانيين عاجلوهم بضربة قاصمة ، مما زاد من حنق الناس والأمراء باسماعيل الثاني ، فسارعوا باغتياله ، وذلك بعد عام واحد من توليه الحكم ، أي في عام ١٥٨٥ هـ .

بعد اغتيال اسماعيل الثاني لم يعد من أبناء البيت المالك الصفوي على قيد الحياة الا أخوه محمد خدابنده الكفيف البصر ، والذي كان يتولى أمر فارس من قبل والده طهماسب الاول واخيه اسماعيل الثاني، وعلى هذا لم يجد المتآمرون على اسماعيل الثاني من بديل ينصبونه حاكما جديدا الا هذا الضير ، ولعلمهم نصبوه لمعرفتهم بأنه ضعيف الشخصية ، وبالتالي لن يقوى على الوقوف أمام أطماعهم .

وأمام ضعف شخصية الشاه الجديد ، بدأ دور أميرات البيت الصفوي في الظهور على مسرح الاحداث ، فقد حاولت أخته بريخان خانم - والتي شاركت القزلباشية في اغتيال أخيها اسماعيل الثاني - ان تكون صاحبة الكلمة الاولى في تسيير الامور داخل البيت الصفوي، وأن يظل أخوها محمد مجرد واجهة تختفي من ورائه ، ولكن هذا أثار حفيظة مهد عليا زوجة محمد خدابنده ، حيث تطلعت الى أن تكون الكلمة لها لا لأخت زوجها ، مما أوجد نزاعا مريرا بين هذه وتلك ، لم ينته الا بمقتلها ، حيث تأمرت مهد عليا على بريخان خانم ، وتم اغتيالها لكي يخلو المسرح السياسي للزوجة مهد عليا ، التي تجبرت وبدأت تفرض نفوذها وسيطرتها على كل رجال الدولة ، وعلى رؤساء الطوائف

القرلباشية ، مما جعل صورتها كريمة لدى الجميع ، ولذا أقدم بعض
القرلباشية على سفك دمها وهي ترقد على الفراش بجوار زوجها
محمد خدابنده .

وامام هذه الاضطرابات داخل البيت الحاكم الصفوي ، بدأت
كل القوى المناوئة للدولة الصفوية بالتحرك ضدهم ، سواء في ذلك
المعسكر الأوزبكي في منطقة ما وراء النهر ، او الدولة العثمانية التي
طلما اغارت على حدود ايران الغربية ، كما اصبح كل طامع في الحكم
يتخفى وراء امير من امراء البيت الحاكم ، حتى يصل به الى العرش ،
فيكون صاحب الكلمة الاولى في الدولة وهذا ما حدث بالنسبة لحماية
الامير عباس بن محمد خدابنده الذي سيصبح ملكا بعد ان ينتزع
الحكم من ابيه ، كما سنرى اثناء دراسة الفصل الاول من هذا
الكتاب .

وهكذا وصل عباس الى الحكم بعد فترة مريرة من الاضطرابات
الداخلية والمنازعات بين ابناء البيت المالك ، والفتن بين الطوائف
القرلباشية ، كما تولى الحكم والدولة محاطة بأعداء أشداء في الشرق وهم
الأوزبك ، وفي الغرب وهم العثمانيون ، ولكن كيف عالج عباس كل
هذه الفتن وتلك المنازعات ، وأصبح حاكما مطلقا مظفرا ؟ هذا ما
سنعرض له بشيء من التفصيل في فصول الكتاب المختلفة .

الفصل الاول

عباس ميرزا في خراسان تم تتويجه في قزوین

الفصل الأول

إقامة عباس ميرزا في خراسان و تويجه في قزوین

- ۱ -

مولده :

ولد عباس ميرزا في ليلة السبت غرة رمضان عام ۱۲۷۸ هـ^(۱) ، الموافق السابع من يناير عام ۱۸۷۱ م^(۲) ، وقد كانت ولادته في مدينة هراة مركز حكومة خراسان في ذلك الوقت^(۳) ، حيث كان والده محمد خدا بنده يتولى أمر خراسان من قبل والده الشاه طهماسب . وقيل بأن محمد خدا بنده عندما رزقه الله بهذا المولود أرسل يبشر الشاه طهماسب بمقدمه وطلب منه اختيار اسم له ، فقام الشاه طهماسب بتسمية المولود باسم (عباس)^(۴) .

أما عن نسبه فهو ابن الشاه محمد خدا بنده الذي حكم خلال الفترة ما

(۱) مجله یادگار : سال سوم شماره دوم مهرماه ۱۳۲۵ ش مقاله بعنوان : مباحث تاریخی از ابتدای صفویه تا آخر قاجاریه : پادشاهان ایران : هریک در کجا مدفونند . ص : ۱۳

(۲) نصر الله فلسفی : زندگانی شاه عباس اول ؛ ج ۱ ، تهران ۱۳۳۴ ش ص : ۱

(۳) دهخدا : لغت نامه ، مراجعه دکتر محمد معین ، شماره ۷۶ ، طهران ۱۳۴۱ ش ، ص : ۴۱

(۴) زندگانی شاه عباس اول ، ج ۱ ص : ۲

بين عامي ٩٨٥ - ٩٩٦ هـ . والذي كان كفيف البصر ، مما ساعد على اضطراب الأحوال الداخلية في عصره . وقد ساعد ذلك أيضاً في بروز دور زوجته مهدعليا ابنة الأمير عبدالله خان المرعشي والي مازندران (١) والذي يتصل نسبه بسيد قوام الدين المشهور باسم الأمير الكبير (٢) . وقد لعبت هذه الزوجة دوراً بارزاً في توجيه دفعة الحكم أيام محمد خدابنده مما أدى إلى الضجر منها والفتك بها ، كما أشرنا إلى ذلك في التمهيد .

وكان عباس الابن الثاني للشاه محمد خدابنده ، حيث رزق بأربعة أبناء هم علي التوالي : حمزة ميرزا ، عباس ميرزا ، أبو طالب ميرزا ، وطهماسب ميرزا . وقد اغتيل حمزة ميرزا عام ٩٩٤ هـ ، أما أبو طالب وطهماسب فقد سمحت أعينهما بأمر من عباس بعد أن تولى حكم الدولة وزج بهما سجينين في قلعة الموت (٣) .

وظل عباس ميرزا يعيش في كنف والديه في مدينة هراة حتى عام ٩٩٠ هـ (١٥٧٣ م) حيث صدرت الأوامر لأبيه بالتوجه صوب شیراز ، وترك إقليم خراسان ، ولكن شاء القدر ألا يسافر الطفل عباس مع والديه ، وأن يعيش محروماً من عطف الوالدين بعد عام ونصف فقط من ولادته ، ولكن كيف تم ذلك ؟

(١) هدايت (رضاقليخان) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصري ، ج : ٨ ، قم (إيران) ١٣٣٩ ش ، ص : ١٩٦

(٢) لغت نامه ؛ شماره : ٧٦ ، ص : ٤١

(٣) ادوارد براون : تاريخ ادبيات إيران از آغاز عهد صفويه تا زمان حاضر ، ترجمه رشيد ياسمی ، چاپ دوم ، تهران ١٣٢٩ هـ ، ص : ٩٧

ولاية عباس أمر خراسان .

كان من المتبع منذ عهد الشاه اسماعيل الأول أن تسند حكومة خراسان لأكبر أبناء الملك ، فأسند أمرها إلى ابنه طهماسب ووفر لهذه المنطقة ما يلزمها من قوات القزلباش التي تستطيع الدفاع عنها ، ورد أي هجوم أوزبكي عليها ، وبعد وفاة اسماعيل الأول ، أسند الشاه طهماسب أمر هذه الولاية إلى ابنه الأكبر محمد خدا بنده . فعاش فيها فترة طويلة ، وكان يتركها أحيانا لفترات وجيزة ثم سرعان ما يعود لحكمها من جديد . ولكن حدث في أواخر حكم الشاه طهماسب أن اختلف محمد خدا بنده مع قائد الجند هناك وأخذ يشكو كل منهما الآخر للشاه طهماسب ، فحرص الشاه على أن يقضى على هذا النزاع حتى لا يكون مدعاة لاضطراب الأمور هناك ؛ مما قد يعرض خراسان لهجمات من قبل الأوزبك المتربصين بالدولة الصفوية ، فأصدر الشاه أوامره التي تنص على :

١ - أن يتوجه محمد خدا بنده وجميع أبنائه عدا حمزة ميرزا إلى شيراز لكي يتولى حكم ولاية فارس .

٢ - إسناد ولاية خراسان ومركزها هراة إلى حمزة ميرزا بن محمد خدا بنده^(١) (وكان عمر حمزة ميرزا في ذلك الوقت ثمانى سنوات) .

ولكن الأمير محمد خدا بنده وزوجته مهد عليا رجوا الشاه طهماسب بالموافقة على تعيين ابنهما الثانى عباس ميرزا مكان أخيه الأكبر حمزة ميرزا

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص : ٩٠٨

الشديد التعلق بوالديه خشية أن تعتل صحته إذا أبعد عنهما^(١) . أما عباس فما زال طفلاً رضيعاً لا يستطيع أن يشعر بمرارة ما يشبه اليتيم ، ولعل تربية عباس بعيداً عن كنف والديه كانت ذات آثار بعيدة على مسلك عباس مع أسرته بعد ذلك ومما سنعرض له في حينه .

وافق الشاه طهماسب على تعيين عباس على ولاية خراسان ومقرها هراة في عام ٩٩٠ هـ ، ولما كان له من العمر وقت صدور الأمر عام ونصف ، فقد أمر الشاه طهماسب بأن يتولى الوصاية عليه شاهقلى سلطان^(٢)

وهكذا بدأ اسم عباس يتردد على الألسنة كحاكم وهو ما زال طفلاً رضيعاً ، وأصبحت منطقة خراسان كلها تحت إمرته الإسمية ، ولولا حرص محمد خدابنده على اصطحاب ابنه الأكبر حمزة ميرزا معه إلى شيراز ، لما تولى عباس أمر خراسان ، ولما أتت الفرصة لعباس لكي يلعب ذلك الدور الخطير الذى لعبه في تاريخ إيران وما جاورها من البلاد ، لأنه لو سافر مع والده محمد خدابنده إلى شيراز ، وبقي حمزة ميرزا ، لكان من الممكن أن يلعب حمزة ميرزا ذلك الدور الذى أداه عباس بتخطيط من أمراء خراسان أولاً ، وبتفكيره ثانياً . وهكذا قدم محمد خدابنده لابنه الرضيع عباس خدمة كبرى دون أن يدري .

— ٣ —

الأمر باغتيال عباس ميرزا :

بعد رحيل محمد خدابنده إلى شيراز ، بقي عباس ميرزا في هراة عاصمة

(١) المرجع السابق ، ص : ٩

(٢) لغت نامه . شماره : ٧٦ ، ص : ٤١

خراسان لا يبرحها إلى غيرها من المدن ، ولم يرد في الأخبار بأنه التقى بأبيه خدابنده منذ رحيله وحتى توليه عرش الدولة الصفوية عام ٩٨٥ هـ (١٥٧٨ م)^(١) . وسارت الأمور على هذه الحال حتى توفي الشاه طهماسب عام ٩٨٤ هـ (١٥٧٦ م)^(٢) . وتولى الحكم من بعده اسماعيل الثاني ، فأبقى على عباس في منصبه والياً على خراسان ، كما أبقى على أبيه محمد خدابنده في مكانه بشيراز .

وفجأة حدث تغير كبير في علاقات أفراد البيت الصفوي وبدأت الاضطرابات تجتاح الدولة ، وانتشرت الدسائس فيما بينهم ، فأقدم الشاه اسماعيل الثاني على الفتك بعدد كبير من أمراء البيت الصفوي ، ولم يعد منهم على قيد الحياة إلا محمد خدابنده وأولاده ، وأخيراً فكر الشاه اسماعيل الثاني في اغتيالهم والتخلص منهم .

وذكر البعض أنه أقدم على هذه الخطوة الأخيرة عندما أنجب ابناً أسماه (أبا الفوارس شجاع الدين محمد)^(٣) ، فأراد أن يهد الحكم لنفسه ولابنه من بعده دون منازع ، ولما لم يبق من أبناء الأسرة من يخشى بأسه سوى أخيه محمد خدابنده وأولاده ، فقد أصدر أوامره السرية إلى بعض حكامه وقواده بالقضاء على أخيه محمد خدابنده وجميع أبنائه ، فأوكل أمر محمد خدابنده إلى (ولي سلطان ذي القدر) أحد ولاة إقليم فارس ، وأسند مهمة

(١) كليفورد ادموند بوسورث : سلسلة هاى اسلامى ، ترجمه فريدون

بدره اى . تهران : ١٣٤٩ ش ، ص : ٢٥٥

(٢) تاريخ ادبيات ايران از آغاز عهد صفويه تا زمان حاضر ،

ص : ٩٧ .

(٣) زندگانی شاه عباس اول ، ج : ١ ، ص : ٢٤

قتل عباس في هراة إلى عليقلينخان شاملو ، على أن يتولى عليقلينخان حكم هراة بعد ذلك^(١) .

وتنفيذاً لأوامر الشاه اسماعيل الثاني ، توجه عليقلينخان صوب هراة ، فوصلها في السادس والعشرين من رمضان عام ٩٨٥ هـ^(٢) ، وكان من المفروض أن يسفك دم عباس ميرزا بمجرد وصوله ، ولكنه تباطأ بعض الوقت ، إما شفقة بهذا الطفل الذي لم يرتكب جرماً يستحق معه عقوبة الإعدام ، وإما بواعز من قدسية شهر رمضان المبارك ، فأثر الانتظار حتى ينقضى هذا الشهر الحرام وتنقضى أيام عيد الفطر^(٣) ، وبعد ذلك بنفذ المهمة التي أسندت إليه ، والتي وجد نفسه مضطراً لتنفيذها امتثالاً لأوامر الشاه اسماعيل الثاني ، وإشباعاً لرغبته هو في حكم مدينة هراة بعد التخلص من عباس .

ولكن شاء القدر أن ينجو عباس من القتل ، حيث وردت الأنباء إلى هراة من قزوین باغتيال الشاه اسماعيل الثاني نفسه في الثالث عشر من شهر رمضان ٩٨٥ هـ (١٥٨٨ م) ، كما ذكرت الأنباء بأن قواد القزلباش قد اختاورا محمد خدابنده سلطانا على إيران وهكذا لم يعد عليقلينخان مجبراً على سفك دم الطفل عباس ميرزا ، بل إن الحكمة استدعى الحفاظ عليه ، والإبقاء على حياته ، إرضاء لوالده الشاه الجديد من جهة ، واحتمال استخدامه ورقة رابحة قد تفيد فيما بعد في تدعيم جانب من يتولى رعايته ، وتصريف أموره من جهة أخرى .

(١) رضا پازوکی . تاریخ ایران از مغول تا افشاریه ، چاپ اول ، طهران

١٣١٨ ش ، ص : ٣٦

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص : ٤٢

(٣) تاریخ ادبیات ایران از آغاز صفویه تا زمان حاضر ، ص : ٩٥

وهكذا تولى عليقليخان الوصاية على عباس ميرزا ، وحكم باسمه في هراة ، وعامل عباس معاملة الأب لابنه ، كما أحسنت زوجته رعاية هذا الابن الجديد لهما ، لدرجة أن عباس كان يناديها (أمي) ، وقد حفظ لهما عباس حسن رعايتهما له ، وظل وفيا لهما كما سأشير إلى ذلك عند الحديث عن مقتل عليقليخان على أيدي القوات الأوزبكية ، وبعد ذلك ضم إليه زوجة عليقليخان لتعيش في بلاطه ، فظلت ملازمة له ومشرفة على خدمته إلى أن توفيت عام ١٠٣٢ هـ (١٦٢٣) في مازندران ، وأمر بأن يدفن جسدها في كربلاء^(١) .

— ٤ —

التحفظ على عباس ميرزا في هراة :

ما أن تولى محمد خدا بنده عرش الدولة الصفوية عام ٩٨٥ هـ (١٥٧٨ م)^(٢) حتى حرص على استعادة ابنه عباس للعيش معه في قزوین ، بعد أن أنجاه الله من عقوبة الإعدام امتثالاً لأوامر الشاه اسماعيل الثاني ، فأرسل الأمير عبد الله خان المازندراني خال عباس إلى هراة لاحتضار عباس ميرزا^(٣) ولكن ما أن وصل إلى هراة حتى اعترض عليقليخان على تسليمه عباس ميرزا واحتج بقوله :

« إن ملك هراة يصل إلى حدود خراسان وما وراء النهر والتركستان ، وكلما كان ولي العهد أو أحد الأمراء الكبار مقيماً بهراة ؛ كلما كان ذلك مدعاة

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص : ٤٢

(٢) سلسله های اسلامی ، ص : ٢٥٥

(٣) ملحقات تاریخ روضه الصفا ناصری ، ج ٨ ، ص : ١٩٥

لاستقرار الأمور في تلك المناطق ، وهذا أفضل لمصلحة الدولة كلها . . (١)

وقد أيدته في ذلك جمع أمراء خراسان ، وقالوا لرسول الشاه وزوجته :
إن هراة منذ بداية الدولة الصفوية يوجد بها أحد الأمراء الكبار ، وإن وجوده
يوجب الاتفاق التام بين حكام مناطق خراسان المختلفة ، وبأوامره يمكن
فض المنازعات والخلافات التي قد تنشأ بينهم ، فإذا رحل عباس إلى قزوين ؛
فستظهر على السطح من جديد الخلافات العديدة التي كانت قائمة قبل ذلك في
خراسان بين طوائف القزلباش ، وسيشغلون بها ، مما يجعل المسرح مهياً لهجوم
الأوزبك على مناطق خراسان . . . (٢)

لاشك أن كلا الحجتين بعيدتان عن الصواب ، والعقيدة أن هدف
عليقليخان كان يتمثل في الاحتفاظ بعباس في هراة كرهينة في يده بضغط بها
على الشاه محمد خدا بنده ، وعلى طوائف القزلباش الموجودة في العاصمة قزوين
والتي يصل عليقليخان إلى تحقيق هذا الهدف نجده يحاول جمع أمراء خراسان
حواله ، فانضم إليه جميع أمراء وقواد طائفته شاملو ، وكذلك أمراء وقواد
طائفة استاجلو برئاسة مرشد قليخان حاكم خواف وباخرز (٣) ، وعقد هؤلاء
جميعاً اجتماعاً اتفقوا فيه على الاتحاد فيما بينهم ضد طوائف القزلباش المسيطرة
على مجرى الأحداث في العاصمة قزوين ، كما اختاروا عليقليخان زعيماً لهم ،
وأطلقوا عليه لقب « خانلرخاني » أي رئيس الخانات (٤) .

واعترض على هذا التجمع مرتضى قليخان حاكم مشهد ، لأنه كان على

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص : ٤٣

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٤) المرجع السابق . ص : ٤٦

عداء سابق مع عليقليخان شاملو ، فشرع بأن بقاء عباس في هراة تحت وصاية عليقليخان مدعاة لافتخاره ، وربما يكون نواة لاستقلال خراسان عن العاصمة قزوين متى سنحت الظروف لذلك .^(١) أضف إلى ذلك أن مرتضى قليخان كان من قبائل التركان المتمركزة في قزوين ، ويهمه ألا يكون للقزلباش من طائفتي شاملو واستاجلو أى سيطرة ، أو أن تكون في أيديهم ورقة رابحة يلوحان بها في الصراع الدائر بينهم وبين طائفته في العاصمة قزوين .

وأمام هذا التعنت من عليقليخان ومرشد قليخان زادت مخاوف محمد خدابنده وزوجته مهدي عليا على مصير طفلها عباس ميرزا ، وصمما على استرجاعه بأى طريقة ، وكلفا رسولا آخر بالتوجه فورا إلى هراة واحضار عباس ، وتهديد عليقليخان ومؤيديه ، ولكن عليقليخان ومرشد قليخان رفضا الانصياع لأوامر الشاه وزوجته ، وصمما على احتجاز عباس في خراسان مهما كانت العواقب ، فكانت النتيجة أن أصدرت مهدي عليا - صاحبة الكلمة الأولى في الدولة - أمرا بعزل عليقليخان ، وإسناد هراة إلى مرتضى قليخان حاكما مشهد والمؤيد لعودة عباس إلى والديه^(٢)؛ ولكن هذا الأمر لم ينفذ .

وأخيرا استدعى الشاه محمد خدابنده وزوجته مهدي عليا سلطان حسين خان والد عليقليخان وأحد كبار رجال البلاط الصفوي بقزوين ، ووبخاه على احتجاز ابنه للأمير عباس ، وطالباه بضرورة العمل على إحضاره إلى العاصمة . فطلب سلطان حسين خان مهلة ثلاثة أشهر يتوجه فيها صوب هراة ويحضر عباس ، ولكنه قال : « إذا كان جميع أمراء خراسان يجمعون على

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفاتناصرى ، ج ٨ ، ص : ١٩٥

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص : ٤٥

عدم الموافقة على رحيل الأمير عباس إلى قزوین ، فإذا يرجى منه ومن ابنته عليقليخان أن يفعلوا ؟ (١) .

سافر سلطان حسين خان كمبعوث ثالث إلى هراة ، وطالب ابنته عليقليخان بتسليمه عباس ميرزا لكي يعود به إلى قزوین ، ولكن عليقليخان جمع أمراء خراسان المتآمرين معه ، وعقدوا مؤتمرا ناقشوا فيه بمطلب سلطان حسين خان ، واتفقوا على عدم السماح لعباس ميرزا بالتوجه صوب قزوین معها كانت العواقب (٢)

تمسكت الحيرة سلطان حسين خان بعد هذا الرفض ، إذ كيف يعود إلى العاصمة قزوین دون عباس ميرزا ؟ وبخاصة بعد أن قالت له مهد عليا قبل سفره : إن فشلت في إقناع ابنك عليقليخان في الإفراج عن عباس وإعادته إلى قزوین ، فلاداعي لعودتك أنت الآخر ، ولتبق في خراسان كذلك ! (٣) وأمام هذا التحذير بقي سلطان حسين خان في هراة فترة يحاول إقناع ابنته ، ولكن دون جدوى ، فانتظر هناك لعل الأحداث تنفرج عن حل يخلصه من هذا المأزق ! .

لم يطل انتظاره وترقبه ، فقد جاءته الأنباء بأن أمراء القزلباش في قزوین قد فتكوا بمهد عليا زوجة الشاه محمد خدا بنده ، وقتلوا معها والديها وجمعاً من أقاربها وأهل قبيلتها وذلك في يوم الأحد الموافق الأول من جمادى الآخرة عام ٩٨٧ هـ (١٥٨٠ م) ، حيث ألقمهم نفوذها وتدخلها في كل شيء ،

(١) ملحقات تاريخ روضه الصفانا صرى . ج ٨ ، ص : ١٩٥ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) زندگانی شاه عباس اول ، ج : ١ ، ص : ٤٥

وتسلطها على زوجها عديم الإرادة^(١)

وبوصول هذه الأنباء إلى هراة ، توقف سلطان حسين خان عن مطالبة ابنه عليقليخان بتسليمه عباس ميرزا ، وعاد بمفرده إلى قزوين دون خشية من الشاه محمد خدابنده الذي كان في درجة من الضعف لا تسمح له بحاسبة أحد .

ونلاحظ من سرد أحداث هذه القصة كيف كانت إيران تحكم قبل عصر عباس : سلطان ضعيف لا يقوى على تصرف أى أمر من أمور دولته ، بل ومن أمور أسرته ، في مقابل ذلك سطوة لا حدود لها لأمراء القزلباش ، ومحاولة كل طائفة منهم الاستقلال إن أمكن بالإقليم الذى يتمركزون فيه ، ومن للسلم به أن هذا الوضع سيؤدى إلى تطاحن وحروب بين طوائف القزلباش المختلفة ، سواء فى داخل الإقليم الواحد ، وسواء بين طوائف القزلباش فى الأقاليم المختلفة ، وهذا ما سنراه واضحا خلال سرد الأحداث بعد ذلك .

— ٥ —

تنصيب عباس ملكا فى هراة :

سبق أن ذكرنا أثناء سرد وقائع قصة احتجاز عباس فى هراة أن خلافا تفجرب بين عليقليخان حاكم هراة ، ومرضى قليخان حاكم مشهد ، وقد أدى هذا الخلاف إلى وجود معسكرين فى خراسان : أحدهما معسكر عليقليخان ويؤازره مرشد قليخان وجميع أمراء القزلباش من طائفتى شاملو واستاجلو ، وثانيهما معسكر مرضى قليخان ويؤازره بعض الأمراء المحيطين بمشهد ، وقد

(١) تاريخ ادبيات إيران از آغاز عهد صفويه تا زمان حاضر ، ص : ٩٨

احتدم النزاع بين المعسكرين حتى وصل إلى الحرب المسلحة ، فتقدمت جيوش عليقليخان ومرشد قليخان صوب مشهد والتقت بجيش مرتضى قليخان على مشارفها ، وكان النصر حليف الجيوش المتقدمة ، مما اضطر مرتضى قليخان إلى التراجع والاحتماء بمشهد نفسها ، فتقدمت الجيوش المنتصرة وحاصرت مشهد مدة أربعة أشهر دون أن تنجح في اقتحامها^(١) .

وأمام منعة مشهد اضطرت جيوش عليقليخان ومرشد قليخان إلى فك الحصار ، والتوجه صوب نيسابور المتعددة مع مشهد ، بغية الاستيلاء عليها ، ولكن حاكمها استطاع أن يحميها من هجومهم ، فارتدوا عنها دون الظفر باحتلالها^(٢) .

هذه الأحداث كانت ذات صدى في العاصمة قزوین ، حيث شعر أمراء القزلباش هناك بأن عليقليخان قد تجاوز كل حدوده ، وأنه يهدد كل أعوانهم في خراسان ، فصمموا على الانتقام منه في شخص والديه ، فألقوا القبض على سلطان حسين خان وزوجته ، ونفذوا فيهما حكم الإعدام^(٣) ، مما زاد الموقف سوءاً في خراسان ، حيث جاهر عليقليخان بمدائه السافر للبلط وأمراء القزلباش بالعاصمة ، وأقدم على تنفيذ خطوة جريئة وهي : إعلان تنصيب عباس ملكاً على خراسان كلها ، وذلك في عام ٩٨٩ هـ ، (١٥٨٢ م) وأطلق عليه اسم الشاه عباس ، وقرأ باسمه الخطبة^(٤) .

لاشك أن إقدام عليقليخان على إعلان عباس ملكاً في خراسان لم يكن

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصري ج ٨ ، ص : ٢٠٢

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٣) زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص : ٦٢

(٤) تاريخ ايران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٠٨

نتيجة لمقتل والديه فقط ، بل كانت هناك عوامل أخرى شجعت على اتخاذ هذا القرار ، وأهمها .

١ - ضعف الشاه محمد خدا بنده ، وبخاصة بعد مقتل زوجته مهدي عليا .

٢ - انغماس ولي العهد حمزة ميرزا في لهوه وعبثه ، وعدم اكترائه بأمور الدولة ، وعدم حرصه على مساعدة أبيه ضد الأخطار المحيطة به في الداخل والخارج^(١) .

٣ - انشغال الجيش الصفوي بصد هجوم عثماني متقدم في آذربايجان ، مما يجعل الفرصة سانحة لعليقليخان ليتخذ قراره دون خوف أو وجل .

٤ - كان هدف عليقليخان منذ وصوله إلى هراة يتمثل في محاولة التسلط وفرض نفوذه على المنطقة كلها ، وجمع الأعوان حوله ، وقد وضع هدفه هذا من احتجازه لعباس ميرزا في هراة ، ومن تجميعه أمراء القزلباش من طائفتي شاملو واستاجلو حوله ، وانتخابهم له ليكون رئيساً عاماً لهم .

بإعلان عباس ملكا ، أصبح للدولة الصفوية - ولأول مرة في تاريخها - ملكان ، أحدهما الشاه محمد خدا بنده الحاكم الشرعي للدولة كلها ومقره قزوین ، وثانيهما ابنه عباس الذي نصبه عليقليخان ملكا على خراسان ، ومقره هراة ، والنتيجة المتوقعة أن يندلع الصراع الحربي بينهما ، ويكون الصراع فرصة لأعداء الدولة الصفوية في الداخل والخارج للتطاول على سيادتها وأملاكها ، مما يزيد الأحوال سوءاً ، ويهدد الدولة كلها بالزوال والاندثار .

وما أن وصلت أنباء هراة إلى الشاه محمد خدا بنده وهو مشغول بمحاربة

(١) نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة

العثمانيين ، حتى آثر عقد صلح مع العدو الخارجى الكى بتفرغ لهذا الخطار
الداخلى ، وأعد جيشه عدته للتوجه إلى خراسان لقمع الفتنة قبل أن يستفحل
خطرها ، كما أخذ عليقليخان ومرشد قليخان ومؤيدوهما يستعدون للقاء جيش قزوين .
وفعلا تقدمت جيوش خراسان للقاء جيش قزوين فى سبزوار ، ولكن ما أن
اقترب الشاه محمد خدا بنده بجيشه حتى شهرت جيوش خراسان بأنه لا قبل
لها بحاربة الجيش المتقدم الذى يفوقها عدداً وعدة ، وتراجع كل جيش
من جيوش خراسان إلى مقر حكمه ، فرجع مرشد قليخان وعسكر فى قلعة
« تربة » ، وعاد عليقليخان أدراجه وعسكر فى قلعة هراة . فتقدم جيش الشاه
محمد خدا بنده أولاً إلى قلعة تربة وحاصرها مدة ستة أشهر دون أن يتمكن
من الاستيلاء عليها ، فتوسط بعض الأمراء بين الشاه وبين مرشد قليخان
حتى تم الصلح بينهما ، بشرط أن يسحب مرشد قليخان اعترافه بعباس ويعلن
خضوعه للشاه محمد خدا بنده ، ثم مثل أمامه ، فأمنه الشاه على نفسه وعلى مركزه
وأعادته إلى حكم منطقته مرة أخرى^(١) .

بعد ذلك تقدم جيش قزوين صوب هراة ، فالتقى بمقدمات جيش
عليقليخان وانتصر عليها فى بعض المعارك الصغرى ، ثم واصل تقدمه حتى
حاصر قلعة هراة حيث يوجد عليقليخان وعباس ، واستمر الحصار مدة شهرين
وقد فكر ميرزا سليمان وزير الشاه محمد خدا بنده فى خطة مؤداها أن يصعد
الجنود ذات ليلة السلام ، ليفاجئوا جنود عليقليخان وعباس بالداخل ، ولكن
أعداء هذا الوزير أبلغوا عليقليخان بالخطة عن طريق رسالة أرسلت بسهم إلى
داخل القلعة^(٢) ، مما أدى إلى فشل الخطة .

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصرى ، ج ٨ ، ص : ٢١٦

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص : ٧٦

ثم حدث أثناء الحصار أن تقدمت الجيوش العثمانية صوب آذربايجان واستولت على أجزاء منها ، مما كان يتحتم معه على الشاه محمد خدا بنده وجيشه العودة لصد هذا الهجوم العثماني ، لذا بدت في الأفق بوادر صلح بين الجانبين ، فأرسل عليقليخان ابنه إلى معسكر الشاه محمد خدا بنده ليقدم فروض الطاعة والمعاذير ، ويطلبه بفك الحصار عن قلعة هراة ، فأحسن الشاه استقباله وقبل اعتذار أبيه^(١) ، ثم أصدر الشاه أوامره بتثبيت ابنه عباس على حكم خراسان كلها من قبله ، وأن يظل عليقليخان واصيا عليه^(٢) ، كما أمر بعزل مرتضى قليخان عن حكم مشهد^(٣) حتى لا تتجدد الاضطرابات في منطقة خراسان ، في مقابل أن يعيد عليقليخان اسم الشاه محمد خدا بنده إلى الخطبة في خراسان ، وتسك النقود باسمه ، وأن يعترف عليقليخان وعباس ميرزا بولاية العهد لميرزا^(٤).

بعد أن اطمان الشاه محمد خدا بنده على إخماد فتنة عليقليخان ، وابنه عباس ميرزا ؛ سارع بالعودة إلى العاصمة استعدادا لصد الهجوم العثماني على آذربايجان ، وقد وصل إلى العاصمة في جمادى الأولى عام ٩٩١ هـ . هدأت الأحوال في خراسان بعض الوقت بعد عودة الشاه إلى قزوین ، وانتصاره على فتنة ابنه عباس والمقامرین معه ، ولكن على الرغم من هذا الانتصار فإننا نلاحظ أن عباس بقي في خراسان وباعتراف من الشاه نفسه ، بعد أن حاول في حياة زوجته مهد عليا استعادته إلى قزوین وفشل في ذلك ،

[١] ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصري ج ٨ ، ص : ٢٠٢

[٢] تاريخ ايران از مغول تا افشاريه . ص : ٣٠٨

[٣] زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص : ٧٧

[٤] المرجع السابق ، ونفس الصفحة

وبقاؤه في خراسان معناه احتمال معاودة التآمر ضد الشاه ، وهذا ما حدث
 وسنعرفه بعد ذلك ، كما أحرز عليقليخان بعض المكاسب ، حيث عينه الشاه
 بأمر شرعى منه وصيا على ابنة عباس ميرزا ، ومعنى ذلك أنه كوصى على
 عباس قدا كتسب شرعية في أن يكون صاحب الكلمة الأولى في خراسان
 كلها لاني هراة وحدها ، وبخاصة أنه نجح في دفع الشاه محمد خدابنده لعزل
 مرتضى قليخان عن حكم مشهد ، وبذلك خلت خراسان من أى قوة مناوئة
 له ، ولكن على الرغم من ذلك لم يواته الحظ كما كان يأمل ، بل سار الحظ
 في ركاب رفيقه مرشد قليخان ، فما أسباب هذا التحول ؟

— ٦ —

عباس ميرزا في مشهد :

ما أن عاد الشاه محمد خدابنده إلى قزوین ، حتى عاد مرشد قليخان إلى
 شق عصا الطاعة ، فتقدم صوب مشهد وطرد منها (سلیمانخان) حاكمها من
 قبل الشاه محمد خدابنده وذلك عام ١٩٩٢ هـ ، كما سيطر على بعض المناطق
 المجاورة لمنطقة نفوذه الأصلية في خواف و باخرز ، ووزعها على أقاربه من
 أمراء طائفة استاجلو^(١)

وبعد أن شعر باتساع نفوذه ، بدأ يخطط لنقل عباس ميرزا من هراة
 إلى مشهد لتكون له الوصاية عليه ، وتكون الكلمة الأولى في خراسان
 كلها له ، لذا نراه يحاول أن يدعو عباس ميرزا إلى زيارة الأعتاب المقدسة
 في مشهد ، حتى يروح عن نفسه^(٢) ، فبدأت الشكوك تساور عليقليخان في

[١] زندگانی شاه عباس اول ، ص : ١١٦

[٢] تاریخ ایران از مغول تا افشاریه ، ص : ٣٠٩

نوايا مرشد قليخان ، وماذا يبغيه من وراء دعواته المتكررة لعباس ميرزا
لزيرة مشهد ، وزادت شكوكه عندما وصلتته رسالة من مرشد قليخان يدعوه
ومعه عباس ميرزا للحضور إلى مشهد للتشاور معاً في تسخير أجزاء خراسان
الغربية حتى حدود دامغان وبسطام واستراباد ، فتمالك الضيق عليقليخان من
هذه الدعوة ، إذ كيف يجرؤ مرشد قليخان على دعوته وعباس المثلول لديه
في مشهد ، والمفروض أنه يأمر بأمره ، ويمثل هو في هراة ويقدم له ولعباس
ميرزا فروض الطاعة ، لذا سارع عليقليخان بتوجيه رسالة إليه يدعوه فيها
للحضور إلى هراة لكي يقدم فروض الطاعة .

كتم مرشد قليخان حقه ونواياه وسافر إلى هراة ، وهناك جرت محاولة
لاغتياله مما جعله يطلب العودة فوراً إلى مشهد على الرغم من اعتذار عليقليخان
بأن ما حدث لم يكن على علم به ^(١) ، وأخيراً عاد إلى مشهد واحتدم
الصراع بين الطرفين ، ثم تطور النزاع إلى حد الاستعداد للحرب ، وأخيراً
التقى جيش هراة وجيش مشهد في معركة وقعت على الطريق بين المدينتين عند
بلدة تسمى (سوسفيد) .

وأثناء احتدام القتال بينهما ، حدث حادث مفاجيء غير سير الأحداث
في خراسان وإيران كلها بعد ذلك . فقد ذكر البعض بأن عباس ميرزا كان
موجوداً مع عليقليخان في هذه الحرب ، فأوصى مرشد قليخان بعض جنوده
بمحاولة اختطاف عباس ميرزا ، وقد واتتهم الفرصة عندما طعن فرس عباس
في المعركة ، وترجل عنه وضل طريق عودته صوب عليقليخان ، فألقى جنود
مرشد قليخان القبض عليه وأسروه ، وأخذوه صوب مرشد قليخان الذي

[١] زندگانی شاه عباس اول ، ص : ١١٧

سارع بإرساله إلى مشهد ليكون تحت وصايته بعد ذلك. (١) وقد حاول عليقليخان استعادته أو قتله ولكن دون جدوى .

وبعد أن ظفر مرشد قليخان بوجود عباس ميرزا في مشهد حاول أن يعيد الوثام بينه وبين عليقليخان ، فراسله بدعوه للحضور إلى مشهد للتصالح والتعاهد على الود مرة أخرى ، كما أفرج عن الأسرى من طائفة شاملو ؛ وقلد من رغب منهم البقاء في مشهد مناصب هامة في بلاط خراسان بمشهد ، ونصب بعضهم مناصب قيادية في جيش عباس ، وعلى الرغم من كل ذلك رفض عليقليخان دعوته ، فأقدم مرشد قليخان على عقد مؤتمر كبير في « كوه سنكين » أحد متنزعات مشهد وذلك في بداية عام ٩٤٤ هـ ، حيث أعاد فيه تنصيب عباس ملكا على خراسان وخطب له وسك النقود باسمه ، وأطلق على نفسه نائب السلطنة ، وقد ساعده في ذلك انشغال محمد خدا بنده وحمزة ميرزا في محاربة العثمانيين بأذربايجان. (٢)

وهكذا انتقل عباس ميرزا للعيش في مشهد بعد أن قضى في هراة مدة أربعة عشر عاما ، إذ ولد بها عام ٩٧٨ هـ ولم يغادرها إلا بعد أسره في معركة سوسفيد عام ٩٩٢ هـ ، وبانتقاله إلى مشهد يكون قد انتقل إلى وصاية مرشد قليخان ، الذي أصبح بوصايته على عباس ميرزا أكبر أمراء خراسان نفوذا وقوة ، مما أوجد سوء تفاهم دائم بينه وبين عليقليخان ، ولم ينقض سوء التفاهم هذا إلا بمقتلها بعد ذلك ، كما أن انتقال عباس إلى مشهد ، نقل مركز الأحداث في خراسان من هراة إلى مشهد ، وضاعت معه آمال عليقليخان في استخدام عباس كورقة رابحة قد تصل بينه وبين الحكومة المركزية

(1) Sir Percy Sykes: A History of Persia, Vol II, London 1951, p. 173.

[٢] زندگانی شاه عباس اول ج ١ ، ص ١٢٠

إذا نجح في فرض عباس ملكا على الدولة الصفوية كلها ، وانتقلت تلك
الآمال إلى الوصي الجديد مرشد قليخان الذي نجح فيما لم ينجح فيه عليه عليخان ،
كما سنعرف من تطور الأحداث بعد ذلك .

— ٧ —

النزاع حول ولاية العهد .

كانت الأحوال في العاصمة قزوین إبان حكم الشاه محمد خدا بنده
تقسم بعدم الاستقرار والاضطراب ، مما أدى إلى وجود مزيد من الاغتيالات
فكلما شعر قواد القزلباش بوجود شخصية قوية من بين أفراد أسرة الشاه ،
يمكن أن تقف في طريقهم وتمهد من تسلطهم ، سارعوا باغتيالها ، وهذا ما حدث
لكل من پریخان خانم أخت الشاه ، ثم زوجته مهدي عليا ، وأخيرا تم
اغتيال ولي العهد حمزة ميرزا في ٢٢ من ذي الحجة عام ٩٩٤ هـ^(١) .

وما أن اغتيل ولي العهد حتى عمت الاضطرابات جميع مدن إيران ،
وزاد الجدل حول من سيكون ولي العهد الجديد من بين أبناء محمد خدا بنده
الباقيين على قيد الحياة ، وهم حسب ترتيب أعمارهم عباس ميرزا ، وأبو طالب
ميرزا ، وطهماسب ميرزا ، وكان الشاه يقطن إلى أن يباشر الحكم بنفسه ،
وإلا يولي أحد أولاده ولاية العهد ، لأنه لو أسند ولاية العهد إلى ابنه عباس
فسيجعل الكلمة بعد ذلك لقواد طائفتي استاجلو وشاملو ، وسيغضب الطوائف
المتحركة في العاصمة قزوین ، وإذا أسند ولاية العهد إلى أبي طالب أو إلى
طهماسب ، فإنه سيغضب ابنه عباس والطوائف المؤيدة له ، وبالتالي فإن إقدامه
على تعيين أي ولي للعهد سيثير الفتن والاضطرابات من جديد ، وقد خاطب

[١] تاريخ أدبيات إيران از آغاز عهد صفوية تا زمان حاضر ، ص ٩٧

قواده في ذلك ، فلم يوافقوه رأيه ، وقالوا له ، لا بد من تعيين ولي للعهد لأنه ضرير لا يستطيع سياسة أمور الدولة .^(١)

وقد انقسم الأمراء والقواد إلى مجموعتين ، مجموعة ترى أن تسند ولاية العهد إلى الابن الأكبر عباس ميرزا الموجود في خراسان ، ومجموعة أخرى ترى أن يسند المنصب إلى أبي طالب المقيم في قزوین ، ثم برزت جماعة ثالثة رأّت عدم الإضرار بأيهما ، على أن تقسم ولاية العهد بينهما ، فتقسم أراضي الدولة الصفوية إلى قسمين ، وتعهد ولاية عهد كل قسم منهما إلى أمير من هذين الأميرين^(٢) . ولكن الرأي الأخير كان خافتاً ولم يتردد كثيراً .

أما عن الجماعة التي رأّت أن تسند ولاية العهد إلى أبي طالب فتتمثل في بعض طوائف القزلباش المتمركزة في قزوین ، وكان هدفها من ذلك فرض نفوذها على مجرى الأحداث في الدولة كلها ، وذلك لضعف الشاه محمد خدابنده ، ولحدائثة سن أبي طالب المرشح لولاية العهد ، كما أنها رأّت أن تبعد عباس عن ولاية العهد حتى لا تعطى الفرصة للأمراء القزلباش من طائفتي استاجلو وشاملو للوصول إلى العاصمة في حالة تولى عباس العرش ، مما يقضى على مكاسبها وسطوتها ، وقد تزعم هذا الاتجاه إمامقليخان في قزوین^(٣) .

واحتج أصحاب هذا الرأي ببعض الحجج الواهية ، ومنها أن حمزة ميرزا كان قد أوصى قبل وفاته ، بأن تعهد ولاية العهد من بعده لأخيه أبي طالب ، وعلى هذا يجب أن تنفذ وصيته ، ويستبعد عباس من ولاية

[١] زندگانی شاه عباس اول ج ١ ، ص : ١١٤

[٢] تاریخ ایران از مغول تا افشاریه ، ص : ٣٠٩

[٣] أحمد تاج بخش [دكتور] : ایران در زمان صفویه ، تبریز ١٣٤٠

المهد^(١). كما احتجوا أيضاً بأن عباس قد عاش طيلة حياته في خراسان ،
ومن الأفضل له وللدولة أن يظل هناك ، ولا داعي لمزيد من المشاكل وإسناد
ولاية المهدي له ، وإنما الأجدر بها من عاش بقزوين طيلة حياته وهو
أبو طالب^(٢).

أما الجناح المضاد الذي رأى ضرورة إسناد هذا المنصب لابن الأكبر
عباس ميرزا ، فقد كان يتمثل أولاً في أمراء القزلباش من طائفتي استاجلو
وشاملو المتواجدين في خراسان ، وانضم إليهم بعض أمراء طائفتي التركان
وتسكو في قزوين وما جاورها ، وكذلك مرتضى قليخان وأبناؤه في
دامغان ، على الرغم من عدائهم السابق لكل من مرشد قليخان استاجلو ،
وعلي قليخان شاملو^(٣) ، وانضم إلى مؤيدي عباس حکام كاشان وكرمان
ويزد وأصفهان^(٤).

ولكن على الرغم من كثرة المؤيدين لعباس ميرزا ، فقد استطاع الجناح
الآخر إجبار الشاه محمد خدا بنده ، على إصدار أوامره بأن يتولى ولاية المهدي
ابنه أبو طالب ، متخطياً بذلك حق الابن الأكبر عباس ميرزا ، وكان لهذا
القرار أثره الكبير في زيادة الاضطراب في الدولة ، بل إنه أدى إلى عزل
الشاه محمد خدا بنده نفسه بعد ذلك .

[١] زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص ١١٤٠

[٢] ایران در زمان صفویه ، ص ٥١

[٣] نفس المرجع ونفس الصفحة

[٤] زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص ١٢١

تمحرك عباس صوب قزوین :

سبق أن ذكرت أنه بعد موت حمزة ميرزا ، اضطربت الأحوال في إيران ، واختلف أمراء القزلباش حول شخصية ولي العهد ، ففكر مرشد قاييخان في استطلاع أحوال قزوین ، لذا أرسل رسولا من قبل عباس ميرزا إلى العاصمة ليقدم مراسم العزاء إلى أبيه الشاه محمد خدا بنده في وفاة حمزة ميرزا ، وقد حمل مرشد قاييخان هذا الرسول عدة رسائل موجهة إلى رؤساء طوائف القزلباش في قزوین يدعوهم إلى الألفة والمحبة ، ونبذ الخلافات وضرورة الاتفاق على المناداة بعباس وليا للعهد .^(١)

ومن المؤكد أن الغرض الرئيسي الذي كان يهدف إليه مرشد قاييخان من سفر هذا المبعوث إلى قزوین ، يتلخص في استطلاع أحوال العاصمة ، وكيف تساس الأمور هناك ، حتى يستطيع أن يتصرف على بينة ، ويرسم خطته على أساس الإفادة من مواطن الضعف في العاصمة .

وأخيرا عاد رسول عباس ، ومرشد قاييخان من العاصمة يحمل نبأ رفض أمراء القزلباش اختيار عباس وليا للعهد ، وإعطائهم المنصب لأبي طالب ميرزا ، ولكن أهم ما عاد به هو اطلاع على أحوال قزوین وما يكتنفها من اضطرابات وضعف . وأمام هذه الأنباء أدرك مرشد قاييخان أن الفرصة سانحة للتقدم صوب قزوین والإطاحة بالشاه محمد خدا بنده ، وتنصيب عباس مكانه . وقد شجع مرشد قاييخان على التوجه صوب العاصمة - إلى جانب سوء الاضطراب هناك - عدة عوامل منها انشغال محمد خدا بنده خارج العاصمة ،

[١] إيران در زمان صفويه ، ٥١

حيث كان موجودا باصفهان^(١) ، وكذلك الهجوم المفاجيء الذى يشنه الأوزبك على المناطق الشرقية من خراسان ، وتقدمهم صوب هراة ، فكان مرشد قليخان يخشى تقدمهم صوب مشهد ، لذا آثر سرعة الحركة للابتعاد عن خراسان ، ومع ذلك فقد أفاد من هجومهم هذا عند بداية تحركه حيث أعلن أنه خارج ومعه عباس ميرزا وجيشهما لصد الهجوم الأوزبكي ودفعه خارج خراسان^(٢) ، ولكنه بعد ذلك توجه صوب قزوین لا صوب هراة ، كما سبق أن أعلن . بدأت رحلة عباس ومرشد قليخان فى بداية عام ٩٩٦ هـ^(٣) (١٥٨٧ م) وقد بلغ عدد الجيش المرافق لهما خمسمائة وستين جندي^(٤) وسلكت الرحلة طريق دامغان وسمنان ، وعند وصولهم إلى دامغان انضم إليهم أبناء مرتضى قليخان ، كما أحسن حاكم سمنان استقبالهم ، وفى كل مدينة كانوا يمرون بها كان عدد من الجنود ينضمون إلى جند عباس ، مما كان يزيدهم قوة وتفاؤلا بتحقيق النصر والاستيلاء على قزوین ، وقد ذكر البعض أن عدد جيش عباس وصل وهو على مشارف قزوین إلى ألفى فارس وجندي^(٥) ، أى ما يعادل أربعة أضعاف من خرجوا معه من مشهد .

وبعد استقبالهم الحافل فى سمنان ، واصلوا السير حتى بسطام ، وهناك كتب مرشد قليخان وعباس رسالة إلى حاكم قزوین يطالبانه فيها بالاستعداد لاستقبال عباس وتسليمه المدينة ، فإذا بحاكم قزوین يلجأ إلى عمالة كل من الابن والأب معا ، إذ أرسل رسالة إلى الشاه محمد خدابنده

[١] إيران در زمان صفویة ، ص : ٥٢

[٢] تاریخ ایران از مغول تا افشاریه ، ص : ٣٠٩

[٣] زندگانی شاه عباس اول ج ١ ، ص : ١٢٨

[٤] ملحقات تاریخ روضه الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٣٢

[٥] زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص : ١٢٩

في أصفهان يدعوهم إلى العودة بسرعة إلى قزوین قبل أن يصلها عباس ، كما أرسل - في نفس الوقت - رسالة إلى عباس ومرشد قلیخان یرحب فیها بمقدمهما ، واستعداده لتقدیم فروض الطاعة والولاء لعباس^(١) وقد اتخذ حاکم قزوین هذا الإجراء لكي یضمن بقاءه فی منصبه إذا نجح الوالد أو الابن فی الوصول أولاً إلى قزوین ، والتغلب علی الجناح المضاد له .

وما أن وصلت رسالة حاکم قزوین إلى عباس حتی سارع بالتوجه صوب العاصمة ودخلها قبل أبیه فی عشرة من ذی القعدة عام ٩٩٦ هـ (١٥٨٨ م) دون مشقة أو قتال^(٢) وبمجرد دخولهم المدينة أعلن مرشد قلیخان تنصیب عباس كشاه جدید للدولة الصفویة ، كما أعلن تعیین نفسه نائباً للسلطنة ووكیلاً للشاه عباس^(٣) .

وهكذا كملت رحلة عباس ومرشد قلیخان بالنجاح ، فظفر عباس بالسلطنة وظفر مرشد قلیخان بمنصب نائب السلطنة ، مما جعل موقف الشاه محمد خدا بنده صعباً ؛ فإما أن یحاول اقتحام العاصمة والدخول فی حرب مع ابنه ومؤيديه ، وإما أن یسلم بالأمر الواقع ، ویتنازل عن العرش للشاه عباس ، ویتوارى هو عن الظهور علی مسرح الأحداث ، فإلام انتهى للموقف بينهما ؟ .

- ٩ -

تقویج الشاه عباس الأول :

بعد أن نجح مرشد قلیخان فی تنصیب الشاه عباس ، كان لزاماً علیه أن

[١] المرجع السابق ونفس الصفحة

[٢] ایران در زمان صفویه ، ص : ٥٢

[٣] ملحقات تاریخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٣٢

يستعد للقاء قواد القزلباش المناصرين للشاه محمد خدا بنده ، إذا فكروا في مهاجمة قزوين والإطاحة بالشاه عباس ومؤيديه ، ولذا نجده يكلف أحد قواده ويدعى « پيرغيب استاجلو » بالتوجه على رأس قوة كبيرة من الجند صوب الطريق الموصل بين قزوين وأصفهان - حيث كان يوجد الشاه محمد خدا بنده - لكي يتصدى لأي هجوم محتمل من جيش العراق ^(١) المناصر للشاه المخلوع ^(٢)

أما عن الشاه محمد خدا بنده ، فبمجرد أن وصلتته - وهو في اصفهان - أنباء تقدم عباس ومرشد قليخان صوب العاصمة قزوين ، وذلك من خلال الرسالة التي بعث بها حاكم قزوين إليه ، يدعوها إليها إلى العودة إلى العاصمة قبل وصول عباس إليها ، فإنه سارع بالعودة ومعه ولي عهده أبو طالب ميرزا ^(٣) وعندما اقترب من مدينة قم أرسل يستدعى حاكمها ليقدم فروض الطاعة والولاء ، ولكن هذا الحاكم المؤيد لمسكر الشاه عباس ومرشد قليخان ، رد على استدعاء محمد خدا بنده بإغلاق أبواب المدينة في وجهه ، ورفض السماح لجيش العراق دخول مدينته ^(٤) .

وعندما أدرك الشاه محمد خدا بنده وقواده أن عودتهم إلى قزوين لن تكون بالأمر الهين ، وأن الشاه عباس قد سبقهم إليها وتم تفصيبه ، أخذوا يتشاورون في الأمر ، وانقسمت الآراء حول الخطوة التالية بعد منعهم من

[١] يقصد بجيش العراق ، الجيش المكون من طوائف القزلباش المتمركزة في مناطق قزوين وأصفهان وهمدان وأجزاء إيران الغربية ، وذلك تمييزاً له عن جيش خراسان المكون من طوائف القزلباش المتمركزة في هراة ومشهد وغيرها من مدن خراسان المختلفة

[٢] زندكاني شاه عباس أول ، ج ١ ، ص ١٢٩

[٣] تاريخ إيران از مغول تا افشارية ، ص : ٣١٠

[٤] ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٣٢

دخول قم ، فرأى بعض قواده العدول عن التوجه صوب قزوین ، وتغيير مسارهم نحو همدان ، واتخاذها عاصمة جديدة للدولة الصفوية تحت حكم الشاه محمد خدا بنده ، وحببتهم في ذلك أن خزانة الدولة معهم ، وبدون الأموال لن يستطيع مرشد قليخان وعباس تصريف الأمور في قزوین ، وسيضطرم ما هم فيه من فقر إلى الرضوخ والإذعان ، مما سيقضى على فتنهم دون حرب أو عراق (١) .

أما الرأي الآخر ، فقد صمم أصحابه على ضرورة التوجه صوب قزوین والتصدى لمرشد قليخان وعباس والقضاء عليها وعلى أعوانها ، لأن ترك العاصمة لسيطرة مرشد قليخان قد يقضى على نفوذهم وسيطرتهم نهائياً .

وأخيراً تغلب أصحاب الرأي الثاني ، وأخذ جيش الشاه محمد خدا بنده يستعد للهجوم على قزوین ، ولكن حدث أثناء استعدادهم ما أدى إلى فشل كل خططهم ، حيث وصل إلى مسامع جنده تحذير مرشد قليخان الذي قال فيه : من لم يعد من هؤلاء الجنود بسرعة إلى العاصمة قزوین وقد تخلى عن سلاحه ، وأعلن موافقته على اعتقال عباس عرش الصفويين ، فإن جند الشاه سيستولون على ممتلكاته وأمتعته ودياره وزوجته (٢) .

وأمام هذا التحذير بدأ جنود الشاه محمد خدا بنده يتخلون عن مناصرتهم ، ويحاولون الإسراع إلى قزوین ليطمئنوا على ذويهم وديارهم ، وبخاصة أنهم تركوهم منذ فترة ليست بالقصيرة ، ولم تمض فترة وجيزة حتى انخفض عدد جنود الشاه المعزول من ثلاثين ألف جندي إلى عشرة آلاف جندي فقط (٣) .

[١] زندگانی شاه عباس ، ج ١ ص ١٣٠ .

A History of Persia Vol II, p.173. (٢)

[٣] زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص ١٣١ .

وبعد أن أدرك أمراء القزلباش المحوطون بالشاه محمد خدا بنده صعوبة الموقف بالنسبة لهم ، وللشاه ، وبعد انسحاب معظم جنودهم ، بدأوا يبحثون عن حيلة يمكن أن تحفظ لهم بعض نفوذهم وسيطرتهم في قزوین ، فاقترحوا على الشاه محمد خدا بنده التوجه صوب العاصمة وإعلان تنازله عن الحكم لابنه الشاه عباس الأول ، عملاً بالمبدأ القائل « من الأفضل للشيخ أن يسلم الذوبة إلى الشاب »^(١) ، كما أن أعداء إيران من الأوزبك والعمانيين قد استباحوا أرضها واحتلوا أجزاء كثيرة منها ، فإذا استمر النزاع بين الابن والأب حول العرش فإن الفرصة مواتية لهؤلاء الأعداء لزيادة المساحات التي يسيطرون عليها ، وعلى هذا فصوت العقل يدعو إلى أن يتولى زمام الأمور الأقوى وهو الشاه عباس حتى تستطيع إيران أن تقف أمام هؤلاء الغزاة في الشرق والغرب^(٢) .

واعل صوت العقل هذا لم يكن إلا محاولة من أمراء القزلباش المحيطين بالسلطان محمد خدا بنده للتظاهر بتأييدهم للشاه الجديد عباس الأول ، حتى يضمنوا الانضمام إلى كفته الراجحة ، انتظارا لما تسفر عنه الأحداث ، لعلمهم يجدون الفرصة للاطاحة بمرشد قليخان ، وبعدها يحيطون بالشاه عباس ، ويسيظرون على مجرى الأمور كما كان الحال مع الشاه المعزول محمد خدا بنده .

وهكذا وجد السلطان محمد خدا بنده نفسه مضطرا لقبول الأمر الواقع والتقدم صوب قزوین لالكي يتردد عرشا ضاع ، ولكن ليعطن تنازله الرسمي عن الحكم لابنه الشاه عباس الأول ، وعندما وصل إلى مشارف العاصمة ومعه ابنه أبو طالب ميرزا ، كان الشاه عباس في استقبالها ، فرحب بمقدمها ،

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣١٠

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص ٥٢ ، زندگانی شاه عباس اول ج ١ ،

وأقبل على والده مقبلا يده ، وربت على كتف أخيه أبي طالب (١) .
 وفي هذه الأثناء كان مرشد قليخان قد جمع رؤساء القزلباش والأمراء
 في عمارة « جهل ستون » مقر الحكم في قزوین ، وأعد العدة لتتويج الشاه
 عباس رسميا ، بعد أن تم تنصيبه فعليا منذ فترة ، فتقدم الشاه عباس وهو
 يمسك بيد والده السلطان محمد خدا بنده . وعندما وصلا إلى كرسی العرش
 جلس الشاه عباس وخلع السلطان محمد خدا بنده التاج عن رأسه ووضع على
 رأس ابنه (٢) كما قام بتسليمه ودائع الأسرة الصفوية ونفائسها كما تنص على
 ذلك قوانين الوراثة ونظام انتقال السلطة في الدولة الصفوية من حاكم إلى
 من يليه . (٣)

وهكذا أصبح الشاه عباس ملكا متوجا بطريقة شرعية منذ ذلك اليوم ،
 بعد أن كان يعرف قبل ذلك بشاه خراسان ، عندما نصبه مرشد قليخان في عام
 ٩٩٤ هـ في مدينة مشهد . ولكن متى تم هذا التتويج الشرعي ؟
 اختلف المؤرخون حول تحديد التاريخ الحقيقي لتتويج الشاه عباس الأول
 إذ ذكر البعض بأنه توج في أوائل شهر ذي القعدة من عام ٩٩٥ هـ (١٥٨٧ م) (٤)
 وقال آخرون إنه توج في شهر ذي الحجة من عام ٩٩٦ هـ (١٥٨٨ م) (٥)
 إلى غير ذلك من التواريخ المتأرجحة بين شهر هذين العامين ، وقد أشار
 الأستاذ نصر الله فلسفي إلى هذا التضارب في قوله :

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصري ، ج ٨ ، ص : ٢٣٤

(٢) إيران در زمان صفويه ، ٥٢

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ج ٨ ، ص : ٢٣٤

(٤) انظر تاريخ إيران از مفل تا افشاريه ، ص : ٣١١ ، دائرة معارف

البيستان ، ج ١١ ، ص ٤٨٥

History of Persia Vol II, p. 174

(٥) تاريخ اويبات از آغاز ايام عهد صفويه تا زمان حاضر ، ص : ٩٧ ، مجله

يادگار ، سال سوم ، شماره درم مهرماه : ١٣٢٥ ، ص ١٣

« إن التاريخ الصحيح لتتويج الشاه عباس في قزوین لم یحدد فی أى مرجع تناول الدولة الصفویة حتى الآن ، فقد ذکر المؤرخ الألماني « زامبور » أن ذلك كان فی أول المحرم عام ۹۹۶ هـ وذلك بأصفهان ، ومن المسلم به خطأ التاريخ والمكان ، وكتب المؤرخ الفرنسي لوسی بن لوی بلان فی كتابه (الشاه عباس الأول ، حیاته وتاریخه) أن تاریخ جلوس الشاه عباس كان فی آخر شهر مايو عام ۱۸۵۷ م المطابق للثالث والعشرين من شهر جمادى الآخرة عام ۹۹۵ هـ ، وهذا التاريخ بالقطع غیر صحيح لأن الشاه عباس حتى ذلك الوقت كان فی خراسان ، وأنه ورد إلى قزوین فی العاشر من ذی القعدة عام ۹۹۶ هـ . ولكن لما كان معظم المؤرخین قد ذكروا أن تاریخ جلوس عباس كان وله من العمر ثمانية عشر عاما وشهران ونصف ، فإن تاریخ جلوسه یكون فی منتصف شهر ذی القعدة من عام ۹۹۶ هـ . حیث أن ولادته كانت فی أول رمضان ۹۷۸ هـ^(۱) .

وفی رأی أن التاريخ المقبول لتتويج الشاه عباس الأول يقع فی أواخر عام ۹۹۶ هـ (۱۵۸۸ م) وسواء أكان ذلك فی شهر ذی القعدة أو فی شهر ذی الحجة من ذلك العام فهو لا یتمثل أى مشكلة فی تحديد التاريخ القریب إلى الصحة لأن الشهرین متعاقبان وایس الفرق بینهما کبیرا .

(۱) زندگانی شاه عباس اول ج ۱ ، ص : ۱۳۳ (حاشیة)

الفصل الثاني

سياسة الشاه عباس الداخلية

الفصل الثاني

سياسة الشاه عباس الداخلية

- ١ -

الانفراد بالحكم :

منذ مقدم الشاه عباس إلى الوجود وأحوال الدولة الصفوية تسير من سيء إلى أسوأ ، فالاضطرابات مستمرة ، والتطاحن بين أبناء البيت الصفوي على أشده ، والاعتقالات السياسية قد أودت بحياة عدد من أفراد البيت الحاكم ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ، الشاه اسماعيل الثاني وأخته پريخان خانم ، ومهد عليا زوجة السلطان محمد خدا بنده وحمزة ميرزا الأخ الأكبر للشاه عباس . وقد أدى هذا الوضع المضطرب إلى تسلط أمراء وقواد القزلباش على كل شيء في الدولة ، وأخذوا يهرفون الأمور وفق مصالحهم الشخصية بل ويتحكمون في الشاه نفسه . وقد عانى الشاه عباس شخصيا من نفوذهم وتسلطهم ، حيث احتجزوه قهراً في خراسان ، حينما رفض عليقليخان السماح له بالسفر من هراة إلى قزوین ليعيش مع والديه ، كما احتجزه مرشد قليخان في مشهد بعد أن نقله إليها قهراً بعد انتصاره على عليقليخان في عام ٩٩٢ هـ .

لذا ما أن تولى الشاه عباس حكم الدولة الصفوية بصفة شرعية ، حتى وضع نصب عينيه ضرورة العودة بالبلاد إلى سابق مجدها واستقرارها إبان حكم الشاه اسماعيل الأول والشاه طهماسب ، ولكنه أدرك أنه لن يستطيع

تحقيق ذلك إلا إذا أصبح مرهوب الجانب من الجميع ، وأن تكون الكلمة في الدولة في يده ، وأن يكون حاكماً مطلقاً ، ولكي يحقق ذلك عمل على أن يتخلص من كل وصاية ، وأن يقضى على كل من يحتمل أن ينافسه في المطالبة بالعرش من أبناء البيت الصفوي ، ولهذا رأينا أن يقدم على اغتيال وصيه مرشد قليخان ، كما يتخلص من معظم أفراد أسرته فكيف تم له ذلك ؟

أولاً : التخلص من مرشد قليخان :

بعد أن تم تقوية الشاه عباس ، اعتبر مرشد قليخان نفسه وصياً على الشاه الجديد على الرغم من بلوغه الثامنة عشرة من عمره ، وبدأ بصرف الدولة وكأنه صاحب الكلمة العليا ، فأخذ يوزع المناصب على قواده وأتباعه ، كما حرص على ألا يتقبح للشاه عباس أن يتدخل في أي أمر من أمور الدولة^(١) ، ووصل الأمر به إلى حد مساءلة الشاه إذا أقدم على إتيان أي عمل ، حتى ولو كان هذا العمل يتمثل في إنعام إعطاء لأحد رعاياه ، وإذا رغب الشاه في الخروج للصيد أو التجول ، منعه من فعل هذا وذلك ، وإذا أبدى الشاه رأياً ذات مرة في أي أمر مهم سارع مرشد قليخان بتعنيفه والاستخفاف برأيه على مسمع من الجميع^(٢) .

وهكذا بدأ نفور الشاه عباس من مرشد قليخان يزداد يوماً بعد يوم ، ولكن الشاه - على الرغم من ذلك - لم يكن حريصاً على التخلص منه بسرعة وذلك لأنه لم يكن على خبرة كاملة بتصرف أمور الدولة ، فحرص على الإبقاء

(١) اسكندريك تركان منشي : تاريخ عالم آراي عباس ج ٢ ص ٤٠٠

تهران ١٣٣٤ ش .

(٢) تاريخ زندگانی شاه عباس اول ج ١ ص ١٤٣

عليه حتى يعمرس أساليب الحكم ، ويستطيع الاستقلال بتصرف الأمور ، كما أبقى عليه حتى يتخلص عن طريقه من عدد كبير من قواد القزلباش في العاصمة قروين ومنطقة العراق المعجمي ، لذا نراه يدافع عنه عندما ثار هؤلاء ضد القرار الذي اتخذته مرشد قليخان بأن عين نفسه حاكماً على منطقة أصفهان وضم إلى حوزته الأملاك السلطانية هناك ، والتي كانت قد منحت لحمزة ميرزا ثم لأبي طالب ميرزا بعد مقتل حمزة ميرزا ، ولكن بدلاً من أن يستجيب الشاه عباس لمطالب هؤلاء القواد الثائرين أصدر أوامره بخلع تاج القزلباش عن رؤوسهم ، وأن تضرب رقابهم ، وتسحب جثثهم على الأرض ، ثم توثق أقدامهم بالحبال ، وبعد ذلك تدلى جثثهم من فوق قصر السلطنة^(١) .

وعلى الرغم من وقوف الشاه عباس بجانب مرشد قليخان ، وقضائه على مناوئيه ، فقد أقدم مرشد قليخان على ارتكاب حماقات كثيرة زادت الشاه نفوراً منه ، وعزماً على الخلاص من وصايته ، ومن هذه الحماقات أنه أراد مصاهرة الأسرة الصفوية تثبيتاً لمكانته وسطوته ، فطلب من الشاه الموافقة على زواجه من إحدى أميرات البيت الصفوي ، فرفض الشاه هذا الطلب^(٢) ، ولعل هذا الرفض كان بداية للصدام المعلن بين الطرفين .

ونتيجة لهذا الصدام أقدم مرشد قليخان بتعريض من أتباعه على ارتكاب حماقة أخرى ، فقد قال له بعض مؤيديه من طائفته (استاجلو) إن الشاه يفكر في نهاية سيئته لك ؛ وعماً قريب سيقضى عليك ، وسيصبح زعيم طائفة استاجلو في منزلة التراب الأسود^(٣) . فأرسل مرشد قليخان من أحضر

(١) ملحقات روضة الصفا ج ٨ ص ٢٣٧

(٢) عالم آراي عباسي ج ٢ ، ص : ٤٠٠

(٣) المرجع السابق ، ونفس الصفحة

الشاه المعزول محمد خدابنده وأبنائه من قلعة الموت حيث كانوا مسجونين بها بعد تتويج الشاه عباس ، وكانت حجته في ذلك أن القلعة قريبة من جيلان الثائرة ، ومن المحتمل أن ينهز البعض فرصة انشغال الشاه بصد الأوزبك عن خراسان ، ويفرج عن المسجونين ، ويولى أحدهم عرش الدولة الصفوية ، ولكن الشاه عباس أدرك أنه يريد بذلك التلويح بأن في استطاعته عزله وتولية أى فرد من الأسرة الصفوية مكانه ، وأمام هذه الحماقة صمم الشاه على ضرورة الإطاحة بمرشد قليبخان قبل أن يطيح هو به .

أما الحماقة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير فقد تمثلت في تقصير مرشد قليبخان في تقديم العون لقوات القزلباش في هراة ، عندما تمكن الأوزبك من محاصرتهم داخل قلعة المدينة ، وقد أمره الشاه عباس بالإسراع في إرسال التعزيزات العسكرية لنصرة عليقليبخان والمحاصرين معه داخل القلعة ولكن مرشد قليبخان تباطأ في إرسال العون أملاً في الخلاص من عليقليبخان غريمه الأول ، وخوفه من أن يجد طريقه مرة أخرى إلى بلاط الشاه عباس إذا نجح من هجمة الأوزبك على قلعته ، وبخاصة أن الشاه عباس كان يتوق دائماً للقاءه ، ولم ينس معاملته الطيبة له أثناء وجوده معه في مدينة هراة . فكان مرشد قليبخان يدعى في كل يوم أن العون العسكري سيرسل فوراً إلى خراسان ، وظل يماطل ويسوف حتى وصلت إلى قزوین الأنباء باقتحام الأوزبك لقلعة هراة وقتلهم عليقليبخان وعدداً كبيراً من جنود القزلباش^(١) .

وعند ذلك شعر مرشد قليبخان بالراحة والاطمئنان ، ودق طبول (أنا

(١) تاريخ ادبيات ايران از آغاز عهد صفويه تا زمان حاضر ، ص : ٩٩ ،
وتاريخ ايران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣١٢

ولا غيري)^(١)، وخلال فترة وجيزة - بعد أن اطمان قلبه - جهز الجيوش وأعد العدة للتحرك صوب خراسان . ف شعر الشاه عباس بأن مرشد قليخان بماطلته وتسويفه قد تسبب في مقتل مربيه عليقليخان ، فصمم على الفتك به ، وبأقصى سرعة ممكنة قبل أن يستفحل خطره أكثر من ذلك .

وواتت الفرصة الشاه عباس عندما تحرك الجيش الصفوي في ربيع عام ٩٩٧ هـ (حوالي أبريل ١٥٨٩ م) قاصدا خراسان لدفع الأوزبك وطردهم ، وعندما وصل إلى بسطام عسكر الجيش في معسكر شاهرود^(٢) ، وهناك اتفق الشاه عباس مع أربعة من قواده المخلصين على اغتيال مرشد قليخان وهو نائم في خيمة الشاه ، حيث غلبه النعاس وهو يتحدث مع الشاه في خيمته ، فتقدم هؤلاء الأربعة وشاركوا في قتله والإجهاز عليه ، والشاه يرقب كل ذلك ويشجعهم ويحثهم على الإسراع من مهمتهم ، وبعد أن أنهوا المهمة أمر الشاه في نفس الليلة بقتل عدد كبير من مؤيدي مرشد قليخان ، كما أمر بعزل أخيه ابراهيم خان عن مشهد ، وقتله كذلك .

أما عن الأربعة الذين تولوا تنفيذ مهمة اغتيال مرشد قليخان فهم أمت بيك ، قراحسن قورچي ، الله وردى بيك ، ومحمد بيك ساروقچي ، وقد كافأهم الشاه عباس بأن أعطاهم أموالا ومناصب هامة في دولته بعد ذلك^(٣) .

وبتخلص الشاه عباس من مرشد قليخان ، يكون قد تخلص لأول مرة

(١) ملحقات تاريخ روضه الصفا ، ج ، ٨ ، ص : ٢٥٢

(٢) تاريخ أدبيات إيران از آغاز عهد صفويه تا زمان حاضر ، ص : ٩٩ ،

وعبد الله رازي همداني : تاريخ إيران ، ص طهران : ١٣١٧ هـ . ش

(٣) عالم آرای عباسی ، ج : ٢ ، ص ، ٤٠١ ، وزندگانی شاه عباس

أول ج ١ ، ص : ١٤٦

في حياته من ضغط الوصاية عليه ، وأصبح بذلك الملك المطلق اسماً وفعلاً^(١) ،
فحكم حكماً مطلقاً ، وبطش بكل من خالف له أمراً ، سواء صرح برأيه
المخالف ، أو ظن به عباس ذلك ، ولم يعد أمام رجال الدولة إلا تنفيذ
أوامره دون جدال ، حتى ولو أمر أباً بقتل ابنه فليس من حقه التكاثر عن
تنفيذ الأمر ، وإلا أمر الابن بقتل ذلك الأب^(٢) . وبسبب هذه السلطة
المطلقة آتته المستشرقون بأنه وصل إلى درجة جعلت مواطنيه يقدسونه
ويؤهلونه خوفاً من بطشه وتجنباً لشره^(٣) .

ومن الملاحظ أن بطشه وجبروته لم يقتصر على قواده وأفراد حاشيته ،
بل تعداهم إلى أفراد أسرته وأقرب الناس إليه ، رغبة منه في التخلص من أي
خطر قد يهدد سلطنته ، فكان هذا هو الملك الثاني الذي أمّن به طريق
انفراد بالحكم .

ثانياً : التخلص من أفراد أسرته :

عندما دخل الشاه عباس العاصمة قزوین عام ٩٩٦ هـ ، لم يكن هناك من
أبناء البيت الصفوي من هم على قيد الحياة غير والده السلطان محمد خدا بنده ،
وأخويه أبي طالب وطها سب ، وابني أخيه القليل حمزة ميرزا وها اسماعيل
وحيدر ، حيث مات جميع أبناء البيت الصفوي عدا هؤلاء أثناء حكم الشاه
اسماعيل الثاني . وما أن استقرت الأمور لعباس ومرشد قليخان في العاصمة ،
حتى أمرا بإلقاء القبض عليهم جميعاً وإيداعهم قلعة الموت ،^(٤) وظلوا هناك

(١) تاريخ ادبيات إيران ، ج ٤ (براون) ص : ٩٩

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٢ ، ص : ٧٨ - ٧٩

(٣) إيران در زمان صفویه . ص . ٣٧٤

(٤) تاريخ ادبيات ایران ج ٤ [براون] ص : ٩٧

حتى بدأ عباس يستعد للتوجه صوب خراسان وطرد الأوزبك من هراة وما جاورها، فإذا بمرشد قليخان يعيدهم إلى العاصمة بحجة أن قلعة الموت قريبة من جيلان، ومن الحكمة عدم تركهم هناك والشاه خارج العاصمة، حتى لا يتقدم حكام جيلان إلى القلعة ويتم الإفراج عن المسجونين، وربما يتم تنصيب أحدهم. ولكن عباس أدرك أن مرشد قليخان يهدده بمقدمهم، لذا أمر بعض قواده المخلصين بنقلهم إلى قلعة ورامين وتشديد الحراسة عليهم^(١).

وبعد أن عاد الشاه إلى العاصمة قزوين، أمر بفك أسر أبيه وإعادته إلى قزوين ليعيش تحت رقابته في القصر، ومنعه من الخروج أو الاختلاط بقواد القزلباش، كما كان يأخذه معه إذا سافر خارج قزوين، وظل الحال كذلك إلى أن توفي السلطان محمد خدا بنده عام ١٠٠٤ هـ، وهكذا استراح عباس من أحد منافسيه، كما كان يتخيل ذلك.

أما عن أخويه أبي طالب ميرزا وطها سب ميرزا وابن أخيه اسماعيل ميرزا؛ فقد أمر الشاه عباس عام ٩٩٩ هـ بسمل عيونهم حتى لا يصلح أحدهم بعد ذلك لتولى العرش، وأعادهم إلى قلعة الموت حيث بقوا فيها إلى أن توفوا، فمات أبو طالب عام ١٠٢٩ هـ، ومات طها سب واسماعيل ميرزا في ذات القلعة بعد وفاة عباس نفسه^(٢).

وأما حيدر ميرزا ابن حمزة ميرزا، فقد أرسله الشاه عباس إلى البلاط العثماني ليكون رهينة لديهم وذلك في عام ٩٩٨ هـ^(٣)، وظل هناك حتى أصيب

(١) زفدگانی شاه عباس اول، ج: ٢، ص: ١٦٤

(٢) المرجع السابق، ص: ١٦٩

[٣] لیران در زمان صفویه، ص: ٥٢

بالتعاون ومات عام ١٠٠٥ هـ ، فكان خبر وفاته مبعث سرور في البلاط الإيراني .

وهكذا كان الشاه عباس قاسيا مع أبيه وأخوته ، وذلك خوفا على عرشه وسلطانه ، ولم يقتصر بطشه على هؤلاء بل تعداهم إلى أبنائه كذلك .

كان للشاه عباس خمسة أبناء هم علي التوالمى : محمد باقر ميرزا (وعرف باسم صفى ميرزا) ، وحسين ميرزا ، وخدا بنده ميرزا ، واسماعيل ميرزا ، وأخيرا إمام قلى ميرزا وقد توفى كل من حسين واسماعيل فى صفرهما ،^(١) فأراحهما الله من بطش أبيهما ، أما ابنه الأكبر صفى ميرزا فكان الجميع ينظرون إليه على أنه ولى العهد والورث الشرعى لأبيه ، وقد أحرز شعبية وحبا من الجميع مما أوغر صدر أبيه ضده ، وخشى أن يقوم بالدور الذى قام به هو ضد أبيه السلطان محمد خدا بنده ، فأخذ يتلمس الفرص للخلاص منه ، حتى اختار أحد أعوانه من الشرا كسة للقيام بمهمة اغتيال صفى ميرزا ، فنفذ جريمته فى الثالث من المحرم عام ١٠٢٤ هـ^(٢) ، وبدلا من أن يتظاهر الشاه عباس بمعاينة القاتل ، فإنه أنعم عليه بمنصب أكبر مما كان يشغله قبل تنفيذ الجريمة^(٣) ويقال إن الشاه عباس شعر بعد ذلك بتأنيب الضمير وظل يبكى الفقيء طوال عام كامل ؛ وإن كنت أشك فى صحة هذا الخبر ، لأنه لو بكى هذا الابن ، وندم على فعلته ، لما أقدم على تعذيب ابنىة الآخرين بعد ذلك .

وابنه الثالث المدعو خدا بنده ميرزا حاز هو الآخر مكانة كبيرة فى البلاط

(١) لغت نامه ؛ شماره ٧٦ ، ص : ٤١

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج : ٢ ، ص : ١٧٨

(٣) History of Persia, Vol II. p. 175.

وخارجه لتمتعه بمزايا عديدة منها الكرم والشجاعة والإخلاص وبشاشة الوجه، حتى أن الجميع نادوا به كحاكم موعود بالعرش بعد أبيه، فكانت النتيجة أن تملك الفيظ أباه، وعبر عن استيائه من حب الجميع له باغتيال مربيه، مما أغضب خدا بنده، وجعله يسرع صوب البلاط معلنا احتجاجه، ووصلت ثورة غضبه إلى حد إشهاره السيف في وجه أبيه، فأمر الشاه عباس بسمل عينيه، مما أصاب هذا الابن بما يشبه الجنون؛ فأقدم على الانتحار بتناول السم^(١).

ولم يكن حظ الابن الخامس إمام قلى ميرزا أفضل من حظ أخويه السابقين حيث أمر الشاه عباس بسمل عينيه في عام ١٠٣٦ هـ، حتى يحرمه من ولاية العهد وحتى لا يلتف حوله رجال البلاط والقواد مثلما فعلوا مع أخويه صفى ميرزا وخدا بنده ميرزا.

ويأقدام الشاه عباس على التخلص من أبنائه واجه في أواخر عمره مشكلة اختيار ولي عهده، فلم يجد إلا سام ميرزا ابن صفى ميرزا القليل والذي أنقذته أمه من القتل بأن أبعده دائما عن مجلس الشاه عباس وعن رجال بلاطه، فعاش في الحریم حتى توفي الشاه عباس عام ١٠٣٨ هـ (١٦٢٩ م) فتولى الحكم باسم الشاه صفى.

ونلاحظ إلى جانب بطش الشاه عباس بأبنائه وأفراد أسرته، أنه استقن سنة جديدة في تربية ولي العهد، فبعد أن كانت السنة المتبعة منذ عهد الشاه اسماعيل الأول هي إرسال ولي العهد إلى إحدى الولايات الكبيرة ليشراف على تصريف أمورها، ويتمرس الحكم فيها، قبل أن يتولى زمام الدولة

[١] المرجع السابق، ص ١٨٣

بأسرها ، فان الشاه عباس أمر بأن يلزم ولي العهد الحريم ولا يسمح له بالاختلاط بالقواد ، ولا يجادث إلا الخدم والجواري ومربيه الخصوصي . وقد دافع الشاه عباس عن موقفه هذا بأنه يجنب الدولة الفرقة والانقسام^(١) ولعله لجأ إلى ذلك حتى لا يرتكب أحد ولاية العهد معه مثلما ارتكبه هو مع والده السلطان محمد خدا بنده ، ولكن هذا القرار كان ذا آثار مدمرة على الدولة الصفوية إذ تولى أمورها ملوك عديمو الخبرة بالحكم والسياسة .

وهكذا كان الشاه عباس حاكما مستقيدا منفردا بالسلطة ، ولا يسمح لأحد بأن يشاركه الرأي والحكم ، كما كان يسارع باغتيال كل من يظن فيهم خيانة ، حتى ولو كانوا أقرب الناس إليه . ولكني ينجح النجاح المطلق في الانفراد بالحكم خطط للقضاء على كل نفوذ لقواد القزلباش ، كما صمم على تكوين جيش مركزي يأتمر بأمره ، ويقضى على كل فتنة تثار ضده ؛ فما مدى نجاحه في تنفيذ هذين المخططين ؟

- ٢ -

التغصن من نفوذ رؤساء طوائف القزلباش :

انتهز رؤساء الطوائف فرصة اضطراب الحياة السياسية خلال عصر الشاه اسماعيل الثاني ، وكذلك ضعف شخصية السلطان محمد خدا بنده الكفيف البصر ، وبدأوا في بسط نفوذهم وسيطرتهم على كل شيء في الدولة ، وسلكوا في تحقيق هذه السيطرة كل مسلك حتى ولو أدى ذلك إلى اغتيال أفراد الأسرة الصفوية نفسها ، وكان ممن اغتالوهم والده الشاه عباس مهدي عليا وأخوه حمزة

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ٣٧٥ - ٣٧٦

ميرزا^(١) وقد ترك هذا الأمر آثاراً قائمة على شعور عباس تجاههم ، مما جعله يضر لهم سوء ، ويعقد العزم على التخلص من شرورهم والقضاء عليهم متى وافته الفرصة .

وكان عدد طوائف القزلباش قبل تولى الشاه عباس الحكم اثنتين وثلاثين طائفة ، وهذه الطوائف كانت منتشرة في كل مكان من الدولة الصفوية ، وكانوا يملكون الكثير من الأراضي في كل ربوع إيران ، ويعتبرون أنفسهم أعلى مكانة وأكثر أصالة من بقية أفراد الشعب الإيراني ، على الرغم من أن عمر تواجدهم قد بدأ منذ عصر حيدر والد الشاه اسماعيل الأول فقط^(٢) . وكان عدد أفراد هذه الطوائف جميعها ستين ألف فرد وتدفع رواتبهم من خزانة الدولة .^(٣)

وقد لوحظ كذلك أن جميع حكام الأقاليم قبل عصر الشاه عباس كانوا من بين رؤساء طوائف القزلباش فقط^(٤) .

ونتيجة لإشراف طوائف القزلباش الكامل على الشؤون العسكرية والإدارية ، فإن تسلط رؤسائهم قد فاق كل حد ، ولكي يستطيع الشاه عباس أن يتفرد بالحكم كان لزاماً عليه أن يصفي نفوذهم ، ويحطم شوكتهم ، وهذا ما أقدم عليه ، فما أن تم تتويجه حتى أصدر أوامره بإلقاء القبض على قواد القزلباش الذين شاركوا في اغتيال أخيه حمزة ميرزا ومنهم عليقليخان قبيج

(١) لغت نامه ، شماره ٧٦ ، ص : ٤٢

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج : ٢١ ، ص : ١٧٣

(٣) أنظر لغت نامه شماره ٧٦ ص : ٤٢ ، إيران در زمان صفویه ، ص

٥٣ ، وغيرها من المراجع

(٤) زندگانی شاه عباس اول ، ج : ١ ، ص : ١٧٤

أغلى ، واسماعيل قليخان وكثيرون غيرها ، ونفذ فيهم جميعاً حكم الإعدام ، وقد اتخذ هذا القرار بالمشاركة مع مرشد قليخان .^(١)

وإلى جانب اقتصاصه من قتلة أخيه ، فإنه أقدم على قتل من اشتركوا في اغتيال والدته ، فقد ورد في الأخبار بأنه ألقى القبض على قورخمس خان أحد مدبري جريمة اغتيال والدته ، وقام الشاه عباس بقتله بيده ، وكان في هذا العمل ترضية نفسه له حيث انتقم لوالدته بقتل من اشتركوا في اغتيالها^(٢) .

ثم انتهز الشاه عباس فرصة ثورة بعض رؤساء القزلباش ضد مرشد قليخان عندما اختص نفسه بمنطقة أصفهان ، فأصدر الشاه أوامره بتجريد من قلنسوة القزلباش وقطع رقابهم جميعاً ، كما صادر ممتلكاتهم وممتلكات أسرهم ، ووزعها على عدد من أنصاره ومؤيديه .

ولم تمض فترة طويلة بعد تقوية الشاه عباس حتى تخلص من مرشد قليخان كما أمر بقتل عدد كبير من الملتفين حول مرشد قليخان ، حتى ولو كانوا من طوائف أخرى غير طائفة استاجلو .

وهكذا كان الشاه عباس ينتهز أي فرصة سانحة ليفتك بعدد من رؤساء طوائف القزلباش وقوادهم ، انتقاماً لمقتل أفراد أسرته ، ودرءاً لأي خطر قد يهدد سلطنته إذا ما توانى في تعقبهم والخلاص من شرورهم ، وإلى جانب قتله الكثيرين منهم ، لجأ إلى أساليب أخرى لاقتضاء على نفوذهم ، وبخاصة في مجال الجيش ، فبعد أن كان الجيش يعتمد اعتماداً كلياً على أفراد طوائف القزلباش ، أصدر الشاه أوامره بتسكين جيشين جديدين ، أحدهما من الأرمن

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٣٤

(٢) المرجع السابق ، ج ٨ ، ص : ٢٥٩

والشركس والكرجيين التابعين لسلطانه ، والآخر من خاصة محبيه من مواطنيه بغض النظر عن الطوائف التي ينتسبون إليها ، وأطلق على الجيش الثانى اسم « شاهسون » أى محبى الملك ، وكان الجيشان يتلقيان أوامرها من الشاه مباشرة ، وبذلك تخلص من إشراف رؤساء القزلباش على النشاط العسكرى ، مما أعطاه حرية أكبر فى البطش بهم ، والقضاء عليهم^(١) .

كما أصدر الشاه أوامره بتجريد رؤساء طوائف القزلباش من مناصبهم الإدارية الهامة فى الدولة ، وأسندها لقيادات شابة جديدة^(٢) ، فكان يقرب إليه بعض الشبان الذين يتوسم فيهم الإخلاص والتفانى فى خدمته ، وينعم عليهم بأرفع الأوسمة والألقاب ، ويوليهم حكم الولايات المختلفة ، والمناصب الهامة فى البلاط ، ولكن إذا ظن بأحدهم سوءاً أو رغبة فى التسايط والظهور سارع بالفتك به والإخلاص منه ، وهكذا جعل كبار رجال الدولة وحكام الولايات يخافونه ويرهبون سطوته .

ولجأ الشاه عباس إلى وسيلة أخرى لإحكام سيطرته وقبضته على كل مقاليد الحكم فى الدولة الصفوية ، فبعد أن كان نظام الحكم منذ عصر الشاه اسماعيل الأول لامركزياً ، حيث أعطى حكام الولايات حق الحكم المطلق فى ولاياتهم ، وليس الحاكم مطالباً إلا بإرسال قدر معين من المال والغلال كهدية للشاه فقط^(٣) ، وجدنا الشاه عباس يحكم قبضته على حكام الأقاليم ويحيلهم إلى مجرد مرءوسين يأترون بأمره ، وليس من حق أحدهم الامتناع عن تنفيذ أى أمر يصدر إليه من الشاه^(٤) ، بل أصبح من حقه أن يعزل أى

(١) History of Persia, Vol II. p. 175.

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ٥٤

(٣) زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ص : ١٧٦

(٤) تاریخ ایران از مغول تا افشاریه ، ص : ٣٣٩

حاكم لا يروق له ، ويعين آخر مكانه ، وهكذا شعر حكام الأقاليم بأن بقاءهم في مناصبهم أمر متعلق برضاء الشاه عنهم أو غضبه عليهم ، بعد أن كان منصب حكام الأقاليم حكرا لرئيس طائفة القزلباش المتمركزة في كل إقليم .

ونتيجة لهذه السياسة المتشددة استطاع الشاه عباس أن يقضى على سطوة طوائف القزلباش وتدخل رؤسائهم في كل صغيرة وكبيرة من أمور الدولة ، وأن يعيد للدولة هيبتها ووحدتها ، بل يجبر رجال القزلباش على الالتفاف حوله رهبة منه وخوفا من بطشه ، بعد أن كانت تلتف حول الشاه اسماعيل والشاه طهها سب حبا وودا . وبقضائه على نفوذهم زاد من فرص تمتعه بحكم مطلق وبصوت مسموع لدى الجميع في كل ربوع إيران .

— ٣ —

الاهتمام بالجيش الصفوى :

كان الجيش الصفوى قبل عصر الشاه عباس يعتمد على رجال القزلباش البالغ عددهم ستون ألف جندي ، وكانوا يتلقون أوامره من رؤساء الطوائف التابعين لهم ، إذ لم يكن من حق الشاه الصفوى إصدار الأوامر مباشرة لجنده ، بل عليه أن يصدر الأمر لرؤساء الطوائف ثم يقوم كل رئيس طائفة بإبلاغ الأمر لتابعيه من الجنود^(١) ، ونتيجة لهذا النظام العسكى أصبحت قبضة الشاه على رجال القزلباش ضعيفة ، لأن رؤساء الطوائف إذا لم يرق لهم أمر الشاه امتنعوا عن إبلاغه للجنود ، بل أصبح في استطاعة هؤلاء

(١) لغت نامه ، شماره ٧٦ ص ٤٢

الرؤساء بعد ذلك تأليب أتباعهم ضد الشاه ، وشق عصا الطاعة ضده ،
وسرعان ما كان يستجيب الأعوان لهم ، وما فعله عليقليخان ومرشدقليخان
في خراسان أيام أن كان عباس موجودا هناك خير شاهد على سطوة رؤساء
القرلباش وتحديهم لأوامر الشاه الصفوى .

وما أن تولى الشاه عباس الحكم حتى أدرك أن القضاء على نفوذ رؤساء
طوائف القرلباش يعتمد بالدرجة الأولى على إضعاف القوات التابعة لهم ،
فأقدم على تخفيض عدد جنود القرلباش إلى النصف بحيث أصبح عددهم
ثلاثين ألف فقط .^(١)

وإلى جانب هذه الخطوة ، وجدنا الشاه عباس يجابه جماعة أخرى كان
لها نفوذها قبل عصره ، ونعني بها جماعة الصوفيين وهي جماعة تكونت منذ
قيام الدولة ، وزعم أفرادها أنهم أنصار البيت الصفوى والمدافعون عنه ،
حيث انتهز هؤلاء فرصة ضعف الدولة أيام حكم السلطان محمد خدا بنده وزادوا
من نفوذهم وسطوتهم ، كما حاولوا إثارة القلاقل في بداية حكم عباس على
أمل إعادة السلطان محمد خدا بنده إلى الحكم ، فما كان من الشاه عباس إلا أن
شل حركتهم وأضعف نفوذهم ، وأبعدهم كلية عن المشاركة في الدفاع
عن الدولة وأفراد البيت المالك ، ولم يسند إليهم إلا أحر الأعمال ، كتنظيف
قصور الدولة ، ومنصب الجلاد وغير ذلك من الوظائف الدنيا^(٢) .

وبعد أن أضعف الشاه عباس قوة رجال القرلباش وكذلك سطوة
جماعة الصوفيين شعر بأنه في حاجة ماسة إلى تجديد الروح العسكرية في

History of Persia, Vol II, p. 175.

(١)

(٢) زندكاني شاه عباس أول ، ج ١ ، ص ١٨٥ - ١٨٦

إيران وتنشيطها ، وبخاصة أن البلاد تهددها أخطار من الشرق ممثلة في الهجمة الأوزبكية ، ومن الغرب ماثلة في احتلال الدولة العثمانية لكثير من أراضي إيران الغربية ، وأمام هذه الحاجة الملحة أقدم الشاه عباس الأول على اتخاذ خطوات عملية في سبيل تدعيم قواته العسكرية ؛ ومن هذه الخطوات إنشاء جيشين جديدين ؛ أحدهما يتكون من رعايا الدولة الصفوية من غير المسلمين ويضم أبناء طوائف الكرجيين والأرمن والشركس^(١) ، وهو جيش خاضع للسلطان مباشرة ، ويأتمر بأوامره ، ويتقاضى أفراد رواتبهم من خزانة الشاه وهذا الجيش شبيه في تكوينه بأي جيش انكشاري^(٢) في ذلك الوقت إذ كان يتولى الدفاع عن الشاه وحراسة قصوره في مقابل ما يدفع لأفراده من رواتب ومخصصات . أما الجيش الثاني فيتكون من رعايا إيرانيين ينتسبون إلى طوائف الشعب المختلفة سواء أكانوا من أفراد القزلباش السابقين أو ممن لم ينضموا تحت لواء أي طائفة من طوائف القزلباش ، الشيء الوحيد الذي يربط بينهم هو الالتفاف حول الشاه عباس ، والتفاني في تنفيذ أهدافه ، والدفاع عن أرض إيران ضد أعدائها وأعداء الشاه عباس وقد أطلق على هذا الجيش الثاني اسم « شاهسون » أي محبي الملك^(٣) .

وبتكوين الشاه عباس لهذين الجيشين اللذين يأتمران بأوامره المباشرة استطاع أن يحكم قبضته في الداخل ، كما استطاع أن يواجههم لمحاربة أعدائه في الخارج ، فأحرز بفضل إخلاصهم له انتصارات في الشرق والغرب .

ومن العوامل التي ساعدت على تطوير القوة العسكرية الصفوية في عصر

(١) إيران در زمان صفوية ، ص : ٥٣

(٢) History of Persia, Vol II, p.182

(٣) إيران در زمان صفوية ، ص ، ٥٤

الشاه عباس الأول إقدامه على تسليح بعض فرق جيشه بالبنادق والمدافع ،
فقد أدرك أن الجيش العثماني ينتصر دائماً على الجيش الصفوي لا بفضل كثرته
العددية ، ولكن لأنه مزود بالبنادق والمدافع . وقد ذكر المؤرخون أنه زود
جيشه بخمسمائة عربة مدفع وستين ألف بندقية^(١) ، وقد صنعت هذه الأسلحة
النارية داخل إيران ، حيث أنشأ الشاه عباس مصنعاً لإنتاج السلاح والذخيرة^(٢)
وقد ساعده في إقامة هذه الصناعة أفراد البعثة البريطانية التي وفدت إلى إيران
عام ١٠٠٧ هـ (١٥٩٧ م) بقيادة الأخوين شرلي ، كما ساعده أفراد البعثة في
رسم الخطط العسكرية وشارك بعضهم في الحروب التي دارت بين الجيشين
الصفوي والعثماني ، فقد ورد في الأخبار أن روبرت شرلي أسندت إليه رئاسة
إحدى الفرق العسكرية الصفوية في الحرب التي دارت بين الجانبين الصفوي
والعثماني خلال عامي ١٠١٣ ، ١٠١٤ هـ^(٣) .

وعلى الرغم من مجهودات الشاه عباس لتطوير قوته المسلحة البرية ،
فإنه لم ينتبه إلى إنشاء قوة عسكرية بحرية تستطيع مجابهة خطر القوات البرتغالية
في جزيرة هرمز وبعض موانئ إيران في منطقة الخليج العربي ، وعندما فكر
في طرد البرتغاليين وجدناه يستعين بقوات شركة الهند الشرقية الإنجليزية ،
التي سارعت بتقديم العون لا أملاً في مساعدة إيران ، ولكن تطلعاً إلى
إخراج البرتغال من ميدان التنافس التجاري في منطقة الشرق عامة والهند
خاصة . وقد حاول البعض الدفاع عن هذا التصور من جانب الشاه عباس
بقولهم ، إن جو السواحل الإيرانية في منطقة الخليج العربي لا يساعد على

(١) تاريخ إيران آذ مغول تا افشاريه ، ص ٣٢١ .

(٢) لغت نامه ، شماره : ٧٦ ، ص : ٤٢

(٣) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٣ ، ص ٢٤١

المعيشة المستقرة^(١) . ولكن يمكن الرد عليهم بأن هذه السواحل نفسها قد عاش فيها الأوربيون الوافدون من البرتغال وأسبانيا ، وتحملوا ارتفاع الحرارة بها ، فكيف ينهرب منها الإيرانيون وهم أصحاب البلاد والمطالبون بالدفاع عنها ؟ وقد أدى قصوره هذا إلى أن حلت القوات الإنجليزية محل القوات البرتغالية ، وبسطة نفوذها على جميع موانئ الخليج العربي بعد ذلك .



ولكن إذا تجاوزنا القصور في إنشاء قوة بحرية إيرانية ، فإننا يجب أن نعترف بأن سياسة عباس العسكرية قد نجحت نجاحا ملحوظا في الداخل والخارج ، حيث أعادت للدولة هيبتها ، وللشاه سلطانه ، وقد بدا ذلك واضحا في صدده لجملات الأوزبك والعثمانيين ، وفي قضائه على جميع الفتن الداخلية التي أثارها حكام الأقاليم في وجهه بعد أن أقدم سلطانهم ، وأضعف رجال القزلباش التابعين لهم . فما أهم هذه الفتن الداخلية ؟ وكيف جابهها الشاه عباس الأول ؟

— ٤ —

إنقاذ الشاه عباس للفتن الداخلية :

بعد أن تم تتويج الشاه عباس ، بدأ يتطلع إلى الانفراد بالحكم ، والقضاء على سلطة القواد والحكام ، وإعادة الحكم المركزي إلى ما كان عليه أيام الشاه اسماعيل الأول والشاه طهماسب ، ولكن أهدافه هذه اصطدمت

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ٤١٥ — ٤١٦

بإطاع بعض حكام الأقاليم المتطلعين إلى بسط نفوذهم على الأماكن التي يتولون حكمها ، فكان لزاما على الشاه عباس أن يجابه خطرهم قبل أن يستفعل ، ودخل في حروب كثيرة مع هؤلاء الثائرين وانتصر عليهم ، وفرض هيئته على الجميع ، ومن أم هذه الفتن الداخلية التي أخذها الشاه عباس هذه الفتن الأربع :

١ — فتنة يعقوبخان ذي القدر في فارس :

بعد أن توج الشاه عباس أصدر أوامره بأن يتولى أمر فارس يعقوبخان ذو القدر ، ولكن هذا الحاكم سرعان ما عمل على زيادة رقعة نفوذه ، فضم إلى حكمه مناطق يزد وكرمان ، وبدأ يتصرف فيما تحت حكمه من بلاد دون الرجوع إلى الشاه عباس ، وبدأ يتصرف وكأنه حاكم مستقل لدرجة أنه كونه جيشا وسلاحه بأسلحة كثيرة تمكنه من مناوئة جيش الشاه عباس إذا ما حاول الشاه التعرض لسلطانه .

وأمام هذا الخطر تقدم الشاه عباس بحبشه صوب أصفهان ، ووصلها في عام ٩٩٨ هـ (١٥٩٠ م) ، وأرسل يدعو يعقوبخان للتصالح فيما بينهما والصفح عنه ، مقابل خضوعه للشاه عباس ، فلم يقبل يعقوبخان إلقاء السلاح إلا بعد أن أقدم الشاه بأنه سيصفح عنه ، وأخيرا دخل الشاه عباس فارس ، وحافظ على قسمه مدة ثلاثة أيام ، حتى اطمأن يعقوبخان ، وفي صبيحة اليوم الرابع دخل يعقوبخان على الشاه عباس في البلاط ، فإذا برجال الشاه يقيدونه ويفتكون به ، كما أمر عباس بمشول جميع أفراد أسرة يعقوبخان وأعوانه إلى البلاط وتقبيل قدميه لكي يصفح عنهم ، وقد فعلوا ذلك ، ولكن الشاه فتك بهم بعد ذلك ^(١) .

(١) زندكاني شاه عباس اول ، ج ٣ ، ص ١٢٥ - ١٣٠ .

٢ - فتنة خان أحمد خان حاكم جيلان :

كان خان أحمد خان يتولى حكم جيلان من قبل الشاه طهماسب الأول ، ولكنه حاول الاستقلال بها ، فألقى الشاه طهماسب القبض عليه وسجنه في قلعة اصطخر ، وظل في السجن مدة عشر سنوات إلى أن تولى الحكم السلطان محمد خدا بنده ، فأفرج عنه وأعادته إلى حكم جيلان ، وزوجه أخته مريم سلطان بيكم^(١) ، على أمل أن تكون العلاقة الأسرية دافعا له للحفاظ على مكانة الأسرة الصفوية وعدم الخروج عليها ، ولكن خان أحمد انتهر فرصة ضعف السلطان محمد خدا بنده ، وبدأ يوسع دائرة نفوذه ، ويفرض سلطانه المستقل ، وظل الحال كذلك إلى أن تولى الشاه عباس ، فرغب في إخضاع حاكم جيلان لكلمته ، ولكن خان أحمد رفض كل محاولات عباس ، بل إنه جعل من جيلان مأوى لعدد كبير من قواد القزلباش الفارين من سطوة عباس ، فأرسل الشاه إلى خان أحمد يطلب منه تسليمه هؤلاء الثأرين ، فرفض حاكم جيلان تسليمهم للشاه مما زاد الموقف بينها تازما واضطرابا^(٢) .

وانتهز خان أحمد اشتداد الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية ، وحاول استثمار ذلك الصراع لصالحه ، فراسل السلطان العثماني يدعوه لمهاجمة لاهيجان بحرا ، وسيقوم هو بمساعدة القوات العثمانية في احتلالها ، ثم تتقدم الجيوش العثمانية بعد ذلك إلى قزوین وتحتلها . ثم تحتل باقي مدن إيران ، وسيكون هو

(١) دكتور عبد الحسين نوائى : شاه طهماسب صفوى ، بمجموعه اسناد ومكانيات تاريخى ، ص ١٣ ، تهران ١٣٥٠ . ش

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٣ . ص ١٣١ - ١٥٧

في عون القوات العثمانية في مقابل تثبيت حكمه المستقل في منطقة جيلان^(١) وقد عرف الشاه عباس أمر هذه الدعوة بعد أن عقد معاهدة صلح مع الدولة العثمانية ، وأدرك أنه لا بد وأن يقضى عليه ، ولكن انشغال الشاه بإخماد فتنة ذى القدر في مارس ، ودفع الأوزبك عن خراسان ، جعله كل هذا يهادن خان أحمد مؤقتا . فأرسل إليه يطالبه بإثبات حسن نواياه بإرسال زوجته — عمة الشاه عباس — وابنته لتقدما فروض الطاعة نيابة عنه إلى الشاه ، ولكن خان أحمد رفض هذا الطلب^(٢) .

كما ذكر البعض بأن الشاه عباس لجأ إلى رباط المصاهرة للقضاء على هذه الفتنة ، حيث عرض على خان أحمد إعلان خطبة ابنته إلى صفي ميرزا أكبر أبناء عباس ، ولكن خان أحمد رفض ذلك بحجة صغر سن ابنته حيث كان لها من العمر في ذلك الوقت أربع سنوات^(٣) .

وأمام تعنت خان أحمد وتأزم الموقف فيما بينه وبين الشاه عباس ، أصدر الشاه أوامره إلى قائد جيشه فرها دخان بالتحرك صوب جيلان وللقضاء على فتنة خان أحمد خان ، وأخيرا التقى الجيشان في جيلان ، وعندما أدرك الحاكم أن الهزيمة من نصيبه آثر الفرار بحرا إلى شيروان ، ومنها واصل سيره إلى العاصمة العثمانية ، حيث عاش هناك فترة ، وحاول بعد ذلك الرجوع إلى حكم جيلان مرة أخرى مع تقديم فروض الطاعة ، ولكن الشاه عباس رفض عودته إليها^(٤) .

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ص ٢٦١ - ٢٦٢

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٣ ، ص : ١٣١ - ١٥٧

(٣) شاه طهماسب صفوی . مجموعه اسناد - ص : ١٣

(٤) ملحقات تاريخ روضة الصفا ج ٨ ص ٢٦٣

أما زوجه خان أحمد — وهي عمه الشاه عباس — وابنته فقد تم ترحيلها إلى العاصمة حيث تمدر على خان أحمد أن يأخذها معه ، فعاشتا في بلاط الشاه عيشة مكرمة إلى أن أدركت الوفاة الزوجة عام ١٠١٧ هـ ، وعندما بلغت الابنة سن الزواج طلب الشاه من ابنه صفى ميرزا أن يتزوجها ، ولكن الأمير رفض ذلك ، مما دفع الشاه عباس نفسه إلى أن يتزوجها (١) .

٣ — فتنة شاهور دینخان في لرستان .

انتهمز شاهور دینخان فرصة انشغال الشاه عباس ببعض المهام ، وهاجم قلعة « صد مرة » ، واحتلها ، ودعا جميع أمراء منطقة لرستان للاتحاد معه ضد الشاه . فأمر عباس قائده مهدي يقي خان شاملو بالتوجه صوب قلعة صد مرة والقضاء على شاهور دینخان ، وتقدم جيش الشاه صوب القلعة واحتلها مما دفع شاهور دینخان للهرب إلى بغداد .

وبعد فترة الانتظار والترقب ، استغل شاهور دینخان انشغال الشاه عباس بأمر خراسان والقضاء على الخطر الأوزبكي ، وعاد مهاجماً لرستان واحتلها ، فاضطر الشاه لإرسال حملة أخرى إلى المنطقة ، واستطاعت هذه الحملة القضاء على الفتنة ، وألقت القبض على شاهور دینخان وقتلته ، كما قتلت الكثيرين من أتباعه ، وأمر الشاه بإيداع ولدي شاهور دینخان قلعة الموت (٢) .

٤ — فتنة حاكم لار المتمتعة بالحكم الذاتي :

كانت منطقة لار بفارس تتمتع منذ أيام الدولة الساسانية بحكم ذاتي ،

(١) شاه طهماسب صفوي ، مجموعه اسناد . . ص : ١٣

(٢) ملحقات روضة الصفا ، ج ٨ ، ص ٢٧١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٢ - ٣٠٥ .

انظر أيضاً زندكاني شاه عباس أول ج ٣ ، ص : ١٦٥

وحرص حكامها على مهادنة أى حكومة قوية تجاورهم ، وكانوا يتفقون مع هذه الحكومات على دفع الجزية فى مقابل الإبقاء على الاستقلال الذاتى لحكومة لار ، وظل الحال كذلك حتى حكمت الدولة الصفوية إيران ، فتعهدوا للشاه اسماعيل بدفع الجزية والبقاء مستقلين عن الدولة ، فوافق الشاه اسماعيل واستمر الحال كذلك فى عهد الشاه طهماسب ، ولكن ما أن اضطربت أحوال الدولة الصفوية خلال فترتى حكم الشاه اسماعيل الثانى والسلطان محمد خدابنده ، حتى امتنع حكام لار عن دفع الجزية ، وعندما تولى الشاه عباس الأول الحكم حرص على تأديب حكام لار وإرغامهم على دفع الجزية ، وإلا قوض دعائم حكومتهم وضم لار إلى حكمه المباشر ، وقد وافته الفرصة عندما بلغه أن حاكم لار ويدعى ابراهيم خان يعامل أهالى تلك المنطقة بقسوة وغلظة مما جعل أهالى لار يتطامون إلى الشاه عباس كي يخلصهم من ابراهيم خان وقسوته^(١) .

أخيراً تأزم الموقف بين الشاه عباس وحاكم لار عندما اعتدى هذا الحاكم على أحد التجار الأجانب الوافدين إلى إيران بتشجيع من الشاه عباس وقد استولى على أمواله وأموال زوجته ، فحرص الشاه عباس على استرضاء التاجر الأجنبى ، فأرسل إلى ابراهيم خان يطلب منه الإسراع فى رد أموال التاجر وأموال زوجته ، ولكن ابراهيم خان تباطأ فى تنفيذ مطلب الشاه عباس ، مما جعله يصدر أوامره إلى حاكم فارس اللهورديخان لى يتقدم صوب لار ، ويؤدب ابراهيم خان ويعيد أموال التاجر إليه ، ويقوض بعد ذلك دعائم حكومة لار المستقلة .

وامتثالاً لأوامر الشاه عباس تقدم اللهورديخان إلى منطقة لار وقع فتنة

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ج ٨ ، ص : ٣٣٤

حاكها ، وألقى القبض عليه وأرسله مكبلا بالقيود إلى العاصمة أصفهان وذلك عام ١٠١٠ هـ كما فرض ضرائب باهظة على سكان لار تعويضا عن السنوات التي امتنعوا عن الدفع فيها قبل عصر الشاه عباس^(١) ، كما استولى القائد الإيراني على خزائن حكومة لار ، ومن بين ما عثر عليه في هذه الخزائن تاج مرصع بالدر والياقوت ، قيل إنه تاج كينغسرو الساساني ، وقد احتفظ حكام لار بهذا التاج منذ العهد الساساني حتى هذه المعركة إذ كانوا يتوارثونه فيما بينهم ، وقد أرسل الهمورد بخان هذا التاج إلى الشاه عباس في أصفهان^(٢)

وهكذا قضى الشاه عباس على فتنة حاكم لار ، كما قضى على حكومة تتمتع بالحكم الذاتي داخل حدود الدولة الصفوية ، مما كان يشعره بالضيق لوجود جزء من إيران لا يخضع لسلطانه المباشر وحكمه المطلق

هذه هي أهم الفتن التي آثارها بعض حكام الأقاليم في بداية حكم الشاه عباس الأول ، وإلى جانبها نشبت فتن أخرى أقل أهمية استطاع الشاه عباس القضاء عليها قبل أن يستفعل خطرهما ، ومن هذه الفتن فتنة شاه ملك في جيلان ، وفتنة الجماعة التي عرفت باسم سيبا يوش في استراباد^(٣) .

وقد أدى نجاح الشاه عباس في إخماد هذه الفتن إلى استتباب الأمن في الدولة الصفوية ، وتمتع الشاه بالحكم المطلق والسلطة المركزية ، إذ أصبح جميع حكام الأقاليم يخشون سطوته ، ولا يفكرون في الخروج عليه وإلا واجههم بالقتل والتشريد ؛ ولكن إذا كان الشاه عباس قد حكم الدولة حكما فرديا ،

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٣ ص ١٨٢ - ١٨٧

(٢) عالم آرای عباس ص : ٤٢٥ - ٤٢٧

(٣) تاریخ ایران از مغول تا افشاریه ، ص : ٣١٩

فهل معنى هذا أنه لم يستعن بوزير أو رئيس ديوان أو قائد جيش ، وأنه أشرف بنفسه على كل صغيرة أو كبيرة في الدولة ، أم انه استعان بجهاز إدارى كامل بصرف أمور الدولة ، وإمكن من خلال توجيهات الشاه وأوامره ؟ هذا ما سنعرفه من خلال الكلام عن الإدارة في عصر الشاه عباس .

— ٥ —

الإدارة في عصر الشاه عباس الأول^(١) :

على الرغم من الحكم المطلق للشاه عباس ، فإنه كان يستعين بعدد من معاونين من وزراء وقواد وكتاب ، وذلك لاتساع رقعة الدولة الصفوية وكثرة المهام التي يزاوها الشاه ، وانشغاله بالحروب الكثيرة ، وأهم هؤلاء معاونين أولئك الذين كانوا يكونون مجلس البلاط ، وهم سبعة أفراد وترتيبهم حسب أهمية مناصبهم كما يلي :

أولا : اعتماد الدولة (الوزير الأعظم) وهو الشخص الثانى بعد الشاه كما أنه الرئيس الأعلى لأركان الدولة وعامة أمراء البلاط وجميع أمراء الولايات ، وهو المشرف على الأمور المالية والمتصرف فى جميع نفقات الخزانة^(٢) ، ويجلس إلى يمين الشاه فى المجلس ، لذا كان يقال له أحياناً وزير

(١) للمزيد من التفاصيل يرجع إلى :

Tadbkirat Al-Muluk Trans, by. V. Menorsky London 1943.

وفد نشر مع الترجمة الأصل الفارسى [المجهول المؤلف]

وكذلك : إيران در زمان صفويه ، ص : ٤٠٤ - ٤١٠

وكذلك : زندگانی شاه عباس اول ، ج ٢ ، ص : ٣٩٧ - ٤٠٧

(٢) تذكرة الملوك ص : ٨ - ٩

الميمنة ، وكان الوزير يوقع القرارات أولاً ، ثم ترفع بعد ذلك للشاه لكي يعتمدها^(١) .

وقد تولى هذا المنصب سبعة وزراء في عصر الشاه عباس ، وهؤلاء الوزراء هم :

١ - ميرزا شاهولي : وكان وزيراً المرشد قليخان قبل مقدم الشاه عباس إلى قزوین ، وعندما تم تقويض عباس في آخر عام ٩٩٦ هـ اسندت الوزارة إلى هذا الوزير استجابة لطلب مرشد قليخان ، وظل يشغل المنصب حتى اغتيل مرشد ، فأبعد عن الوزارة^(٢) .

٢ - ميرزا محمد كرماني : وقد ساعد الشاه عباس في القضاء على مرشد قليخان ، لذا كافأه الشاه بمنصب الوزارة ، ولكنه عزل عنه بعد حوالي ستة شهور فقط ، وتم قتله في عام ٩٩٨ هـ ، إذ حاول تقليد مرشد قليخان في فرض سيطرته وسلطانه ، والتصرف في كل أمور الدولة دون الرجوع إلى الشاه عباس^(٣) ، كما ارتكب ابنه بعض الأعمال المستهجنة والتي أثارت الشاه ضده وضد أبيه ، فصمم على التخلص من هذا الوزير^(٤) .

٣ - ميرزا لطف الله الشيرازي ، وقد تقلد المنصب مدة عامين إلى أن تم عزله في عام ١٠٠٠ هـ (١٥٩٢ م) .

٤ - حاتم بيك الأردوباري : وتولى الوزارة عشرين عاماً ، امتدت ما بين عام ١٠٠٠ هـ وعام ١٠١٩ هـ ، وقد تولى قبل الوزارة منصب مستوفي

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٢ ، ص : ٣٩٩

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة

(٣) عالم آرای عباس ج ٢ ، ص : ٤٠٤

(٤) ملحقات روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٥٨

المالك وأثبت كفاءة عالية في عمله ، مما لفت نظر الشاه إليه وعينه وزيراً له ، وقد نجح في هذا المنصب الجديد والدليل على ذلك أنه ظل يتقلد المنصب حتى توفي ، بل لمن نجاحه شجع الشاه عباس على استوزار ابنه من بعده .

٥ - ميرزا أبو طالب بنخان ابن حاتم بيك ، وشغل المنصب مدة عشر سنوات امتدت حتى عام ١٠٣٠ هـ ، وأخيراً عزله للشاه عباس لسوء خلقه ، وإدمانه الشراب ، وعدم توفيقه في اختيار أصدقائه وندمائه^(١) .

٦ - سلمانخان استاجلو ، وشغل المنصب مدة خمس سنوات ، امتدت بين عامي ١٠٣٠ - ١٠٣٤ هـ حيث توفي في ذلك العام الأخير بمرض السرطان^(٢) .

٧ - سلطان العلماء خليفة سلطان : وتولى الوزارة عام ١٠٣٤ هـ ، وظل يشغلها بعد وفاة الشاه عباس في عام ١٣٠٨ هـ (١٦٢٩ م) ، حيث استوزره الشاه صفى حتى عام ١٠٤١ هـ^(٣) .

* * *

ثانياً : ركن السلطنة وهو الشخص الثاني في بلاط الشاه بعد اعتماد الدولة ورئاسة جميع طوائف القزلباش معقودة له ، وهو يتولى إدارة الحرس الخاص وبوقوع على كشوف المرتبات لهذا الحرس ، ومن بين الذين تولوا هذا المنصب في عصر الشاه عباس ، عيسى خان الصفوي رئيس طائفة شيخاوند وصهر الشاه عباس^(٤) .

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٢ ، ص : ٤٠٠

(٢) المرجع السابق ، ص : ٤٠١

(٣) تاريخ إيران از مغول تا افشاریه ، ص ٣٤١

(٤) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٢ ، ص : ٤٠٢

ثالثاً : ركن الدولة ، أى رئيس غلمان الشاه ، فقد تولى رئاسة ذلك الجيش الذى كونه الشاه عباس من خاصة غلمانه ، ومعظمهم من الكرجيين والشركس والأرمن ، وقد أنشئ هذا الجيش للقضاء على سلطان القزلباش وسطوتهم^(١) وأول من تولى هذا المنصب فى عهد الشاه عباس أمان الله وردىخان .

رابعاً : كبير الياوران : وهو المسئول عن تنظيم مجلس الشاه وتحديد المكان الذى سيجلس فيه كل عضو ، وكذلك تحديد عدد الواقفين ، وكان يرأس أربعين من المشرفين على التشريقات ، ويتناوبون فيما بينهم تنظيم مجالس الشاه .

خامساً : قائد حملة البنادق ، وهو قائد الجيش الذى كونه الشاه عباس من الفلاحين ، ورعايا الولايات وأعراب خوزستان ، وقد سلح الشاه عباس هذا الجيش بالبنادق ، وكانت مهمة هذا القائد الإشراف على تدريب هذه الفرقة وإعدادها الإعداد الذى يسمح للشاه باستخدامهم فى إضعاف قوة القزلباش .

سادساً : رئيس الديوان : ويشرف على جميع قصور الشاه وخزائنها ، وكذلك أملاك الشاه الخاصة ، كما يعتمد ميزانية تلك القصور ويرسلها إلى اعتماد الدولة كى يوقعها ، وتصبح سارية المفعول . ومن واجباته أيضا توفير أردية الشاه الخاصة ، وكذلك الخلع التى سينعم بها الشاه طوال عام قادم على من يريد .

سابعاً : كاتب مجلس الشاه ، وهو أكثر الناس احتراما فى البلاط بعد شخص الوزير الأعظم ، لذا كان يسمى (عاليجاه مقرب الخاقان) ، وهو

(١) تذكرة الملوك ، ص : ١٢

يجلس إلى جوار الشاه في المجالس الخاصة والعامة ، ويحاول الجميع كسب وده
لمعرفته التامة بجميع أسرار الدولة ، ولأنه يخطط بيده كل أوامر الشاه ، ومن مهام
هذا الكاتب إعداد جميع أوامر الشاه وتبليغها للجميع ، وإعداد ردود الشاه
على مراسلات الملوك الأجانب ، كما يتولى عرض رسائل حكام الولايات على
الشاه ، وفي المجلس يجلس إلى يسار الشاه دائماً ، لذا كان يقال له أحياناً
(وزير الميسرة) .

هذه مناصب كبار رجال الدولة في عصر الشاه عباس ، ومنهم يتسكون
بمجلس البلاط الذي يرأسه الشاه ، وفي بعض الأوقات كان المجلس يضم إلى
جوار هؤلاء بعض شاغلي المناصب الأخرى إذا كان المجلس في احتياج إليهم ،
وأحياناً يضم المجلس بعض من يثق الشاه عباس في رأيهم حتى ولو كانوا من
غير شاغلي المناصب الإدارية في الدولة ، فقد ورد في الأخبار بأن حمة الشاه
عباس وتدعى زينب بيكم كانت تحضر بعض المجالس الرسمية للشاه ، وكانت
المرأة الوحيدة التي يسمح لها بالحضور وإبداء الرأي . حيث كان الشاه يأخذ
برأيها أحياناً (١) .

ويجدر بنا أن نشير إلى حقيقة هامة جداً تتعلق بتصريف الأمور في عصر
الشاه عباس ، وهذه الحقيقة تتمثل في تسلط الشاه وفرديته ، فعلى الرغم من
أن مجلس البلاط كان يضم كبار رجال الدولة ، فإن رأى جميع المشتركين
فيه استشارى فقط وغير ملزم للشاه ، بل إن رأى الشاه هو الملزم للجميع ،
ولا يجزئ أحدهم على مناقشته ورده إذا رأى رأياً غير ما يراه أعضاء المجلس ،
وعلى هذا فإن جميع هؤلاء الأعضاء مأمورون باستخدامون في بلاط الشاه ، ومن

(١) شاه طهماسب صفوى ، مجموعه اسناد . . . ص ١٦

حقه أن يقيمهم ومن حقه كذلك أن يطرد أى واحد منهم ، بل ويقتله ، وقد وضع ذلك عندما ذكرت أسماء الوزراء الذين عملوا مع الشاه عباس .

ولإى جانب هذه المناصب الرسمية ، فإن الشاه عباس كان يلجأ فى تسيير أمور الدولة إلى الاعتماد على نظام التجار والتجسس ، حيث بث عيونهم ونخبهم به وجواسيسه فى كل مكان لكي يخبروه بكل ما يدور من أحداث فى جميع أركان إيران ، كما كان يكلف بعضهم بالتصنت على أحوال الناس وسماع شكاياتهم من الأمراء والحكام ، وقد وصل فى جمعه المعلومات إلى درجة متقدمة جدا حتى أن أحدا من الإيرانيين لم يكن يجرؤ على التحدث عن عيوب الشاه عباس مع أخلص أصدقائه ، أو حتى داخل بيته (١)

ولكن على الرغم من قسوة الشاه عباس وجبروته ، يجب علينا الاعتراف بأنه كان ناجحا فى إدارته للدولة الصفوية ، وخير دليل على هذا النجاح ، مقارنة وضع الدولة الصفوية قبل عصر عباس وما كان يكتنفها من اضطراب وفوضى وفتن داخلية ؛ بوضعها تحت حكم الشاه عباس ، وما اتسمت به من تقدم وازدهار حضارى ، ووحدة بين جميع أقاليمها ، وقوة عسكرية مكنته من التصدى لجميع أعداء إيران فى الشرق والغرب وانتصاره عليهم .

-- ٦ --

النشاط الاقتصادى فى عصر الشاه عباس :

كانت النقود المتداولة فى عصر الشاه عباس بعضها ذهبى ، وتسك فى المناسبات الخاصة كعيد النيروز ، أو الاحتفال بعيد ميلاد الشاه ، وكانت

(١) زندكافى شاه عباس أول ، ج ٣ ، ص ١٧٦ - ١٧٧

هذه العملة الذهبية تحفظ لدى أصحابها كتذكار ، حيث لم تكن تستعمل عادة في التعامل التجارى ، أما العملة المتداولة فكانت فضية وأشهر وحداتها ، تلك العملة المعروفة باسم « عباسى » وهى تساوى مائتى دينار ، وتوجد بعد ذلك أجزاء هذه العملة ، ومثل « نيم عباسى » أى نصف عباسى وهو يساوى مائة دينار ، ثم « شاهى » ويساوى خمسين ديناراً ، وكذلك « بيستى » أى (عشرين) وهو يساوى عشرين ديناراً (١)

وفى عصر الشاه عباس لم يكن هناك حدود تفصل بين الميزانية العامة وميزانية الشاه الخاصة ، بل كلاهما ميزانية واحدة ، والشاه عباس هو المتصرف والمتحكم فى توجيه مواردها النقدية والعينية وفق ما يرى ، ومصادر تمويل هذه الميزانية متعددة ، منها (٢).

(١) العوائد التى تحصلها الدولة على الأراضى الزراعية ، وتعرف هذه العوائد باسم « الرسوم » ، وإلى جانبها فرض الشاه عباس على حكام الولايات المختلفة إمداد الشاه والخزانة العامة بنصيب من إنتاجها الزراعى أو الحيوانى ، بل البشرى كذلك ، فكانت كردستان ملزمة بتوريد جزء من زبوتها إلى العاصمة أصفهان ، وبلاد السكرج فرض عليها توريد بعض الفلغان والجوارى ، فى حين تقدم خوزستان عدداً معيناً من الخيول العربية الأصيلة ، أما جيلان فلاشتها رها محودة حربها ، فقد فرض عليها الشاه عباس أن تقدم له جزءاً من هذا الانتاج الجيد .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

(٢) للمزيد من التفاصيل راجع زندگانى شاه عباس اول ، ج ٣ ،

ص : ٢٦٦-٢٦٢ .

(ب) للموائد التي تحصل على الأملاك الخاصة للشاه نفسه .

(ج) الضرائب على ذوى الدخول المرتفعة والملاك ، كأصحاب قطعان الماشية ، والحرفيين ، ومنها العوائد المفروضة على منتجى الحرير ، وقد فرض عليهم تقديم ثلث إنتاجهم للدولة .

(د) الجزية المفروضة على غير المسلمين من الشركس والأرمن ، والكرجيين وغيرهم ممن يدينون بالمسيحية أو اليهودية أو الزردشتية .

(هـ) حصيلة الجمارك التي تحصل في الموانئ الإيرانية المطللة على الخليج العربى ، حيث كان الشاه عباس يحصل جمارك تعادل عشرة فى المائة من أثمان الواردات إلى إيران .

(و) ضريبة التبغ ، وكانت تدر مبلغا كبيرا على الخزانة العامة ، حيث كان استعمال التبغ منتشرا بدرجة كبيرة ، أدت إلى أن الشاه أصدر فى عام ١٠٢٧ هـ أمرا بتعريمه خوفا على صحة مواطنيه . ولكنه عاد وسمح باستعماله بعد ذلك .

وذكر المؤرخون بأن الدخل اليومى للخزانة كان حوالى ألف ومائتى تومان ، فى حين كان الانفاق اليومى حوالى ألف تومان^(١) ، ومعنى هذا أن الميزانية كانت تنعم بوجود فائض كبير سمح للشاه عباس بإحداث نهضة همرانية فى أصفهان وغيرها من مدن دولته ، وأتاح له القيام بحروب متصلة فى الشرق والغرب ، كما سمح له بتبادل الهدايا والتحف مع ملوك أوروبا والهند . أما عن الأنشطة الاقتصادية فى عصر الشاه عباس ، فكانت تتمثل أهمها فى ثلاثة أنشطة ، هى النشاط التجارى والنشاط الزراعى والنشاط الصناعى ، ويجدر

(١) المرجع السابق ، ص : ٢٦٨

بنا أن نتناول كل نشاط باختصار ، لتعرف على مجهودات الشاه عباس في كل منها .

أولا : النشاط التجارى .

حرص الشاه عباس على تحقيق الانفتاح التجارى لبلاده على العالم شرقه وغربه ، كما حرص على أن يجعل من أصفهان العاصمة مركزا تجاريا هاما في الشرق ينفذ إليه التجار من جميع أنحاء العالم^(١) ، لذا نجده يدخل في صفقات تجارية مع الجميع ، حيث وصل النشاط التجارى الخارجى حتى الصين والهند شرقا ، وممالك أوروبا المختلفة غربا^(٢) ، ولكي تفلح مساعيه في تحقيق انفتاح تجارى أخذ يدعو تجار العالم إلى زيارة إيران ، ويبدل كل مساعيه لتشجيع هؤلاء التجار على التبادل التجارى مع التجار الإيرانيين ، ولكي يطمئن تجار أوروبا المسيحيين إلى نواياه الصادقة قدم لهم الضمانات الكافية والمشجعة ، ومن هذه الضمانات^(٣) :

(١) أصدر أوامره المشددة إلى جميع حكام الأقاليم بعدم التعرض للتجار الأجانب متى وفدوا إلى إيران ، والسماح لهم بالتجول بحرية في جميع أرجاء إيران ، وقد ذكرت أن من أسباب قضائه على حكومة لار المستقلة ذاتيا ، اعتداء حاكمها ابراهيم خان على أحد التجار الأجانب وسلبه أمواله .

(ب) السماح لهؤلاء التجار الأجانب بالسلوك حسب عاداتهم وتقاليدهم الخاصة ، دون إلزامهم بمراعاة العادات والتقاليد الإيرانية .

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ٥٥

(٢) تاريخ إيران از مقول تا افشاريه ، ص : ٣٤٠

(٣) .History of Persia Vol II p.177

(ج) إصدار الأوامر المشددة لرجال الدين الشيعي بعدم التعرض لهؤلاء التجار الأجانب وكلهم - تقريباً - مسيحيون ، وأن يسمح لهم بإقامة شعائر ديانتهم ، وكان متشدداً في ذلك الأمر ، حتى أن رجال الدين الشيعي أحسنوا معاملة هؤلاء المسيحيين بطريقة تفضل بكثير معاملتهم للرعايا الإيرانيين الذين يتبعون المذهب السني .

ومن الوسائل التي لجأ إليها الشاه عباس لتشجيع التبادل التجاري كذلك حرصه على أن تكون مفاوضات جميع رسله إلى أوروبا تشمل إلى جانب التعاون السياسي والعسكري ، التباحث في التعاون للتجاري وتبادل البضائع بين إيران وبين الدول التي يزورها هؤلاء المبعوثون ، فعندما سافر أنتوني شرلي وحسينعلي بيك بيات إلى أوروبا ، عقدا معاهدات تجارية لبيع الحرير الإيراني إلى الدول التي زارها^(١) .

وتشجيعاً للنشاط التجاري وتسهيله وتأمينه ، اهتم الشاه عباس بإنشاء الطرق وتمبيدها ، ومنها طريق مازندران الساحلي ليربط مناطق بحر الخزر شرقياً بغربها ،^(٢) كما أنشأ النزل لتقديم جميع احتياجات التجار والمسافرين من طعام وجياد وأماكن للمبيت ، كما زودت هذه النزل والأربطة بالقوات الخاصة بحراستها وحراسة الطرق وتأمينها ضد قطاع الطرق .

ونظراً للمكانة العظيمة التي حظيت بها التجارة في عصر الشاه عباس الأول ، ونتيجة لازدهار التبادل التجاري بين إيران ودول العالم الخارجي ،

(١) نصر الله فلسفي . تاريخ روابط إيران وأوروبا در دوره صفويه ،

قسمت أول . طهران ١٣١٦ ش ص : ٢١

(٢) لغت نامه ، شماره ٧٦ ، ص : ٤٣ .

نجد الشاه عباس يهتم بموانئ إيران المطلّة على الخليج العربي ، ويقوم ببناء ميناء (بندر عباس) ليحل محل ميناء كبرون الذي فقد مكانته بعد طرد القوات البرتغالية منه ،^(١) وقد ازدهرت موانئ الخليج في فترة حكم الشاه عباس ، حيث حرصت الشركات التجارية الأجنبية على إقامة دور تجارية لها في هذه الموانئ وفي غيرها من مدن إيران المختلفة ، فقد أنشأت كل من شركة الهند الشرقية الإنجليزية وشركة الهند الشرقية الهولندية دوراً تجارية لها في بندر عباس وأصفهان وشيراز . ولاشك أن اهتمام الشركات الاحتكارية بمنطقة الخليج جلب الكثير من الكوارث بعد ذلك إلى جميع البلاد المطلّة على هذا الخليج العربي ، حيث فتح الشاه عباس لبعض هذه الشركات الباب للتواجد في المنطقة ، ومن بعده لم يوجد في إيران ولا في البلاد العربية المطلّة على الخليج الشخصية السياسية التي توقف هذه الشركات عند حد التعامل التجاري ، فانقلب وجودها إلى استعمار أوروبي سيطر على معظم البلاد المطلّة على الخليج من جهتيه العربية والإيرانية .

وتجارة إيران الخارجية كانت تعتمد بالدرجة الأولى على بيع الحرير الإيراني ذي الشهرة العريضة في أوروبا ، ونظراً لأهمية الاتجار في الحرير بالنسبة لإيران وجدنا الشاه عباس يمتكر هذه التجارة لنفسه ، فكان يشرف على جميع عمليات تسويقه ويحقق لنفسه الأرباح الطائلة من وراء هذه التجارة^(٢)

وكانت قوافل تجارة الحرير تتخذ أكثر من طريق إلى أوروبا ، منها الطريق البري عبر العراق والشام (وكلاهما خاضع للدولة العثمانية) ، ومن الشام

(١) لورانس ليكهارت : انقراض سلسلة صفويه وأيام استيلاء افغانه

در ايران ، ترجمه مصطفی قلی عماد ، طهران ۱۳۴۳ ش ، ص : ۱۴

History of Persia, Vol II P- 189

(٢)

تنقل بحرا إلى موانى أوروبا ، وكانب الدولة العثمانية تُحصّل من هذه القوافل رسوم عبور للمرور عبر أراضيها ، وهناك طريق آخر بحرى ؛ حيث يرسل الحرير إلى ميناء هرمز في جنوب الخليج ، وتأتى السفن الأوربية فتحمله ، وتتوجه به إما صوب الهند ، وإما صوب أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح . وكان هناك طريق ثالث ، حيث تسلك القوافل طريقا بريا عبر الأراضي الروسية ومنها إلى عواصم أوروبا .^(١)

والملاحظ أن الشاه عباس كان حريصا على تصدير الحرير عن طريق موانى الخليج وذلك لكثرة الحروب بينه وبين الدولة العثمانية ، وعدم رغبته في دفع رسوم عبورٍ لهذه الدولة المعادية ،^(٢) ولكن هذه الرغبة اصطدمت بمشكلة أخرى تمثلت في جشع البرتغاليين المسيطرين على حركة الملاحة في الخليج العربى باحتلالهم لجزيرة هرمز وأجزاء أخرى من سواحل الخليج ، فقد حرص هؤلاء البرتغاليون منذ مجيئهم إلى هذه المنطقة أيام حكم الشاه اساعيل الأول على احتكار التجارة في المنطقة ، وعدم السماح بتصدير الحرير الإيراني إلى الهند أو أوروبا إلا عن طريقهم^(٣) وقد أذى مسلكهم هذا إلى ضيق الشاه بهم ومحاولته التخلص منهم عن طريق التآمر مع مندوبى شركة الهند الشرقية الإنجليزية لطردهم من المنطقة ، وبخاصة أن الشاه عباس كان حريصا على إيجاد منافسة بين تجار عديدين في كل البلاد الأوربية ، وستؤدى هذه المنافسة إلى رفع قيمة الحرير الإيراني . وقد نجح الشاه عباس في تحرير تجارة الحرير من احتكار البرتغاليين وبيعه لأى مشتر يدفع السعر الذى يعده الشاه عباس .

(١) إيران در زمان صفويه ، ص ١١٧

(٢) History of Persia, Vol II P. 189

(٣) إيران در زمان صفويه ، ص : ١١٧

وهكذا نلاحظ أن الانفتاح التجاري في عصر الشاه عباس ، كان نافذة أطلت منها إيران على العالم ، وجعل أصفهان تمج بالتجار الأجانب في كل بلاد العالم ، وقد وفر لها هذا الانفتاح ازدهارا اقتصاديا وحرانيا لم تشهد له مثيل في أى عصر آخر من عصور وجودها سواء قبل عصر الشاه عباس أو سواء بعده ، ونتيجة لهذا الازدهار أطلق البعض عليها عبارته (أصفهان نصف الدنيا) .

ثانيا : النشاط الزراعى :

كانت الأراضى الزراعية في عصر الشاه عباس مقسمة الى أربعة أقسام^(١)
١ - أراضى الإيالات والولايات ، ويشرف عليها حكام الأقاليم ، ويقومون بتوزيعها على من يرعون من رعيتهم وأتباعهم ، وهذه الأراضى تمثل أكبر نسبة بين أراضى إيران الصالحة للزراعة .

ب - الأملاك الخاصة بالشاه عباس ، ودخل هذه الأراضى يؤول الى خزانة الشاه الخاصة ، وإن كان الشاه يقدم بعضا منها لأفراد حاشيته وكبار قواده .

ج - أراضى الأوقاف الخيرية ، وهى الأراضى التى أوقفها أصحابها على المؤسسات الدينية والأماكن المقدسة ، وقد يكون الواقف لهذه الأراضى الشاه نفسه ، أو أحد أفراد الرعية .

د - أراضى عامة الشعب ، وهى نسبة ضئيلة لاتكاد تذكر بالنسبة للأراضى الأخرى وهى التى كان الشاه عباس يمنحها للمواطنين فى صورة

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٣ ، ص : ٢٧٠ .

إيجار رمزي مدته تسع وتسعون سنة ، وبعد انقضاء المدة تعود الأرض إلى حاكم الإقليم الذي يعيد توزيعها من جديد إما على مستغليها الأول ، أو على منتفع جديد .

ومما لا شك فيه أن عدد العاملين بالزراعة كان يفوق عدد العاملين في أي مهنة أخرى : وذكر بعض السامحيين الأوربيين - ومنهم شاردن الفرنسي أن الفلاحين الإيرانيين على الرغم من حرمانهم التقريري من ملكية الأراضي التي يزرعونها ، إلا أنهم كانوا في عصر الشاه عباس وعصر من خلفوه من حكام الدولة الصفوية ، يعيشون حياة رغدة تفوق معيشة أقرانهم في أوروبا . (١)

ونلاحظ من خلال هذا التقسيم للأراضي في عصر الشاه عباس ، أن الشاه كان يملك مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية ، كما أن سلطانه في هذا الأمر لا يعرف الحدود والقيود ، حيث كان في مقدوره ضم أي أراض إلى ملكيته الخاصة وقد حدث هذا على سبيل المثال ، عندما كان يأمر بضم أملاك قواد القزلباش الذين فتك بهم ، ومنهم مرشد قليخان ، إلى ملكيته الخاصة (٢) كما أصدر أوامره بامتلاك جميع أراضي الشاه طهماسب الأول في منطقته أصفهان ، التي كانت في حوزة أخيه حمزة ميرزا ، ومن بعده أخوه أبو طالب ميرزا (٣)

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ٣٨٢ .

(٢) ملحقات تاريخ روضه الصفاء ج ٨ ، ص ٢٥٢ .

(٣) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٣ ، ص : ٢٧٩

ثالثاً : النشاط الصناعي .

من أهم الصناعات الحديثة الظهور في عصر الشاه عباس ، صناعة الأسلحة النارية^(١) فقد انقهرز الشاه عباس فرصة مقدم البعثة الإنجليزية بقيادة الأخوين شرلي ، وتباحث معهم على تطوير قواته المسلحة ، فأشاروا عليه بإنشاء مصنع لإنتاج الأسلحة، وأنهم على دراية بهذا الأمر ومستعدون للمساعدة في إنجاح هذه الصناعة في إيران ، فرحب الشاه عباس بهذا الرأي، وأنشأ المصانع التي أمدت جيشه بستين ألف بندقية ، وخمسمائة عربة مدفع^(٢) ، وقد ساعدته هذه المعدات في التصدي للدولة العثمانية ومحاولة الانتصار عليها .

ومن الصناعات الهامة التي ازدهرت في عصر الشاه عباس كذلك ، صناعة النسيج وبخاصة في مدينة أصفهان ، حيث اختص الشاه مصانع العاصمة بإنتاج المنسوجات التي يهديها إلى ملوك أوروبا وعظماة دولته ، وأدى هذا الأمر إلى خلق المنافسة بين مصانع العاصمة لتقديم الأجود^(٣) .

كما اهتم الشاه عباس بصناعة السجاد ، حيث أنشأ مكتباً خاصاً يتولى إدخال الخيوط الذهبية والفضية والحريرية في صناعة السجاد ، كما أن أمر بصناعة سجاجيد حريرية تستعمل في قصوره الخاصة ، أو ليقدّمها هدايا لملوك أوروبا ، وقد أحرز هذا السجاد المصنوع من الحرير شهرة فائقة ، أدت إلى أن أحد ملوك بولندا المعاصرين للشاه عباس أرسل بعض التجار ليشتروا له عدة سجاجيد حريرية ليزين بها قصره^(٤) .

(١) لغت نامه ، شماره ٧٦ ص : ٤٣

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٢١ .

(٣) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٨٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص : ٢٩٦ .

ومن الصناعات التي يرجع الفضل في انتشارها في العصر الصفوي إلى
الشاه عباس ، صناعة الزجاج والأواني الفخارية ، فقد استمدعى إلى إيران
العمال المهرة في صناعة الزجاج ، وأشرفوا على إقامة مصانع لإنتاجه في شيراز ،
وأصفهان وغيرها من المدن الإيرانية ، كما أحضر بعض الصينيين المهرة في
صناعة الفخار وتطويره وعهد إليهم بمهمة الارتقاء بهذه الصناعة في إيران .

وهكذا وجدنا الشاه عباس مهتما بالصناعة ، وأفاد من الانفتاح
الاقتصادي لكي يطور الصناعة القائمة ، أو ليقوم صناعات جديدة لم تكن
معروفة في إيران قبل عصره . مما أدى إلى رواج في حياة الصناع ، وارتقاء
لمستواهم الفني نتيجة اختلاطهم بالفنيين القادمين من أوروبا والهند والصين ،
وظهر أثر ذلك فيما خلفوه لنا من صناعات وآثار مازال بعضها باقيا في العاصمة
أصفهان ، وفي متاحف إيران والعالم .



وهكذا استطاع الشاه عباس بعد أن أعاد الاستقرار السياسي ، تحقيق
الرواج الاقتصادي في الدولة الصفوية بعد فترة سادها الاضطراب والانحطاط
أيام حكم أبيه السلطان محمد خدابنده ، وقد أفاد خلفاء عباس من هذا الرواج
وإن لم يستطعوا الوصول إلى درجة الازدهار التي وصل إليها الشاه عباس ،
حيث كان عصره شبيها بواحة من الازدهار وسط صحراء من الاضطرابات
والانحطاط السياسي والاقتصادي .

سياسة الشاه عباس مع عامة الشعب ، ورجال القبائل :

أولا : مع عامة الشعب :

يقول الإيرانيون إنه على الرغم من اتسام سياسة الشاه عباس بالقسوة والغلظة مع رؤساء طوائف القزلباش وحكام الولايات والقواد ، فإنه كان برأ عطوفا في علاقاته بعامة الناس وكادحيهم ، وحريصا على الأخذ بأيديهم والتخفيف عن كواهلهم ، ومساندتهم ومناصرتهم ضد أى حاكم إقليم يريد فرض سلطانه عليهم ، بل إنه كان في سفرياته يسأل سكان الأقاليم التي يمر بها عن مسلك حكامهم معهم ، فإن أشتكى أهل إقليم من مسلك حاكمهم ، عزله على الفور وأمر بمحاكمته^(١) . ولهذا حرص الحكام على تنفيذ جميع المهام التي كان الشاه عباس يكلفهم للقيام بها لخدمة جماهير ولاياتهم ، وإلا تعرض للعقاب من جانب الشاه .

كما أن حالة الاستقرار السياسي التي نعمت بها إيران خلال عصر الشاه عباس أتاحت الفرصة لوجود مرحلة من التقدم والازدهار في جميع المجالات ، فأفادت العامة من هذا الازدهار ، وكان أكثر المستفيدين العاملون في مجال التجارة ، حيث كانت إيران في عصره تتاجر مع الشرق والغرب . وكانت أصفهان تعج بالتجار الأجانب الوافدين من كل مكان ، كل هذا أدى الى تمتع طبقة التجار بحياة رغدة ، ودخول مرتفعة لم تتحقق لهم قبل هذا العصر وساعدهم على ذلك تشجيع الشاه عباس لهم وتقديم المساعدات لمن يحتاجها

(١) زندگانی شاه عباس اول ج ٣ ، ص : ٢٤٣ .

منهم ، لدرجة أنه كان يقدم رأسمال جديد لكل تاجر انتكست تجارته ، وأتاح للتاجر المقترض أن يسدد ديونه على أقساط ميسرة ، وإن كان الشاه عباس يتنازل في حالات كثيرة عن هذه الأقساط^(١) .

كما أن اهتمام الشاه عباس بالتصنيع وإنشاء مصانع جديدة ، وتدريب العمال على هذه الصناعات ، ساعد على الارتقاء بطبقة الصناع والحرفيين ، وزاد من دخولهم ، وقد أدى رواج حالهم إلى تكويينهم نقابات وتشكيلات تتولى الحفاظ على حقوقهم والدفاع عن مصالحهم^(٢) .

وشارك الفلاحون في جني ثمار ذلك الرواج والازدهار السياسي والاقتصادي الذي ساد البلاد في عصر الشاه عباس ، حيث كان الشاه حريصا على حمايتهم من كل طغيان ، وكان يجود بالماشية والأرض على من جارعليه الزمن منهم ، كما كان الشاه يوقف بعض أراضيه لصالحهم ، وقد حدث هذا بعد انتصاره على العثمانيين في معركة شماخي في عام ١٠١٦ هـ^(٣) .

وتعاطفا من الشاه عباس مع عامة الشعب ، نجده يصدر أوامره بأن تتحمل الميزانية العامة كل ما ينجم عن الحرب من خسائر^(٤) ، بمعنى أن تقوم الدولة بتعويض الناس عما أصابهم في ممتلكاتهم من ويلات الحروب العديدة التي تمت بين الشاه عباس وبين أعداء دولته في المشرق والمغرب . ولاشك أن هذا القرار سيشجع عامة الناس على خوض المعارك وتأييد الشاه عباس في سياسته الحربية ، مادامت الخزانة العامة سعة كفل بتعويضهم ، ولن يضاروا

(١) المرجع السابق ج ٢ ، ٣٦٧ .

(٢) إيران در زمان صفويه ص : ٣٨١ .

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٩٠ .

(٤) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٢ ، ص : ٣٦٩ .

هم في أرزاقهم وممتلكاتهم وهذا التشجيع له أثره على مواصلة الشاه عباس
لخوض المعارك دون تبرم من شعب أو ضجر مهما تعددت الحروب وكثرت
وبلاؤها .

ومن الأعمال التي كان الشاه عباس يتقرب بها من العامة ، حرصه على
إطعام زوار الأماكن المقدسة والمزارات الشيعية ، وبخاصة زوار العتبة الرضوية
في مشهد ، وزوار قبر الشيخ صفى الدين جد الأسرة الصفوية في أردبيل ،
فكان يأمر بتقديم الطعام لهؤلاء الزوار طوال العام لافي شهر رمضان المبارك
فقط ، كما كان يصرف لبعضهم نقوداً كذلك (١) .

وهكذا كان الشاه عباس عطوفاً مع طبقات الشعب الكادحة ، حريصاً
على الأخذ بأيديهم ضد الفاقة ، ومصائب الزمان . وهذا العطف دفع البعض
للقول بأن الشاه عباس في عطفه هذا وعدله يعد أنوشيروان الثاني (٢) .

وفي رأبي أن الشاه عباس كان يلجأ إلى هذا التعاطف خدمة لأهدافه
ومصالحه؛ فحرصه على التخلص من رؤساء طوائف القزلباش والقواد والحكام
كأن يلزمه بالبحث عن جبهة أخرى يستند إليها وتوازره . فكانت هذه

(١) المرجع السابق ص : ٣٧٠ .

(٢) تاريخ ايران از مغول تا افشاريه ، ص ٣٤٠ ، وأنوشيروان هو :
كسرى أنوشيروان الملقب بالعدل ، الحاكم العشرون من حكام الدولة
الساسانية التي حكمت إيران قبل الإسلام ، وقد تولى بعد أبيه قباد الذي شجع
ديانة مزدك مما سبب اضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية في إيران ، وما أن
تولى أنوشيروان حتى قضى على المزدكية وقتل الكثيرين من أتباعها ، وأعاد
لإيران الأمن والطمأنينة وحكم بين الناس بالعدل ، فأحبه الجميع وأطلقوا عليه
لقب «العدل» ، وكان مولد محمد عليه السلام في أواخر سني حكمه . انظر :
الكرديزي : زين الاخبار ، ص ٣١ - ٣٣ ، تهران ١٣٤٧ ش .

الجبهة عامة الشعب والجاهير الكارحة ؛ وهم الذين اعتمد عليهم في تكوين جيوشه الجديدة التي مكنته من التخلص من سيطرة القزلباش ؛ وهم الذين التفوا حوله نتيجة عطفه عليهم ؛ وواصلوا الحروب في الشرق والغرب وحققوا جميع الانتصارات التي مجدت الشاه عباس في تاريخ إيران بعد ذلك .

ثانياً : مع القبائل والطوائف المختلفة :

أما معاملته للقبائل والطوائف القاطنة أرض إيران والخاضعة للحكم الصفوي فكانت خاضعة لظروف كل قبيلة وطائفة ، ومدى حرصها على التبعية للتاج الصفوي ، ومدى خضوعها للشاه عباس وامتثالها لأوامره ونواهيها ، ولكي نتفهم هذه المعاملة يجمل بنا أن نتحدث عن مسلكه مع مجموعتين من هذه القبائل والطوائف ؛ إحداهما قبائل الأكراد السنية ، وثانيهما جماعات الأرمن المسيحية .

القبائل الكردية تقطن المناطق الشمالية الغربية من آذربايجان ومنطقة كردستان لذا فهم يجاورون الحدود العثمانية ، ويتبعون مذهبها السني ، مما أوجد نوعاً من التعاطف بينهم وبين العثمانيين . وقد كانوا يعلنون تبعيتهم للدولة الصفوية أيام حكم الشاه اسماعيل الأول والشاه طهماسب ، ولكن عندما اجتاحت الاضطرابات الدولة الصفوية أيام حكم الشاه اسماعيل الثاني والسلطان محمد خدابنده ، واستطاعت الدولة العثمانية احتلال أجزاء كبيرة من آذربايجان ، أعلن هؤلاء الأكراد تعاطفهم مع العثمانيين رفقاء المذهب السني ، وعندما تولى الشاه عباس الحكم واستطاع طرد العثمانيين من مناطق

آذربايجان ، صمم على الانتقام من هؤلاء الأكراد السنيين وتشريدهم متى
سنحت الفرصة لذلك .

وفي عام ١٠١٣ هـ حدثت فتنة كردية ضد حكامهم الصفويين . أدت
إلى استيلاء الأكراد من قبيلة مكري على بعض القلاع الحصينة في منطقتهم ،
ومنهما قلعتا بسك وماكو^(١) ، فأمر الشاه عباس جنوده بالتحرك صوب
المنطقة الثائرة والاستيلاء على القلاع الحصينة بها ، والتي يحتص بها الثائرون ،
والبطش بضاوة وقسوة بهؤلاء الأكراد ، فتقدم الجيش الصفوي وحطم
قلاع الأكراد وأشاع فيهم القتل والتشريد حتى أصبح الرجال طعمة للسيوف
ووقعت النسوة والصبية في ذل الأسر^(٢) .

وقد حاول الأكراد المكريون استعطاف الشاه عباس بعد أن أمنهم
على حياتهم ، وتقدم زعيمهم قباد خان ومعه مائة وخمسون فارس إلى الشاه
عباس الموجود في مراغة في ذلك الوقت . وذلك لإظهار خضوعهم وتقديم
فروض الطاعة للشاه ، ولكن ما أن وصلوا إلى بلاطه حتى فتك بهم
جميعاً^(٣) .

ولم يكتف الشاه عباس بالتنكيل بهم في ديارهم ، وإنما أقدم على اتخاذ
خطوة أشد قسوة ، وهي تهجير عدد كبير منهم بالقوة إلى مناطق أخرى ،
ليفقدوا الحساس للأرض التي يعيشون عليها ، فتخبو نار ثورتهم ، ويعيشون في

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٧٢ - ٣٧٣ .

(٢) عالم آراى عباس ص ٥٧٥ .

(٣) محمد أمين زكى خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور
التاريخية حتى الآن ، ترجمة : محمد على عوني . القاهرة ١٩٣٦ م ،
ص : ٢٠٧ ، ٢٠٨ :

ذل الفرية والاستكانة ، فقد أمر بنقل خمسة عشر ألف أسرة كردية ، ومعهم كل أمتعتهم ووسائل معيشتهم وقطعان ماشيتهم من كردستان إلى شرق خراسان ، ليكونوا فاصلا بشريا بين الإيرانيين وبين الأوزبك فيما وراء النهر^(١) ؛ ولعله أراد بهذا الإجراء أن يجعل من هؤلاء الأكراد السنيين أول من يتلقون ضربات الأوزبك السنيين ، وبذا يتخلص من كليهما معا ويستريح من فتن الأكراد في إيران ومن أي هجوم أوزبكي مفاجئ على حدوده الشرقية ولم يكثف الشاه عباس بمأفله معهم حتى الآن بل فرض عليهم ضرائب باهظة ، ووضعهم تحت رقابة صارمة ، وحكم حديدي ، كي لا يتيح لهم أي فرصة للخروج عليه ومعاودة الثورة ضده .

هكذا عامل الشاه عباس الأكراد السنيين بقسوة بالغة وعنف شديد ، وعلى النقيض من ذلك كانت معاملته للأرمن المسيحيين ، حيث كان بهم براعطوفا ، وحرص على التقرب منهم والتودد إليهم ، حتى أنه كون جيشا جديدا عماده أبناء الطوائف المسيحية القاطنة إيران ومنهم الأرمن والشركس والكرجيين . كما أن الشاه عباس لجأ إلى تهجيرهم ، ولكن بغرض حمايتهم لا بهدف تشريدهم كما فعل مع الأكراد ، فعندما عاودت الدولة العثمانية هجومها على آذربايجان في عام ١٠١٣ هـ ، أصدر الشاه عباس أوامره بتهجير سكان أرمينيا من ديارهم وإحراق كل المزروعات ، فعمل ذلك حتى يؤمن الأرمن من أخطار الحرب ، وحتى لا يجد العثمانيون ما يقتاتون به إذا دخلوا تلك الديار ، وقيل إن عدد الأرمن الذين هُجِّروا كان حوالي ستين ألف شخص ، ووزعهم الشاه عباس على ولايات إيران المختلفة . وأنزل بعضهم ضاحية جديدة بنيت

History of Persia Vol 11, p.174.

(١)

والمرجع السابق ص : ٢١١ .

من أجلهم بجوار العاصمة أصفهان ، وعرفت باسم « جلفا » وهو نفس اسم عاصمتهم التي هجروها في آذربايجان . وقد زود الشاه عباس الضاحية الجديدة بكل ما يلزم المهاجرون الجدد ، وبني لهم فيها كنيسة كبيرة^(١) .

ولاشك أن الشاه عباس أحسن معاملة الأرمن أملا في خطب ود الدول المسيحية الأوروبية ، ورغبة في التحالف معها ضد العدو المشترك وهو الدولة العثمانية ، كما أراد الإفادة من هؤلاء الأرمن المهجرين إلى أصفهان في تنشيط التجارة الإيرانية وبخاصة الحرير^(٢) ، حيث كانوا ذوى مهارة في التجارة فرغب في أن يستشيرهم في مشروعاته التجارية وأن يعهد إليهم بتسويق الحرير الإيراني الذي يمتلك بمفرده حق بيعه خارج إيران .

والحديث عن سوء معاملة الشاه عباس للأكراد السنيين وحسن معاملته للأرمن المسيحيين يقودنا إلى الحديث عن سياسته المذهبية وتعامله مع أصحاب المذاهب الأخرى والديانات المختلفة .

— ٨ —

٨ — سياسة الشاه عباس المذهبية

أولا : تدعيمه للمذهب الشيعي :

كان الشاه عباس شديد التعلق بالمذهب الشيعي . حريصا على إرساء دعائمه ، وقد بذل قصارى جهده في ترويض المذهب الإثني عشرى الشيعي ، ومن مظاهر هذا الاهتمام الزائد حرصه على الاحتفال بكل المناسبات الشيعية مثل أعياد ميلاد جميع أئمة الشيعة ، وكذلك إقامة العزاء في ذكرى وفاتهم

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٣ ، ص : ١٨٨ .

(٢) إنقراض سلسلة صفويه ، ص : ٥٣٩ .

أو استشهادهم، فقد كان يقيم في كل عام مراسم العزاء في اليوم التاسع عشر حتى السابع والعشرين من شهر رمضان بمناسبة استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كما كان يقيم مراسم العزاء في الأيام العشرة الأولى من محرم وفي ليلة عاشوراء. (١)

ومن مظاهر اهتمامه كذلك إبقاؤه على صيغة الأذان التي استنفها جده الشاه اسماعيل الأول، وهذه الصيغة تضيف إلى الصيغة الإسلامية المألوفة في البلاد السنية المذهب، عبارتي: أشهد أن عليا ولي الله، وحي على خير العمل. (٢)

وكان الشاه عباس حريصا كذلك على الإكثار من زيارة أضرحة مشايخ الشيعة وأئمتهم، والقيام بخدمتها، فكان يزور ضريح جده الشيخ صفى الدين في أردبيل، كما أكثر من زيارة ضريح الإمام الرضا في مشهد، وقد زار هذا الضريح ذات مرة سيرا على الأقدام من اصفهان إلى مشهد (١٣٣٣ كم) وذلك وفاء لنذر غير معروف، وقد بدأ الرحلة يوم الخميس الخامس عشر من جمادى الأولى عام ١٠١٠ هـ، ووصل إلى مشهد في الرابع عشر من جمادى الآخرة من نفس العام، وقضى هناك ثلاثة أشهر يقوم بالخدمة، ويعلق رضا قليخان هدايت على هذه الرحلة بقوله:

يدرك علماء التاريخ أنه لا يوجد حاكم سلك مثل هذا الطريق الذي سلكه الشاه عباس، وإذا كان هرقل قد سار من القسطنطينية إلى بيت المقدس فقد فرسوا له أرض الطريق بالورود والرياحين. في حين سلك الشاه عباس

(١) زندگانی شاه عباس اول، ٣٨، ص: ٦.

(٢) لغت نامه، شماره: ٧٦، ص: ٤٢.

الطريق على الحصى والرمال دون أن يعبد أو يمهّد . وقد آثر أن يسير حافي القدمين : (١)

وبعد أن تمكن من فتح بغداد عام ١٠٣٢ هـ . واستولى على العتبات المقدسة لدى الشيعة والموجودة في كل من كربلاء والنجف والكوفة ، نجده يسارع بزيارتها (٢) . بعد أن كان يتوق لذلك منذ تولى الحكم . ولكنه لم يتمكن من القيام بمثل تلك الزيارة لخضوع تلك المزارات تحت حكم الدولة العثمانية . وقد ذكر البعض بأنه قضى عشرة أيام في ضريح علي بن أبي طالب في النجف ، حيث قام بخدمة زواره وبكنس أرض المقبرة (٣) .

وإمامنا في إعلان تبعيته لآل علي بن أبي طالب، وتمسكه بالمذهب الشيعي لقب نفسه بـ (كلب عتبة علي) أو (كلب عتبة الولاية) . ونقش هذا اللقب على خاتمه لكي يستعمله في المراسلات الرسمية (٤)

ولكن على الرغم من شدة تعصبه المذهبي فقد حرص على التقليل من نفوذ رجال الدين وكف أيديهم عن التدخل في شؤون الدولة الصفوية السياسية والحربية والقضاء على تظاهر بعضهم (٥) . لدرجة أنه أعلن مراراً كراهيته للحية واتخاذها وسيلة للخداع والنفاق ولعله حرص على التصدي لنفوذ رجال الدين نتيجة للفوضى التي اجتاحت النواحي المذهبية خلال حكم أبيه السلطان محمد خدابنده حيث أهمل بعضهم الاهتمام بالأمور الدينية

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٣١ .

(٢) تاريخ ايران از مغول تا افشاريه . ص : ٣٣٦ .

(٣) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٣ ، ص : ١٩ .

(٤) المرجع السابق ص : ١٧ .

(٥) انقراض صفويه (لكهارت) ، ص : ٢٦ .

وحرصوا على التسلط والمكسب المادى والتدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى الدولة ؛ مستغلين فى ذلك ضعف السلطان خدا بنده ، وعدم قدرته على إيقافهم عند حد الإشراف على مسائل الدين ، وترك أمور الدولة للوزراء والقواد وغيرهم ممن يشغلون المناصب الإدارية، وقد نجح الشاه عباس فى كف أيدى الأئمة ورجال الدين عن التدخل فيما لا يعنيه من أمور الدولة. إذ أن حرصه على الانفراد بالحكم لن يجعله يعطى لرجال الدين الفرصة للتدخل والحكم . كما لا يعقل أن يقضى على نفوذ رجال القزلباش ، ويترك لرجال الدين الفرصة لمناواته أو حتى مشاركته الحكم .

ثانيا : موقفه من الفتن المذهبية

إن حرص الشاه عباس الشديد على نصرة المذهب الشيعى ، دفعه للبطش بجميع المذاهب الباطلة ، والفتن الدينية التى ظهرت فى عصره ، وتمثل فى انتشارها خطرا على المذهب الإثنى عشرى . ومن هذه الفتن ، فتنة النقطويين . ينسب المذهب النقطوى إلى أحد سكان جيلان ويدعى « محمود نامى » — يبدو أنه بدأ يدعو إلى مذهبه فى عام ٨٠٠ هـ — وتدور دعواته المذهبية على أساس أن ظهور وخلق كل شىء كان من التراب ، والتراب ليس إلا نقطة ، ولذا عرفت دعواته باسم (النقطوية) (١) .

وقد تعرضت هذه الدعوة للتنكيل من قبل الشاه طهمااسب الأول (٩٣٠ — ٩٨٤ هـ = ١٥٢٣ — ١٥٧٦ م) ولكن اضطراب الأحوال خلال سنى حكم الشاه اسماعيل الثانى ، والسلطان محمد خدا بنده (٩٨٤ — ٩٩٦ هـ

(١) لمعرفة المزيد عن هذا المذهب يمكن الرجوع إلى ملحقات روضة الصفا ج ٨ ، ص ٢٧٣ وما بعدها ، وزندكافى شاه عباس أول ٣ ، ص : ٤٠ وما بعدها .

= ١٥٧٦-١٥٨٨ م) ساعد على ازدهار تلك الدعوة من جديد. ولذا ما أن تولى الشاه عباس الحكم، واطلع على تفشى خطر النقطويين، حتى صمم على التخلص منهم، وتخليص البلاد من شرورهم، فأمر على الفور إلى مقر هذا المذهب للاطلاع عليه، ولمعرفة أسباب إقبال العامة على مبادئهم، ولكي يعرف السرايب السرية في دارهم. فوجدها مليئة بالخمر المعتقة ومعدات اللهو واللعب، فأمر بإلقاء القبض على رؤسائهم، والفتك بكل من تبع هذا المذهب الهدام، ومن بين الذين ألقى القبض عليهم درويش خسرو ويوسف تركش دوز^(١)، وقد نفذ الشاه فيهما حكم الإعدام^(٢).

وعندما أدرك أتباع المذهب النقطوي بأنه لا بقاء لمذهبهم في إيران، طالما كان عباس بتعقبهم ويقضى عليهم، نجدهم يرحلون إلى الهند ويعيشون

(١) ترتبط نهاية يوسف تركش بقصة طريفة، فالشاه عباس من المؤمنين بالطالع وحركة الكواكب، وقد رأى في ذلك الوقت أن الكواكب تشير إلى أن عظيماً في إيران سيموت قريباً فظن الشاه عباس بأنه المقصود بذلك العظيم، فاستشار منجمه الذي رأى أن يتنازل الشاه عباس عن العرش والتاج مدة ثلاثة أيام، ويسند هذا المنصب إلى يوسف تركش لكي ينفذ فيه حكم الإعدام بعد ذلك، وهكذا يتحقق الطالع ويموت العظيم الذي أخبرت عنه الكواكب، وبعد انقضاء الثلاثة أيام، يعود الشاه عباس إلى مزاوله الحكم ولبس التاج، وفملا تم تصيب يوسف تركش وأحيط بالخدم والحشم، وقضى الشاه عباس تلك الأيام الثلاثة في الصيد واللعب، وأخيراً تم اغتيال يوسف هذا، وتخلصت إيران من خطر المذهب النقطوي. وكان تنازل عباس عن الحكم في الفترة من ٧ إلى ١٠ من ذي القعدة عام ١٠٠١ هـ.

لمعرفة المزيد عن هذه القصة، يرجع إلى: ملحقات روضة الصفا ج ٨، ص ٢٧٦، ٢٧٧. زندگانی شاه عباس اول ج ٢ ص ٣٤٠-٣٤٣،

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا، ج ٨، ص: ٢٧٣-٢٧٧.

في كنف حاكمها جلال الدين محمد أكبر ، الذي اتسم عهده بالتسامح الديني
والمساواة بين جميع أبناء آدم دون النظر إلى مذهبهم أو جنسهم^(١) .

ومن الفتن الدينية التي قضى عليها الشاه عباس ، تلك الفتنة التي حدثت
في جيلان ورأسها شخص يدعى (سيد محمد) الذي ادعى بأنه نائب
إمام الزمان وأنه المهدي المنتظر ، ونتيجة لسوء العلاقة بين أهل جيلان وبين
الشاه عباس ، التف معظم أهالي جيلان حول صاحب هذه الفتنة ، كما ساعد
مرض الشاه عباس في مازندران (عام ١٠٢٩ هـ) على زيادة نفوذ سيد محمد ،
وعلى انتشار دعوته وظل الحال كذلك إلى أن برأ الشاه عباس من علمته ،
وصمم على البطش بنائب إمام الزمان والملتفين حوله ، ولكنه لجأ إلى الحيلة
والخدعة ، حيث أظهر استعداده للدخول في طاعة هذا المدعى ، ولكن يلزمه
أن يلتقي به ويتعرف على أفكاره وتعاليمه ، لذا أرسل الشاه عباس في طلبه
إلى مازندران حيث كان يقيم في ذلك الوقت ، وبعد مشواره إلى هناك ألقى
القبض عليه ، وعلى أعوانه ، وتم اغتيالهم جميعا والقضاء على هذه
الدعوة الباطلة .^(٢)

وهكذا كان الشاه عباس حربصا على تدعيم المذهب الشيعي والقضاء على
أى مذهب هدام يسئ إلى الإسلام ، ويقلل من شأن المذهب الشيعي ، ولكنه
لم يكتب في هذا المجال بمعاداة للذاهب الهدامة فقط ، بل تعدى ذلك إلى
معاداة المذهب السني ، وإلحاق الأذى والضرر بأتباعه ..

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٣ ، ص : ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ص : ٥٢ - ٥٣ .

ثالثاً : معاملة الشاه عباس لأهل السنة ...

كانت الخلافة العثمانية تعتبر نفسها حامية حتى المذهب السني في العالم الإسلامي في حين ظهرت الدولة الصفوية معلنة نفسها المدافعة عن المذهب الشيعي ، المتصدية لكل مخالفه ، وقد أدى هذه الاختلاف المذهبي بين العثمانيين والصفويين إلى حدوث نزاع مسلح متواصل بين هذين المعسكرين ، ولكن كفة العثمانيين كانت هي الراجحة منذ ظهور الصفويين وحتى السنوات الأولى من حكم الشاه عباس الأول ، ولكن بعد أن تمكن عباس من التخلص من الخطر الأوزبكي في الشرق ، وأعاد تنظيم جيوشه وتسليحها بأسلحة نارية ، دخل في عراق مع العثمانيين ، واستطاع الانتصار في النهاية وطردهم من الأراضي الإيرانية التي احتلوها أيام حكم أبيه السلطان محمد خدا بنده ، بل واستطاع الاستيلاء على بغداد ومزارات الشيعة في العراق .

وقد كان لهذه المعارك المستمرة أثر بالغ في زيادة الخصام المذهبي بين الصفويين والعثمانيين ، وفي زيادة تعصب الشاه عباس الأول للمذهب الشيعي وعدائه للمذهب السني ، ومحاواته الانتقام من أهل السنة متى وافته الفرصة لذلك ، وقد وصل العداء لدرجة أن عباس حاول إقناع الإيرانيين بالتغلي عن الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، والاكتفاء بزيارة قبر الإمام الثامن على بن موسى الرضافي مشهد^(١) وذلك لأن الواجب القومي يحتم عدم سفر الإيرانيين إلى مكة عبر أراضى الدولة العثمانية ، حتى لا يدفعوا لهذه الدولة المعادية رسم عبور ، ولكي يرغبهم الشاه عباس في التوجه إلى مشهد ، كان يكثّر من التردد عليها وزيارة قبر الإمام الثامن بها ، كما أن سيره على

History of persia vol II. p.181

(١)

الأقدام من أصفهان إلى مشهد كان وسيلة من وسائل ترغيبهم في تقليده
والحج إلى ذلك للزار المشهدي ، بدلا من التوجه إلى الكعبة المشرفة
في مكة .

ولعلنا أدركنا أن المعاملة السيئة التي عامل بها الأكراد الإيرانيين مرجعها
بالدرجة الأولى إلى تبعية هؤلاء الأكراد للمذهب السني ، وعدم قبولهم الدخول
في المذهب الشيعي ، مما جعلهم هدفا لفضبه وحقده . ووصل الأمر في تعنته
معهم إلى درجة التشريد في البلاد . ونقل عدد كبير منهم من كردستان إلى
خراسان بما في ذلك من ألم نفسي وإحساس دائم بالغربة والتشرد^(١) .

ومن مظاهر تعنته مع أهل السنة ، ما فعله مع سكان قلعة (أندخود) بما
وراء النهر ، وكان الشاه عباس قد فتح هذه القلعة عام ١٠١١ هـ وأمن
أهلها من السنة على حياتهم وممتلكاتهم ، وطمانهم بأنه لن يتعرض لهم
بالسوء بسبب اعتناقهم المذهب السني ، ولكن حدث في عام ١٠١٢ هـ ، وهو
عائد من محاصرة مدينة بلخ أن مر بقلعة أندخود هذه ، وفجأة وبلا سبب
واضح أمر جنوده بالإغارة عليها وأسر جميع أكابرها وأعيانها وقاضيتها
وعظماؤها ، وأن يسوق كل جندي صفوي أمامه أسيرا من أهل هذه القلعة
حتى يصلوا إلى منطقة العراق (أصفهان) وقد علق اسكندربيك منشى على
هذه الحادثة بقوله :

« في طرفة عين خربت تلك القصبه ، ووقع العديد من النساء

(١) للإطلاع على المزيد من مظاهر القسوة التي عامل بها الشاه عباس وجنده
القبائل الكردية السنية يمكن الرجوع إلى « خلاصة تاريخ الكرد
وكردستان » .

والصبيان في ذل الأسر ، وقلة من الجنودم الذين جاءوا وليس في معيهم
أسرى من قلعة اندخود» (١) .

وكان الشاه عباس غالباً قاسى القلب خشنا مع الأسرى العثمانيين
والأوزبكيين - وهم من أهل السنة - وكان أقل عقاب يوقع عليهم إن لم
يقتلوا ، هو سمل عيونهم ، ولم يكن يصفح عن أى أسير منهم إلا إذا أعلن
تخليه عن المذهب السنى ودخوله في المذهب الشيعى ، ومن الذين فعلوا ذلك
شريف باشا حاكم قلعة وان بمنطقة آذر بايجان ، فقد أعلن - بعد أسره -
تخليه عن خدمة السلطان العثماني ودخوله في المذهب الشيعى والبقاء في إيران
فصفح الشاه عباس عنه وأجرى عليه راتبا شهريا من خزائنه الخاصة . (٢)

وقد ذكر جلال الدين محمد اليزدى المنجم الخالص للشاه عباس في كتابه
(تاريخ عباسى) العديد من مظاهر تعنت عباس مع أهل السنة ، ومما
ذكره ما يلى (٣) .

نزل الشاه عباس في عام ١٠٠٨ هـ ببلدة سمنان ، وبسبب تطاول حاكمها
عليه وعدم امتثال أهلها لقوانينه ، ثم اعتقال عدد كبير من السنين بها ،
وأمر الشاه بإطعام جهالمهم بأذان علماءهم وأنوفهم ، ثم حصل ثلاثمائة تومان
منهم تكفيرا لجرمهم .

وفي عام ١٠١٨ هـ بلغه أن حاكم مدينة همدان ويدعى محمود الدباغ وهو
سنى المذهب يظلم الشيعة هناك ، فأمر بإلقاء القبض عليه والفتك به ، ولكن

(١) عالم آراى عباسى ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٢ ، ص : ٣٨ .

(٣) نقلا عن المرجع السابق : ص : ٣٧ وما بعدها .

محمودا اختفى ، فأصدر الشاه أمرا مؤداه : إذا لم يظهر محمود الدباغ في ظرف ثلاثة أيام فسيتم قتل كل أفراد القبائل السنية في المدينة ، ويتم الاستيلاء على أموالهم ونسائهم وأطفالهم ، وأخيرا أُلقي القبض على الدباغ وأُعدم .

وفي عام ١٠٢٠ هـ زار الشاه عباس قبر الشيخ زاهد الجيلاني مرشد جده الشيخ صفي الدين الأردبيلي ، وتصدق بأموال طائلة لكي توزع على خدام القبر وزواره ، بشرط ألا يقدم منها شيء لأى سنى ، كما قام بلعنهم .

وعلى الرغم من هذا العداوة السافر للمذهب السنى وأتباعه ، فإن الشاه عباس كان يتظاهر أحيانا — تبعا لمصالحته الخاصة — بالعطف على السنيين وإكرام وقادة بعضهم ، فقد ذكر البعض بأنه كان يحسن استقبال التجار السنيين الوافدين من بلاد إسلامية أخرى ، وينزلهم لديه منزلا كريما^(١) . ولاشك أن الشاه عباس كان يفعل ذلك مع هؤلاء التجار لحرصه على ازدهار تجارة إيران التي يعود النصيب الأكبر من ربحها عليه شخصيا. وبالتالي كان يتنازل مؤقتا عن عدائه المذهبي ، مقابل ما يأمله من كسب مادي نتيجة التعامل مع هؤلاء التجار السنيين .

ومما لاشك فيه بأن عداوة الشاه عباس للمذهب السنى وُحمانه العثمانيين ، هو الذى دفعه للاتصال بملوك أوروبا المسيحيين ، ومحاولته عقد معاهدات للتعاون المشترك بينه وبينهم من أجل تقويض دعائم الدولة العثمانية السنية المذهب ، حتى ولو قدم لهؤلاء الأوروبيين العديد من التنازلات ، كما سنعرف ذلك أثناء الحديث عن السياسة الخارجية في الفصل الخامس .

. . .

(١) البستاني : دائرة المعارف ، ج ١١ ، ص ٤٨٦ ، طبع مصر : ١٩٠٠ م .

رابعاً : معاملة الشاه عباس للمسيحيين :

وعلى النقيض من معاملته للسنيين ، كانت معاملته للرعايا الإيرانيين
الذين يمتنعون الديانة المسيحية ، وكذلك لرعايا الدول المسيحية الذين يقدون
إلى إيران بفرض السياحة أو حتى التبشير للدين المسيحي في إيران .

سبق أن أشرنا إلى كيفية معاملة الشاه عباس للأرمن المسيحيين بعد
نقلهم من جلفا في آذربيجان إلى جلفا الجديدة بجوار أصفهان ، وهي الضاحية
التي بناها على نمط المدينة المهجورة وحملت نفس الاسم ، حتى لا يشعر الأرمن
بغربة الجو الجديد الذي يعيشون فيه ، كما أمر بقصر الإقامة في هذه الضاحية
على المسيحيين دون سواهم ، وحرّم على المسلمين التواجد الدور فيها ، حتى
لا تثار أى مشاكل مذهبية ، وبعد ذلك بالغ الشاه عباس في التعاطف معهم ،
ومع غيرهم من الطوائف المسيحية القاطنة أرض إيران ؛ كما أحسن وفادة أى
مسيحي أوروبى وفد إلى قصره لأى غرض .

وقد أصبحت جلفا الجديدة مركزاً مسيحياً نشطاً في إيران ، حيث لعبت
دوراً هاماً في الحفاظ على الديانة المسيحية ، وعملت على نشرها ، والتبشير
بتعاليمها . وظل هذا المركز يروج بالحركة الى فترة متأخرة ؛ حيث كان التجار
الأوروبيون وأعضاء البعثات المسيحية ينزلون دو ما في هذه الضاحية^(١) ولعل
ذلك الإعلان عن تعاطفهم مع سكان جلفا وتأبيدهم لهم لكي يظلوا متمسكين
بديانتهم المسيحية وعدم التحول إلى الإسلام .

وكان مسلك الشاه عباس مع سكان جلفا وغيرهم من مسيحي أوروبا
مشجعاً لتجار أوروبا على الوفود إلى إيران أملا في عقد صفقات تجارية معها .

History of Persia, vol II, p. 181.

(١)

وكان الشاه عباس يبذل قصارى جهده لتشجيع هؤلاء الأوربيين على زيارة إيران والتعامل معها ، ولكنى بظمتهم على أنهم لن يجدوا في إيران أى عنق أو مشقة؛ أصدر أوامره فى عام ١٠٠٧ هـ بعدم التعرض لهم ، والساح لهم بحرية التجوال فى أراضى الدولة الصفوية كلها ، وهذا نص الأمر الملكى :

« . . . من اليوم يسمح لمواطنى الدول المسيحية ومن يدينون بدينهم بالحضور إلى أى بقعة من وطننا ولا يسمح لأى شخص بأى حال من الأحوال إهانتهم ، ونظرا لما بيننا وبين الملوك المسيحيين من علاقات ود ومحبة ، فيسمح للتجار المسيحيين بالتجول فى جميع أجزاء إيران ، ومزاولة نشاطهم التجارى فى أى بقعة من الوطن ، دون أن يتعرض لهم بالإيذاء أى شخص سواء أكان حاكما أو أميرا أو خانا أو موظفا أو تابعا لدولتى ، كما تعفى جميع أموال تجارتهم التى يحضرونها معهم من ضرائب المال ، وليس لأى شخص مهما بلغت مكانته أن يزاحمهم أو يكلفهم المشاق ، وليس من حق رجال الدين مهما كانت وظائفهم التجروؤ على الإضرار بهم ، أو التحدث معهم بخصوص العقائد المذهبية . . . (١) »

ولم يكتف الشاه عباس بإصدار هذا الأمر وتنفيذه ، بل كان حريصا على التعاطف مع المسيحيين فى كل مناسبة ، والاشترك معهم فى احتفالاتهم الدينية ففى عام ١٠١٨ هـ أرسل إلى بلاد الكرج فى إحضار عدد من الخنازير ليقدمها هدية لمسيحي جلفا فى عيدهم ، ثم ذهب بعد ذلك لتهنئتهم بالعيد ، وشاركهم احتساء الخمر ، وأمر جميع مرافقيه من رجال البلاط الصفوى باحتساء الخمر مشاركة للمسيحيين فى هذه المناسبة ، على الرغم من توافق ذلك العيد

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٠٣ .

المسيحي مع اليوم الخامس عشر من شهر رمضان ، فاضطر أفراد الحاشية إلى شرب الخمر والإفطار على محرم^(١)!

وقد حاول المسيحيون الإفادة من هذا التعاطف ، وعمقوا صلاتهم بالشاه عباس ، وطلبوا منه السماح لهم بالتبشير بالديانة المسيحية في إيران ، وبناء الكنائس في أصفهان وغيرها من المدن ، فوافق عباس على ذلك ، وأمر ببناء كنيسة في جلفا الجديدة على نفقته الخاصة^(٢) .

ومن مظاهر تعاطفه مع المسيحيين ، حرصه على زيارة الكنائس ولقاء القساوسة ، والتباحث معهم في أمور دينهم ، ومشاهدة مراسيمهم الدينية ، وسماع مواظهم وترانيمهم ، حتى أصبح على دراية كبيرة بتعاليم الدين المسيحي ، مما شجع بعض القساوسة على دعوة الشاه عباس للدخول في الدين المسيحي ، ولكنه اعتذر برفق ودون ثورة ، وقال : لنترك هذا الكلام إلى وقت آخر^(٣) .

وقد أدى هذا التعاطف إلى اتهام البعض للشاه عباس بأنه كان ضعيف الإيمان بالدين الإسلامي ، وبالمذهب الشيعي ، ولكن يدافع الإيرانيون عنه قائلين بأن الشاه عباس كان ياجأ إلى التعاطف مع المسيحيين كضرورة سياسية ، لا عن عقيدة مذهبية^(٤) ، إذ كان حريصا على خطب ود الدول المسيحية لتسانده في حروبه ضد الدولة العثمانية المتزمتة إسلاميا ، والمشاركة في حروب ضد العالم المسيحي في أوروبا .

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٢ ، ص : ٢٦٤ .

(٢) إيران در زمان صفویه ، ص : ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٣ ، ص : ٧٢ .

(٤) عبدالله رازی همدانی : تاریخ ایران از ازمئه باستانی تا سال ١٣١٦ ، طهران ١٣١٧ ش ، ص : ٥٥٧ ، وتاریخ ایران از مغول تا افشاریه ص : ٣٤٠ وزندگانی شاه عباس اول ، ج ٣ ، ص : ٦٧ .

وبدلل الإيرانيون على صحة تدبئه وحسن إسلامه بما فعله مع الكرجيين — وهم مسيحيون — من تفكيك وتخريب لديارهم ، وتحويل كنائسهم إلى مساجد^(١) . كما أن الشاه عباس كان يقرض التجار المسيحيين أموالا ويشترط على من يتعذر في السداد أن يعفيه مقابل اعتناقه الإسلام ، فلولا حرص الشاه عباس على الإسلام لما حول الكنائس إلى مساجد ، ولما حث بعض التجار المسيحيين على اعتناق الإسلام^(٢) .

ولكن هذه المعاملة الخشنة مع المسيحيين كانت استثناء ، والقاعدة أنه كان يحسن معاملتهم ولا يمكن الحكم على الاستثناء وترك القاعدة ، علما بأنه لم يقدم على تحويل كنائس الكرجيين إلى مساجد إلا لأنهم خرجوا عليه وثاروا ضده ، فكان هذا التحويل وسيلة من وسائل العقاب والردع لهؤلاء الثائرين ، وعلى هذا يمكن القول بأن الشاه عباس كان مغاليا في تعاطفه مع المسيحيين ، متهاديا في التقرب منهم ، مشجعا لهم على التحرك في إيران والتبشير للدين المسيحي ، معينا لهم على بناء الكنائس في أصفهان وغيرها من المدن الإيرانية ، وهذا المسلك لم نجد مثيلا له في عصر أي حاكم صفوي سبقه على الإطلاق ، مما يجعلنا نقول بأن عصر الشاه عباس ، إذا قيس بمصور سابقه من ملوك الدولة الصفوية ، كان عصرا ذهبيا بالنسبة للمسيحيين في إيران .

خامسا : مسلك الشاه عباس مع اليهود :

كانت صورة اليهود في العالم كله وبخاصة في أوروبا خلال عصر الشاه

(١) زندكاني شاه عباس أول ج ٣ ، ص : ٨٨ .

(٢) تاريخ روابط إيران وأوروبا در دوره صفويه ، قسمت أول ،

عباس (٩٩٦ - ١٠٣٨ = ١٥٨٨ - ١٦٢٩ م) صورة بغيضة ، إذ دفعت تصرفاتهم المقسمة بالخسة ملوك أوروبا وقساوستها على حرمانهم من ممارسة الزراعة ، وضيقوا عليهم الخناق في مجال التجارة ، فلم يعد لهم من مجال للكسب إلا في تجارة الذهب والمجوهرات ، والقيام بإقراض المعوزين بالربا الفاحش ، وذلك من شأنه أن يخلق أحقاداً وعداوات ، وأن يعطى عن اليهود صورة قبيحة شوهاء كتلك التي أبرزها لنا شكسبير في شخصية (شيلوك) تاجر البندقية ، ونتيجة لهذا المسلك أصبح اليهود معزولين عن الجميع ، وبقطنون أماكن وحارات خاصة بهم عرفت باسم (جيتو) (أى حارة اليهود) ، وبالتدريج أصبح نظام الجيتو يفرض إجبارياً على اليهود ، حيث لا يسمح لهم بالإقامة في غير حاراتهم ، أو التجول ليلاً في غير حيتهم^(١) .

هكذا كان حال اليهود في العالم عامة ، وفي أوروبا بصفة خاصة ، فكيف كان حالهم في إيران خلال عصر الشاه عباس الأول ؟

لم يكن الشاه عباس يحب اليهود ، بل كان على الدوام ينفّر منهم وينظر إليهم بعين السوء ، وكانوا يقيمون في أماكن خاصة بهم سواء في أصفهان أو في سائر المدن الإيرانية ، ولما كانت هذه الجماعة - كما يقول نصر الله فلسفي في كتابه زندكاني شاه عباس أول ، الجزء الثالث - بعيدة عن طريق الأمانة والصدق كطبيعة تكوينهم وكعادتهم الفطرية ، فإنهم كانوا هدفاً لحقد الناس واحتقارهم وملامتهم ، بل وإيذائهم أحياناً . وعندما رغب الشاه عباس في تحويل يهود أصفهان إلى الدين الإسلامي ، أمر بأن يصرف لكل

(١) دكتور حسن ظاظا : اسرائيل كفضيلة خاصة من فصائل المعسكر الاستعماري ، القسم الأول من كتاب : الصهيونية العالمية واسرائيل ، القاهرة

يهودى يعتنق الإسلام أربعة تومانات ، فأخذ جمع كبير من اليهود النقود ، وتظاهروا بقبول الإسلام ، ولكن عندما أدرك الشاه بعد فترة وجيزة أن دخولهم الإسلام كان خشية منه ، لأعن إيمان قلبى ، تركهم أحرارا فى دينهم^(١) .

وكان تعداد اليهود أيام الشاه عباس قليلا ، ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا خلفا لساير الأقليات الأخرى ، دائمى الانقسام فيما بينهم ، مما جعلهم يتحملون الكثير من الكوارث التى ألحقوها بأنفسهم . فقد ورد فى إحدى التذاكر الأوربية (رحلات بيتر ودلاواله ، الجزء الخامس ، صفحة ١٥ ، ١٦)^(٢) :

فى الواحد والعشرين من شهر نوفمبر ١٦١٩م (الثالث عشر فى ذى الحجة عام ١٠٢٧) وقع فى أصفهان خلاف بين اليهود ، وتشا كوا إلى الشاه ، وأخذ كل منهم يتهم الآخر ، ووسط ذلك اتهم بعضهم ثلاثة أو أربعة من زعمائهم الدينيين بالسحر وارتكاب جنایات كبرى ، وبعد أن جرت المحاكمة صدرت الأوامر بقتلهم ، وذلك بتركهم للكلاب المتوحشة التى أعدت خصيصا لقتل المذنبين والمحكوم عليهم بالإعدام ، وقبل تنفيذ الحكم خيرهم الشاه عباس بين اعتناق الإسلام أو الإعدام ، فاختر ثلاثة منهم الدين الإسلامى ورفضه واحد اسمه (عبا) ، فنفذ فيه حكم الإعدام ، حيث هجمت عليه الكلاب المتوحشة ، وقطعت جسده إربا إربا .

وهكذا كان مسلك الشاه عباس مع اليهود شبيها بمسلك حكام أوروبا معهم ، حيث كانت خستهم دافعا على النفور منهم ، والضيق من تصرفاتهم

* * *

(١) زندكاني شاه عباس أول ، ج ٣ ، ص : ٩٧ .

(٢) نقلا عن المرجع السابق ، ص : ٩٨ .

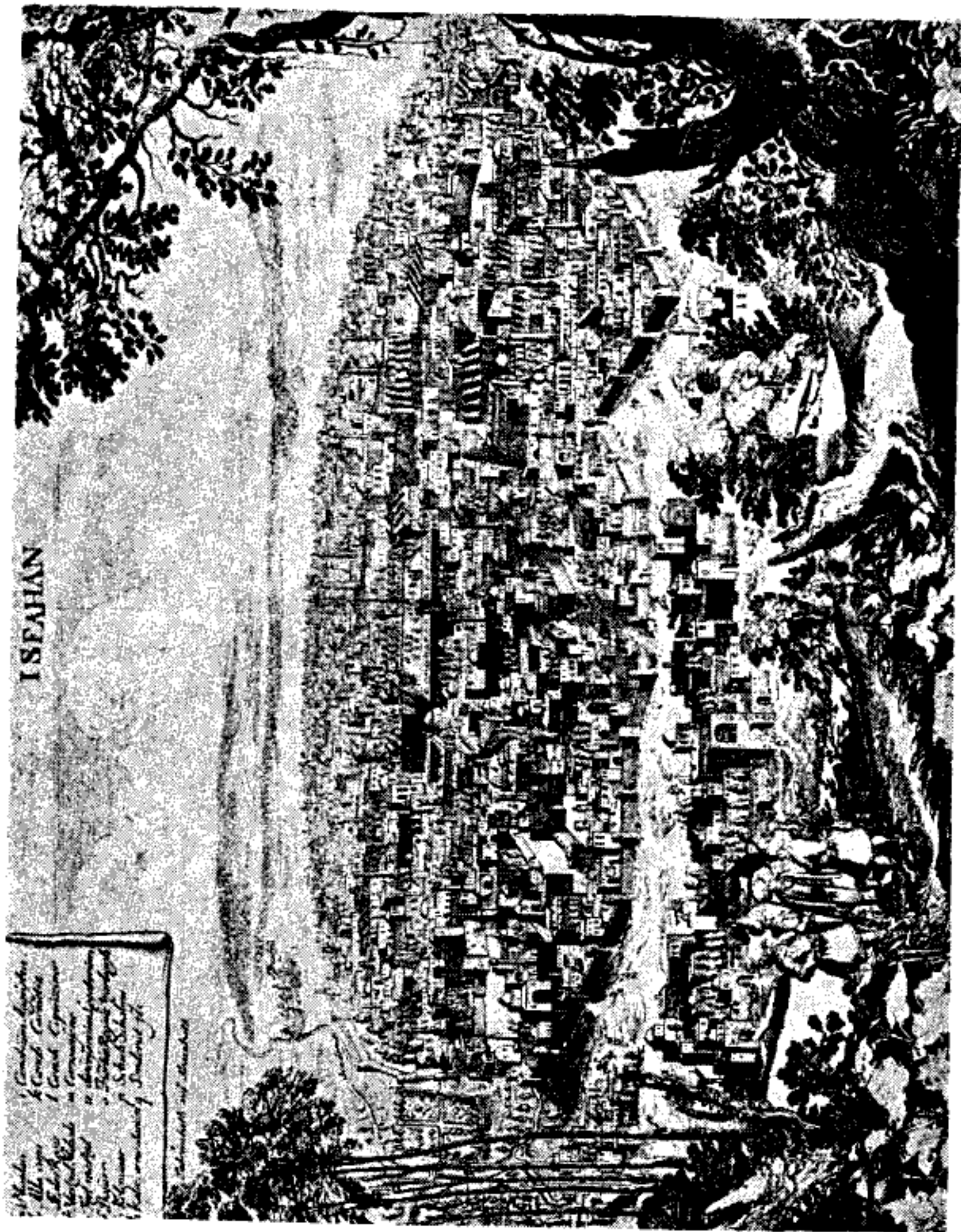
بعد أن استعرضنا سياسة الشاه عباس المذهبية يمكن القول بأنه كان في النواحي المذهبية خاضعا للظروف السياسية ، فهو شيعى متعصب ليجمع كلمة الشيعة وهم الغالبية العظمى من سكان إيران ، وليكون جديرا بمنصب الشيخ الكامل والحاكم الشرعى للدولة الصفوية التى قامت على أساس الحفاظ على المذهب الشيعى ونشره ، وهو معاد للمذهب السنى نتيجة للعداء السافر بين الصفويين والعثمانيين من جانب ، والصفويين والأوزبك من جانب آخر ، وكلا هذين العدوين من معتنقى المذهب السنى . وهو عطوف مع المسيحيين لحاجته السياسية إلى تأييد ومساندة الدول الأوربية المسيحية له فى صراعه مع الدولة العثمانية ، أما نفوره من اليهود ، فكان هذا سمة العصر ، إذ كانوا يستحقون هذا النفور والازدراء فى كل مكان وجدوا فيه .

وهكذا نجد الناحية المذهبية أيام حكم الشاه عباس الأول خاضعة للناحية السياسية ، بعد أن كانت الناحية المذهبية متحركة فى كل الأمور السياسية خلال عصور كل من سبقوه من ملوك الدولة الصفوية ا

• * •

الفصل الثالث

أصفهان في عهد الشاه عباس



ISFAHAN

Handwritten text in Arabic script, likely a list of landmarks or a descriptive note related to the city of Isfahan.

- منظر عام لدينة اصفهان في عصر الدولة الصفوية -

الفصل الثالث

أصفهان في عهد الشاه عباس الأول

بعد أن استقر حكم الشاه عباس وتخلص من نفوذ القزلباش وحكام الأقاليم وقضى على الفتن الداخلية ، بدأ يهتم بحركة التعمير والتشييد وشهدت مناطق كثيرة من إيران آثار الاهتمام الذي شمل العمارة الدينية كالمساجد والأضرحة وإدخال التحسينات على المزارات القديمة ، فقد عمر مرقد وقبة الإمام الرضا في مشهد وذلك في عام ١٠١٠هـ^(١) وأوصل مياه نهر الفرات إلى مسجد الكوفة ، وعمر قبر علي بن أبي طالب في النجف ، وذلك بعد أن فتح بغداد عام ١٠٣٢ هـ ، وغير ذلك من المزارات والمساجد التي شيدت باسمه في جميع مدن إيران المختلفة .

وشمل اهتمامه كذلك العمارة المدنية ، حيث شيد العديد من القصور والمباني ، وأنشأ الحدائق العامة وخطط الميادين الفسيحة ، ووصل اهتمامه إلى درجة إنشاء مناطق سكنية جديدة تحولت بعد ذلك إلى مدن مستقلة كمدينة نجف أشرف التي كانت بمثابة مصيف له ثم أخذت تتسع بالتدريج إلى درجة أن أصبحت مدينة كاملة الآن ، ومن المناطق التي شيدها كذلك ، منطقة جلفا الجديدة بجوار أصفهان .

واهتم الشاه عباس بتعمير الطرق وإصلاحها وتزويدها بالنزل والرباطات

(١) لغت نامه ، شماره ٧٦ ، ص ٤١ .

حتى تزدهر التجارة ويعم الأمن ، ومن إصلاحاته كذلك إنشاء عدد من مصانع الأسلحة النارية في أصفهان وغيرها من المدن الإيرانية (١) . . .

وهكذا شملت حركة التشييد والتعمير في عصر الشاه عباس أماكن عديدة من إيران ، حتى قال جوستاف لوبون : إن معظم العمارات والمباني الأثرية الهامة في إيران قد شيدت في زمان سلطنة الشاه عباس الأول . (٢) ولكن القسط الأكبر من الآثار التي خلفها الشاه عباس — وما زال بعضه شاهداً على عظمته ، ومدى اهتمامه بال عمران والبناء — موجود بعاصمته أصفهان ؛ ولكن قبل الحديث عن هذه الآثار يجب أن نعرف لماذا اتخذ الشاه عباس أصفهان عاصمة له ، وتخلي عن العاصمة التي تم تنويعها بها ، وهي قزوین .

كانت تبريز أول عاصمة للدولة الصفوية منذ عهد الشاه اسماعيل الأول ، ولكن قرب هذه العاصمة من الدولة العثمانية ، جعل في مقدور حكامها الاستيلاء عليها أكثر من مرة وهروب الشاه اسماعيل منها ، لذا وجدنا الشاه طهما سب ينقل عاصمته إلى قزوین حتى تكون بعيدة بعض الشيء عن متناول الجيوش العثمانية ، وظلت قزوین عاصمة للصفويين خلال حكم طهما سب الأول والشاه اسماعيل الثاني والسلطان محمد خدابنده ، والسنوات العشر الأولى من حكم الشاه عباس الأول (أي من عام ٩٩٦ — ١٠٠٦ هـ) .

وفي عام ١٠٠٦ هـ (١٥٩٨ م) شعر الشاه عباس بأن منطقة قزوین تضيق به وبأفراد حاشيته الكثيرين ، وبجيوشه الكثيفة العدد ، وحيث تقل المياه في تلك المنطقة مما جعل فرصة الزراعة بها قليلة ، ومحاصيلها لا تنفي باحتياجات

(١) راجع سجل أعماله في المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

سكانها^(١) ، وأخذ يبحث عن مكان آخر يكون أكثر صلاحية من قزوین فوق اختياره على مدينة أصفهان ، وذلك لأنها تقع على نهر زاینده رود ، مما يجعل فرصة الاستزراع فيها أوسع وأرحب ، وبذلك تتوفر المحاصيل اللازمة لإعاشة الأعداد الكبيرة من الجنود ورجال الحاشية ، كما أن مدينة أصفهان تقع في داخل البلاد ، وبذلك تكون أكثر أمنا من أي هجمة عثمانية شرسة^(٢) فقد كان الشاه عباس يستعد للدخول في صراع مرير لطرد القوات العثمانية المحتلة لأذربايجان كلها ولأجزاء كبيرة من العراق العجمي ، ولهذا آثر أن ينقل العاصمة إلى الداخل حتى لا تكون مهددة بالاحتلال كما كان الحال بالنسبة لتبريز إبان حكم الشاه اسماعيل الأول .

وأخيرا تم نقل العاصمة إلى أصفهان عام ١٠٠٦ هـ ، وحرص الشاه عباس على تزيينها وتشيد العديد من المباني الفخمة فيها ، وكذلك إنشاء الميادين والحدائق العامة بها ، وقد بذل في هذا المضمار جهدا كبيرا ، وضح في الآثار العديدة التي خلفها ، ووضع كذلك في كتابات معاصريه ، وفيما سجله المستشرقون في كتب رحلاتهم ، ونتيجة لما بلغته أصفهان من رقي وتقدم لم تبلغه في أي عصر من عصورها السابقة ، راج تعبير مشهور وهو (اصفهان نصف جهان) أي (أصفهان نصف العالم) وهذا التعبير لم يكن ليروج إلا إذا كانت أصفهان غاية في الجمال والأبهة والعظمة ، وتفوق جميع مدن إيران فيما حظيت به من آثار آية في الإبداع والجمال وحتى أن الزائر لها كان يشعر بلحسات الذوق الرفيع والفن العالي المنزلة في كل مكان بها ، حيث أصبحت المدينة معرضا للفن ، ونتيجة لشدة اهتمام الشاه عباس بأصفهان ، والعناية بجمالها وزينتها ، فقد أصبحت عاصمة تعج

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ٨٥ ، ص : ٣٠٤ .

(٢) انقراض سلسلة صفويه ، ص : ٥٣٧ .

بالسكان وبالسائحين ، حتى ذكر البعض بأن تعداد سكانها في عهد الشاه عباس بلغ حوالي ستمائة ألف نسمة^(١) .

وكثير من الآثار التي شيذب في عصر الشاه عباس قائمة حتى اليوم ، ناطقة بالجمال وتجدد من يقبل على زيارتها والتمتع بجمالها الفني ولكن بعض هذه الآثار قد امتدت إليها يد التخريب أيام حكم الدولة القاجارية ، فجميع الآثار والأبنية التي كانت موجودة على الشاطئ الأيمن من نهر زابنده رود ، والتي أفاض السياح الأجانب في وصفها لم يعد لها وجود الآن ، كما أن بعض الأبنية التي كانت موجودة بداخل إيران قد امتدت لها يد العبث والتخريب ، فأقدم البعض على محو نقوشها ، أو نزع نوافذها وأبوابها^(٢) ...

وأهم الآثار التي خلفها الشاه عباس في أصفهان تلك التي شيدها حول ميدان نقش جهان ، وفي أماكن أخرى من المدينة ، ولنبدأ بالحديث عن الميدان وما بنى حوله ، ثم نتبع ذلك بأهم المباني الأخرى التي خلفها عباس ، وأضفت على أصفهان جمالا مازال أثره باقيا حتى اليوم .

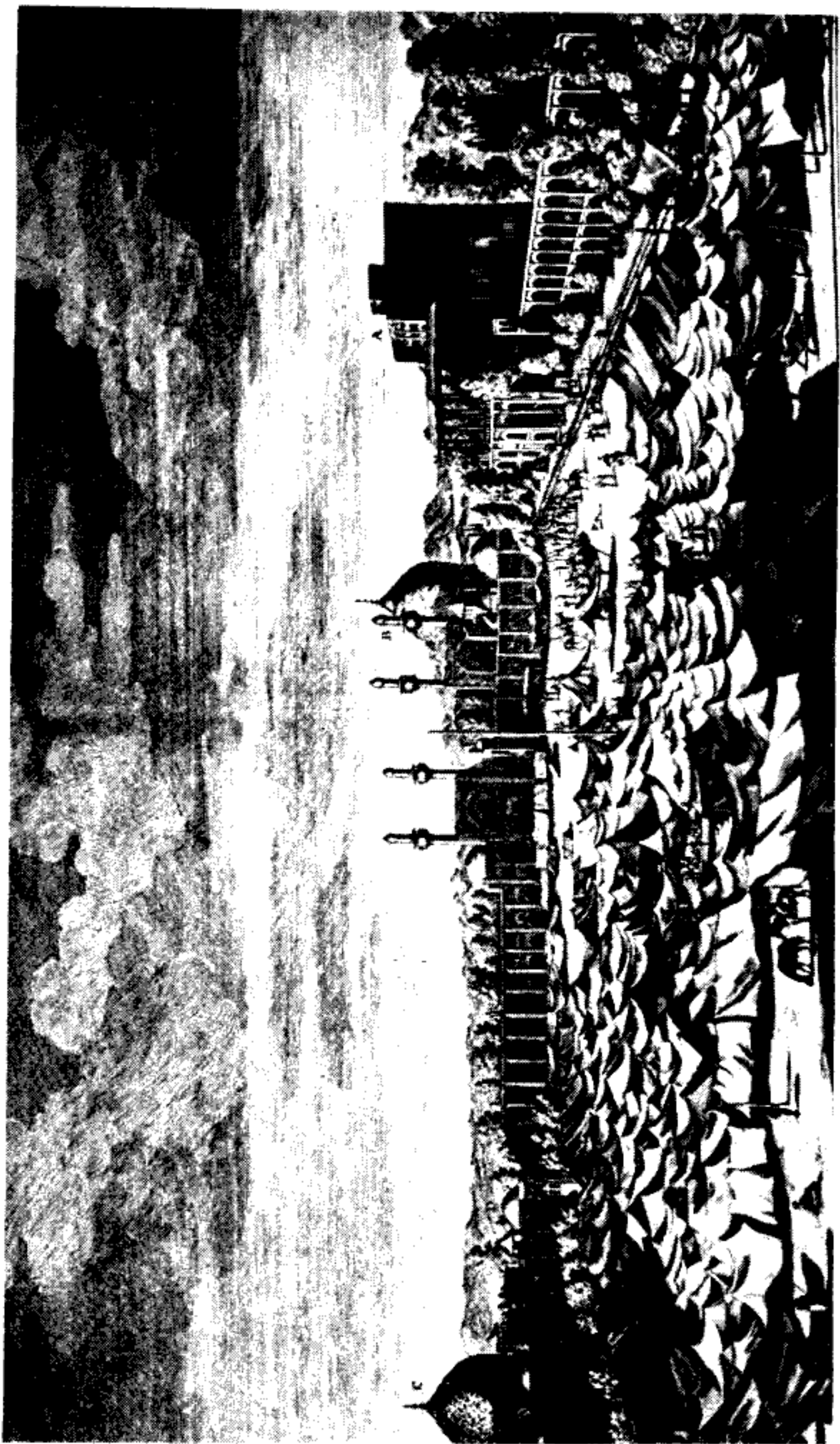
١ - ميدان نقش جهان : (ميدان الشاه)

يقع ميدان نقش جهان - الذي وصفه شاردن الفرنسي بأنه أجمل ميدان في العالم في ذلك الوقت -^(٣) وسط مدينة أصفهان تقريبا ، وقد اختلف الرواة

(١) مسعود كيهان : جغرافياى مفصل إيران ، ص ٢٠٤ ، ص ٣١٤ ، تهران ١٣١١ ش .

(٢) عباس اقبال (مقالة) اصفهان وآثار تاريخي آن : مجلة يادگار ، سال دوم . شماره٢٣٣ . اردیبهشت ١٣٢٥ ش ، ص : ٢٠ .

(٣) أبو القاسم رفيعي مهر آبادي : آثار ملي اصفهان ، تهران ١٣٥٣ ش ،



ميدان نقش جهان اصفهان

— ١ — عمارة عالي قابو ب — مسجد الشاه — ج — مسجد الشيخ لطف الله

حول من بناءه ، فقد ذكر البعض بأنه كان موجودا قبل الصفويين ، في حين أن المشهور عن هذا الميدان أنه بديء في بنائه عام ١٠١١ هـ في زمان الشاه عباس الأول^(١) ، أي أن العمل في بنائه بدأ في نفس الوقت الذي بدأ فيه بناء كل من عمارة عالي قابو ومسجد الشيخ لطف الله تقريبا وهما من بناء الشاه عباس ، كما أن الشاه عباس أدخل عليه تحسينات كثيرة بعد أن انتهى من بناء هذين المبنيين ومن بناء مسجد الشاه ، إذ أمر بأن تبنى على أطرافه كذلك مجموعة من المباني ذات الطابقيين ، على أن تكون متشابهة في الفن المعماري والنقوش^(٢).

وقد اتخذ هذا الميدان منذ بنائه شكلا مستطيلا ، فطوله — كما ذكر المستشرق هيربرت — ٥٦٠ ياردة ، في حين بلغ عرضه ١٧٤ ياردة^(٣) . وكانت هذه المساحة الكبيرة معدة لإقامة مسابقات الصولجان وركوب الخيل والرمي بالسهم ، وأحيانا حرب الديكة وبعض الحيوانات الأخرى^(٤) . وكان الشاه عباس يشاهد هذه المسابقات وهو جالس في الشرفة الرئيسية بعمارة عالي قابو ، كما يشترك أحيانا في مسابقات الصولجان التي تقام في هذه الميدان .

وبعد فترة من الزمن تغير اسم هذا الميدان من نقش جهان إلى (ميدان الشاه) إشارة إلى الشاه عباس ، وظل هذا الاسم الأخير متداولاً حتى اليوم ، وفي العصر الحديث أدخل الشاه رضا بهلوي عليه الكثير من التحسينات حيث بنى وسطه حوضاً وأوصل إليه الماء . كما أضفت عليه الحكومة الإيرانية

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص ٢٦٦ .

(٣) History of Persia vol. II p. 198

(٤) إيران در زمان صفويه ، ص ٢٦٦ .

تعديلات أخرى كثيرة في السنوات الأخيرة ، حتى أصبح يبدو في صورة
عصرية جميلة أخاذة .

٢ - عالى قابو :

وبعد أن نقل الشاه عباس عاصمته من قزوین إلى أصفهان ، أقام فى قصر
قديم هناك ، ولسكنه بعد فترة صمم على أن يكمل بناء عمارة صغيرة مطلة على
ميدان نقش جهان فى الجهة الغربية ، وكانت قد بقيت عن التيموريين ^(١) -
وإن ذكر البعض بأنها بقيت عن السلاجقة ^(٢) - وأن يبني مجموعة من الأبنية
الجديدة فى الجهة المقابلة لها ، ويتخذ العمارة مقرا لحكمة . وقد أطلق على المبنى
الجديد اسم « عالى قابو » أى « الباب العالى » ولعله أراد بذلك مضاهاة الباب
العالى فى الآستانة ، ولذلك نراه يبالغ فى تزيينه وتعظيمه .

وذكر جابر الأنصارى فى تاريخ أصفهان والرى ، أن من أسباب شهرة
عالى قابو أن عقبته أحضرت من النجف ، وقد أدى هذا إلى التقاف الناس
حول هذا القصر وتقديس عقبته ، لدرجة أن الشاه عباس نفسه كان يترجل عن
فرسه عندما يقرب من هذه العتبة ، ثم يدخل إلى القصر سيرا على
الأقدام ^(٣) .

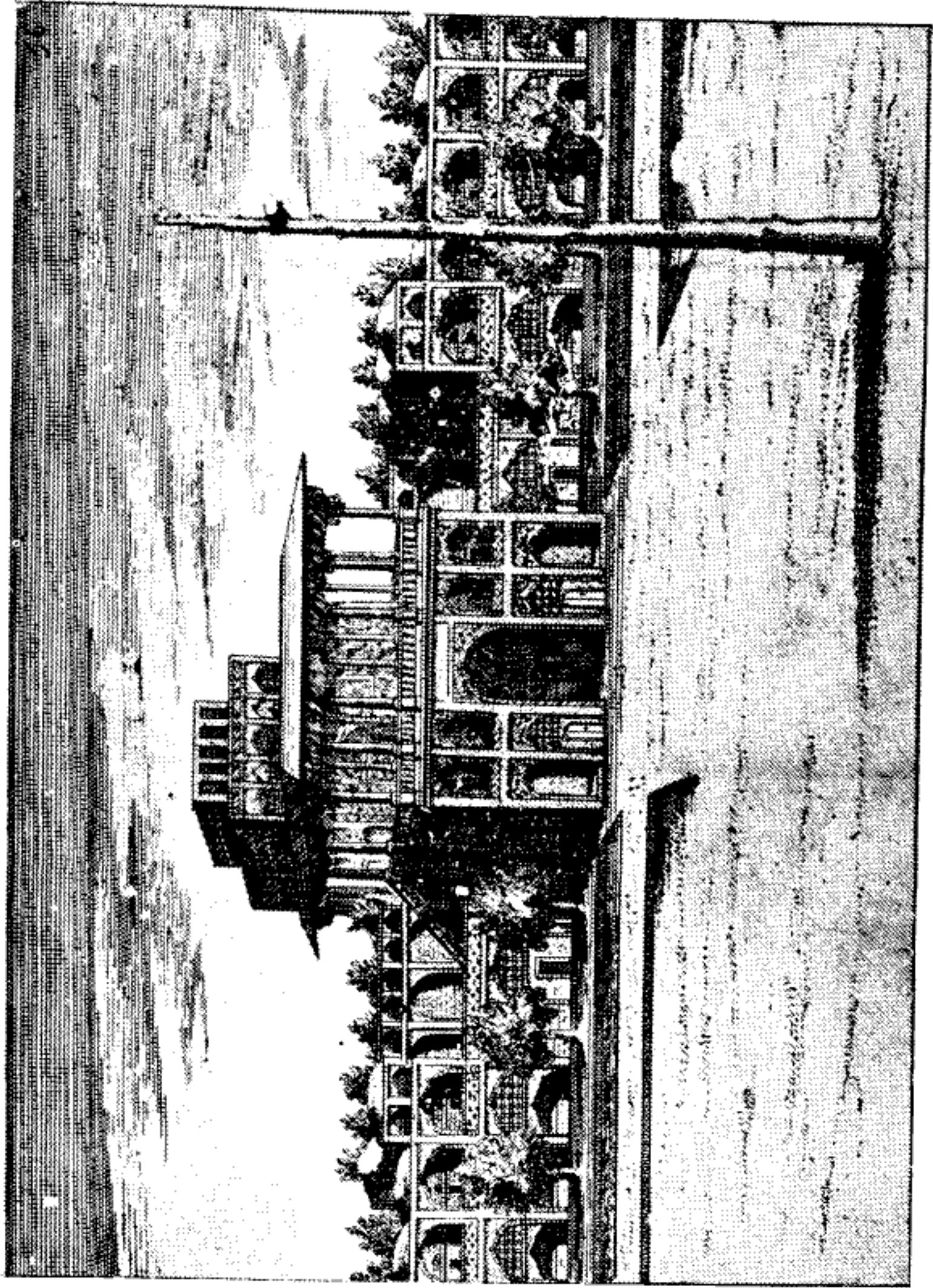
وهذا القصر يشتمل على ثلاثة طوابق رئيسية ، كل طابق منها ينقسم إلى
طابقين أى أنه فى الحقيقة يشتمل على ستة طوابق ، ويبلغ ارتفاع الطوابق
كلها ثمانية وأربعين مترا ، فى حين يبلغ إرتفاع المدخل الرئيسى ثمانية وعشرين

(١) إيران در زمان صفويه ، ص ٢٦٠ .

(٢) آثار ملي اصفهان ، ص : ٣٦٢ ش .

(٣) نقلا عن : المرجع السابق ، ص : ٢٦٢ ، ٢٦٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص : ٣٦٣ .



عمارة عالي قابو (في زمن الشاه عباس نقلا عن سفرنامه شاردن)

متراً ، أما عن الطوابق العليا فكانت مخصصة لأعمال الشاه الخصوصية ، حيث كان يقضى معظم أيامه بهذا القصر ، حيث يواصل منه تسوير دفعة الأمور ، بل كان يتناول فيه معظم طعامه ، وكان كل طابق يضم قاعة رئيسية وعدة حجرات صغيرة ودهاليز مختلفة ، وكانت جدران الحجرات مذهبها بأكملها ، ومزدانة بألوان غاية في الجمال ، كما كان السقف مذهباً كذلك (١) .

وفي واجهة هذا القصر توجد القاعة الكبرى وهي تقوم على أعمدة خشبية ، حيث بنيت على طراز الأبنية الصفوية . وفي القاعة الكبرى كان الشاه عباس يحتفل بعيد النيروز ، ويقابل السفراء الأجانب ، ويستعرض الجيش ، كما كان يشاهد ما يدور بالميدان من مسابقات الصولجان وسباق الخيل وعراك الحيوانات المفترسة (٢) .

وعلى الرغم من أهمية هذه العمارة ، وما كانت تتمتع به من جمال ، فإنه بعد انقضاء عصر الدولة الصفوية أهمل المبنى كغيره من الآثار التي خلفها الصفويون ، وخلال العصر القاجاري أقام بهذه العمارة نائب السلطنة في أصفهان فأزال الرسوم التي نقشت على جدرانها حيث أتم طلاءها بالمصيص (٣) .

٣ — مسجد الشيخ لطف الله (٤) :

يقع هذا المسجد في الضلع الشرقي من ميدان نقش جهان ، أي في الجهة

(١) إيران در زمان صفويه ص : ٢٦١ .

(٢) History of Persia Vol. p 199

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .

(٤) الشيخ لطف الله بن عبد الكريم بن إبراهيم في الأصل من سكان ميس إحدى قرى جبل عامل في لبنان ، وأسرت من فقهاء الإمامية ، ونظراً لاهتمام ملوك =

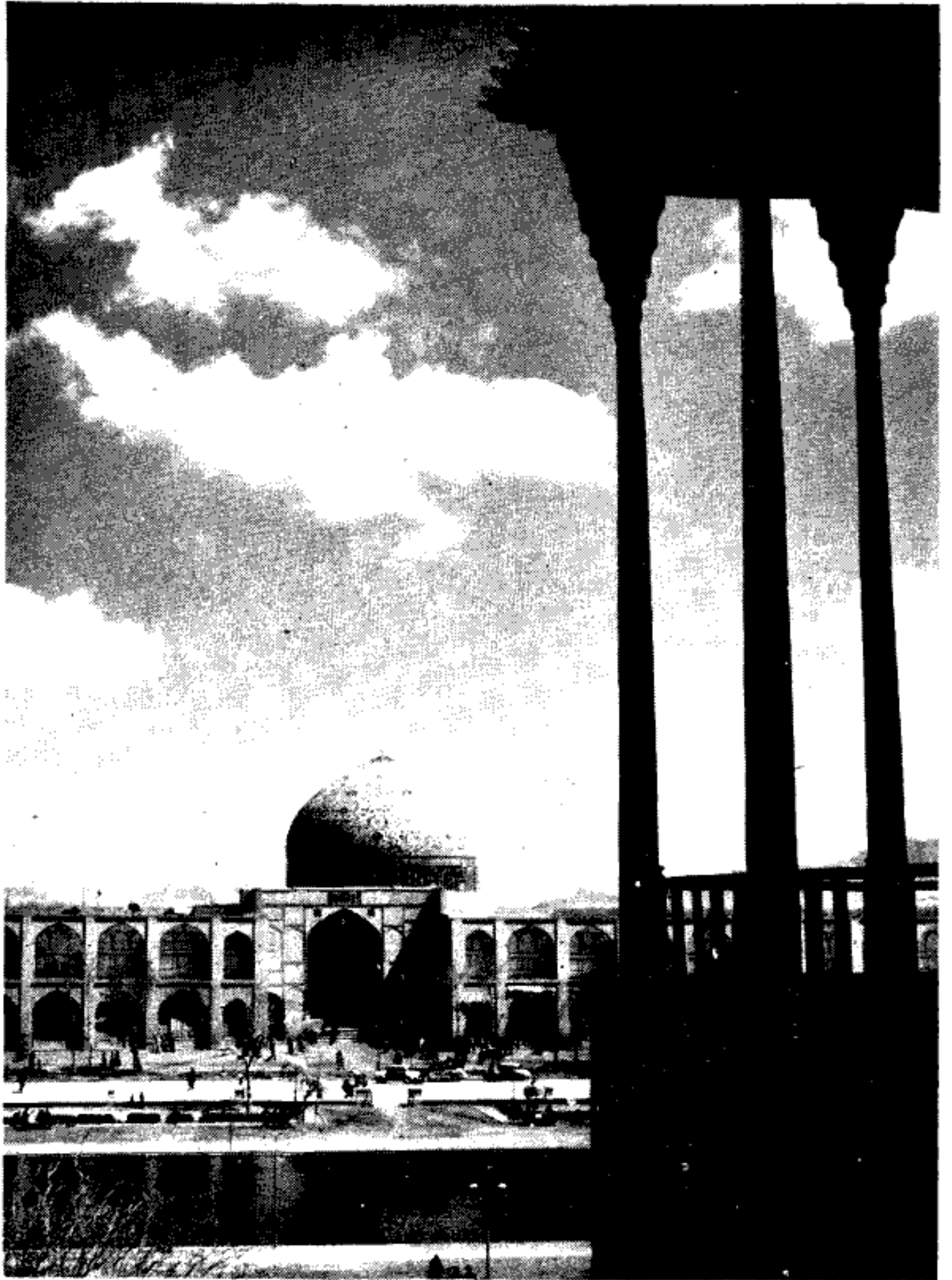
المقابلة لعمارة المسجد والمدرسة الملحقة به ليكونا مقرا لإقامة وإمامة الشيخ لطف الله العاملي ، حيث أمر الشاه عباس أن تقام في أصفهان مدرستان مطلتان على ميدان نقش جهان ، تكون إحداهما لإقامة وتدريس ملاعبده الله الشوشتری ، والأخرى لإقامته وتدريس الشيخ لطف الله ، ومازالت مدرسة ملاقائمة حتى اليوم بجوار سوق القيصريّة في الضلع الشمالي ، من ميدان نقش جهان ، أما مدرسة الشيخ لطف الله والتي كانت ملحقة بالمسجد نفسه فقد تهدمت (١) .

== الدولة الصفوية بترويع المذهب الشيعي فإن هذا الشيخ وآخرين كثيرين من مشايخ و علماء البحرين وجبل عامل رحلوا إلى إيران ، وأقام هو في مدينة مشهد وهناك درس على مشايخها المشهورين ، وبعد ذلك عينه الشاه عباس ليكون في خدمة مزار الإمام الرضا . فأقام في مشهد حتى تعرضت لهجوم الأوزبك وخوفا من بطشهم لجأ إلى قزوین ، واشتغل هناك بالتدريس ، فأحضره الشاه من قزوین إلى أصفهان ، وأمر في عام ١٠١١ هـ بإقامة مدرسة ومسجد يحملان اسمه لكي يتولى التدريس والإمامة والإقامة بهما . وكان الشيخ لطف الله له فتاويه الشرعية وعقائده الخاصة به ، وعلى سبيل المثال كان يعد صلاة الجمعة في غياب الإمام واجبة ، وهو شخصيا يؤدي الجمعة في مسجده ، وتأليفات الشيخ لطف الله تنحصر في الحواشي والتعليقات التي كان يكتبها على كتب الفقه الخاصة بسابقه ، وعلى الرسائل التي كان يكتبها رداعلى الفتاوى الدينية التي يقدمها له معاصروه ، كما كان ذا مهارة فائقة في قرص الشعر باللغتين العربية والفارسية ، وقالوا إن الأشعار التي كتبت على الجهتين الشمالية والجنوبية من المسجد كانت من أشعاره ، وتاريخ وفاته ، كما ذكره مؤلف مجمل التواريخ ، هو عام ١٠٣٢ هـ . أي في نفس العام الذي فتح عباس بغداد ، وإن ذكر مؤلف عالم آرائي عباسي بأنه توفي في أوائل هذا العام وقبل فتح بغداد الذي تم في الثالث والعشرين من ربيع الأول عام ١٠٣٢ هـ .

انظر مجله "يادگار" ، سال اول شماره اول ، ص ٥٢ - ٥٩ .

وآثار ملي أصفهان ، ص : ٧٠٢ .

(١) مجله "يادگار" ، ص ٥٥ .



مسجد الشيخ لطف الله



وقد اختلف في تاريخ البدء في بنائه ، إذ ذكر بعض المؤرخين أن البناء بدأ عام ١٠١١ هـ ، في حين ذكر البعض الآخر بأن ذلك كان في عام ١٠١٢ هـ وقد استند أصحاب الرأي الأخير على الأمر الملكي بينائه والذي نقش على الباب الرئيسي للمسجد ، وهذا الأمر فيما يلي نصه :

« أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك السلطان الأعظم والخاقان الأكرم محيي مراسم آباءه الطاهرين ، مروج مذهب الأئمة المعصومين ، أبو المظفر عباس الحسيني الموسوي الصفوي بهادرخان ، خلد الله تعالى ملكه ، وأجرى في بحار التأييد فلكه ، بمحمد وآله الطيبين الطاهرين المعصومين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، كتبها عليرضا العباسي ١٠١٢ هـ ^(١) .

والملاحظ أن عليرضا العباسي الخطاط قد ذكر في نهاية الأمر الملكي أنه خطه عام ١٠١٢ هـ ولـكنني أرجح عام ١٠١١ هـ كعام البدء في بناء هذا المسجد ، إذ من المرجح أن الأمر الملكي صدر أولاً ، ثم بدأت المراحل الأولى للبناء عام ١٠١١ هـ ، ثم مرت فترة زمنية حتى استطاع البناءون إعداد

١ — آثار ملي اصفهان ، ص : ٧٠٣ ، وكاتب هذا الأمر الملكي كما ورد في نهاية النص ؛ هو عليرضا العباسي أشهر الخطاطين والرسامين في عصر عباس ، وكان يقيم أولاً في تبريز ، أحرز هناك شهرة فائقة في الرسم وحسن الخط ، بما أدى إلى أن استدعاه الشاه عباس وقرن اسمه باسمه فأصبح يعرف باسم علي رضا عباسي ، بعد أن كان يعرف باسم علي رضا تبريزي وأسند إليه ديوان الكتابة ، فأعد بأمر الشاه عباس كتاباً يضم مجموعة من خطوط كبار الخطاطين وصور أشهر المصورين والنقاشين ، وأطلق عليه اسم (كتاب الخرقه) كما أن جميع اللوحات الخطية التي كتبت في مسجد الشيخ لطف الله ، وعمارة عالي قاپو ، وسوق اصفهان ، ومسجد الشاه باصفهان ، وكذلك المدخل الرئيسي لعالي قاپو في قزوین ، كانت كلها بخط عليرضا العباسي . [انظر : ايران در زمان صفويه ، ص : ٢٨١] .

المدخل الرئيسي والبوابة الكبيرة ، وبعد ذلك خط الخطاط الأمر الملكي في عام ١٠١٢ هـ كما هو مدون حتى اليوم . وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا في عام البداية ، فقد اتفقوا جميعا في أن البناء انتهى عام ١٠٢٨ هـ ^(١) .

وهذا المسجد قليل النظير في الدنيا بأسرها نظرا لما فيه من (قيشاني) يغطي القبة من الداخل والخارج ، وقد سطرت عليه الكثير من الآيات القرآنية والعبارات المختلفة بطريقة تقسم بعلو منزلتها ، وجمال إخراجها ، حتى يمكن القول بأن القيشاني الذي يزين القبة ، أجمل قيشاني تخلف عن العصر الصفوي كله ^(٢) ، وقد قال شادروان في وصفه لهذه القبة : « إنها من الأعمال المعمارية التي يندر وجود مثيل لها في آسيا كلها ^(٣) .

وهذا المسجد مازال قائما حتى اليوم ، وقد أعيد تجديده وترميمه في عام ١٣٠٧ هـ أي في زمان رضا شاه بهلوي ^(٤) .

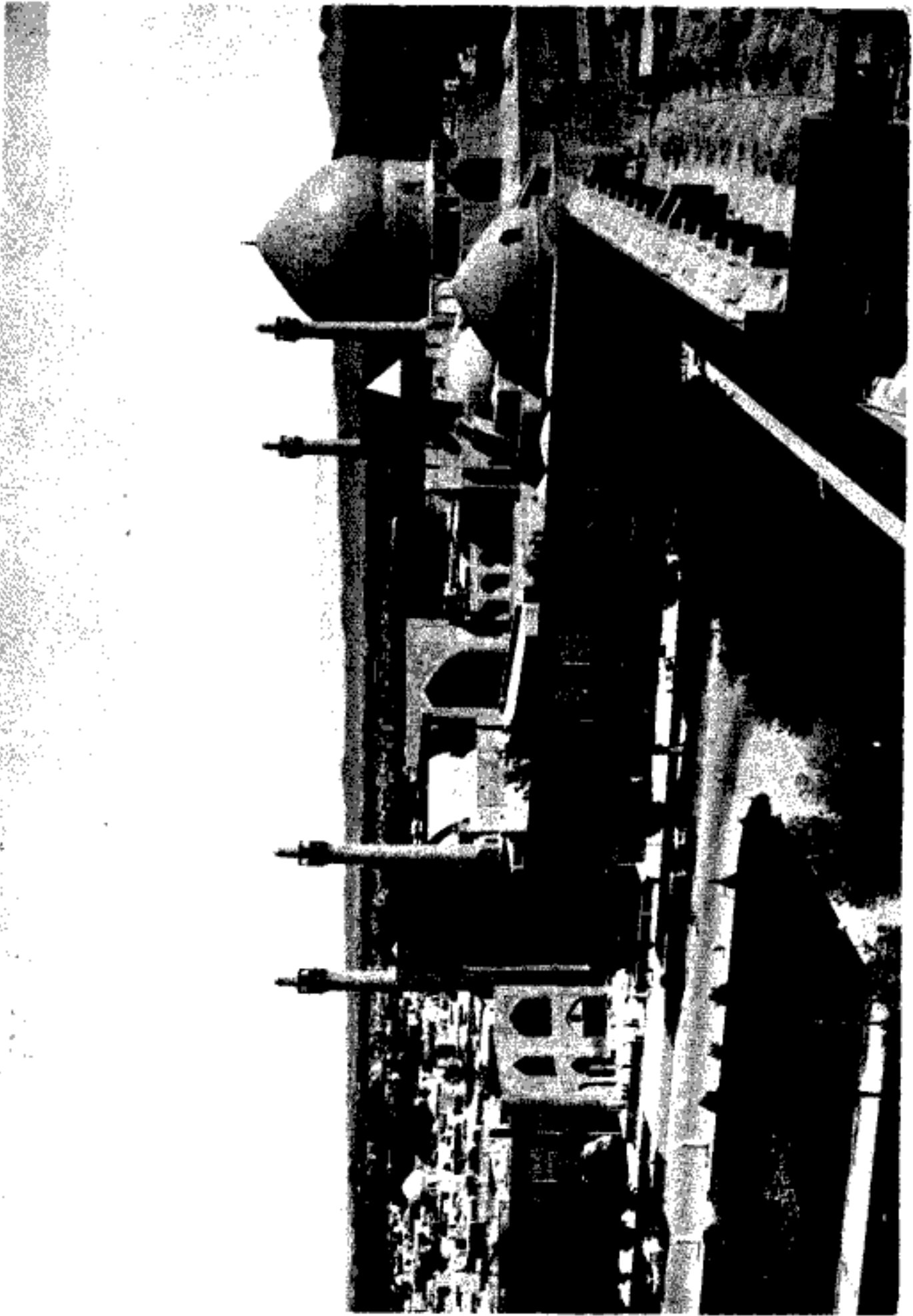
* * *

٤ - مسجد الشاه :

يقع هذا المسجد في الضلع الجنوبي من ميدان نقش جهان ، أي أنه يتوسط عمارة عالي قابو ، ومسجد الشيخ لطف الله .

وقد اتفق الجميع على أن بناء هذا المسجد تم بعد الانتهاء من بناء مسجد الشيخ لطف الله ، ولكن متى بدأ البناء ؟ ومتى انتهى ؟

-
- (١) المرجع السابق ، ص ٦٩٤ ، يادگار ، سال أول ، شعارة أول ص : ٥٢ ، وايران در زمان صفويه ، ص : ٢٦٧ ، وغيرها .
(٢) ايران در زمان صفويه ص : ٢٦٦ .
(٣) آثار ملي اصفهان ص ٦٩٤ .
(٤) المرجع السابق ، ص : ٧٠٣ .



مسجد الشاه

اختلف المؤرخون في تاريخ تحديد البدء في البناء ، فقال بعضهم بأن ذلك كان عام ١٠٢٠ هـ^(١) في حين ذكر آخرون أن البناء بدأ قبل وفاة الشاه عباس بسبعة عشر عاما^(٢) ، ولما كان موت الشاه عباس في عام ١٠٣٨ هـ (١٦٢٩ م) فعنى ذلك أن تاريخ البدء في بنائه كان عام ١٠٢١ هـ ، ويمكن التوفيق بين الرأيين ، بأن الأمر الصادر ببناء المسجد كان عام ١٠٢٠ هـ وانقضى هذا العام في هدم النزل الذي كان يشغل المكان قبل بناء المسجد ، وبعد ذلك بدأ العمل في بنائه عام ١٠٢١ هـ .

وعلى المدخل الرئيسي للمسجد خط أمران ملكيان ، يستفاد منهما بأن الشاه عباس هو الذي أمر ببناء هذا المسجد ، وقد جاء أحد الأمرين مذيلا بتاريخ كتابته ، أما الأمر الآخر فقد خلا من أى تاريخ ، وهذا هو الأمر المذيل بالتاريخ :

« أمر ببناء هذا المسجد الجامع من خالص ماله أشرف خواقين الأرض نسا ، وأكرمهم حسبا ، وأعظمهم رفعة ونشأنا ، وأقوام حجة وبرهاننا ، وأشملهم عدلا وإحسانا ، تراب العتبة المقدسة النبوية ، وقامة الساحة المطهرة العلوية أبو المظفر عباس الحسيني الموسوي الصفوي بهادرخان ، لازالت رقاب أعظم الخواقين خاضعة على بابه ، وجباه أفاخم السلاطين معفرة بتراب أعتابه وقد أهدى ثوابه إلى روح جده الأعظم الأكرم الأفخم شاه طهماسب سقى الله ضريحه صوب الرضوان وأسكنه غرف الجنان . كتبه عليرضا العباسي في سنة ١٠٣٥ هـ^(٣) .

(١) عالم آراى عباسى ، ج ٢ ، ص : ٨٣١ :

(٢) آثار على اصفهان ، ص ٦٥٩ ، نقلًا عن كتاب (نصف جهان في تعريف

الاصفهان) .

(٣) المرجع السابق ، ص : ٦٦٥ .

ووجود هذا التاريخ جعل البعض يفكرون بأن عام ١٠٢٥ هـ كان عام الانتهاء من بناء هذا المسجد الذي يعرف كذلك - كما جاء في الأمر الملكي - باسم المسجد الجامع ، وهذا غير صحيح حيث أن بناء هذا المسجد تم على مرحلتين ، المرحلة الأولى وتم فيها بناء المدخل الرئيسي للمسجد ، وهو الواجهة المطلة على ميدان نقش جهان ، وقد تمت هذه المرحلة الأولى في عام ١٠٢٥ هـ حيث كان الشاه حريصا على الانتهاء منها بسرعة حتى تكتمل زينة الميدان ، وهذه المرحلة هي التي أشار إليها الأمر المذيل بالتاريخ ، أما المرحلة الثانية والتي تم فيها بناء بقية المسجد ، فلم يعرف متى انتهت ، حيث قال البعض بأن ذلك كان في أواخر حكم الشاه عباس ، وقال آخرون بأن ذلك كان بعد وفاة الشاه عباس ، حتى حدد البعض تاريخ الانتهاء منه بعام ١٠٤٠ هـ^(١) أي بعد وفاة الشاه عباس بعامين .

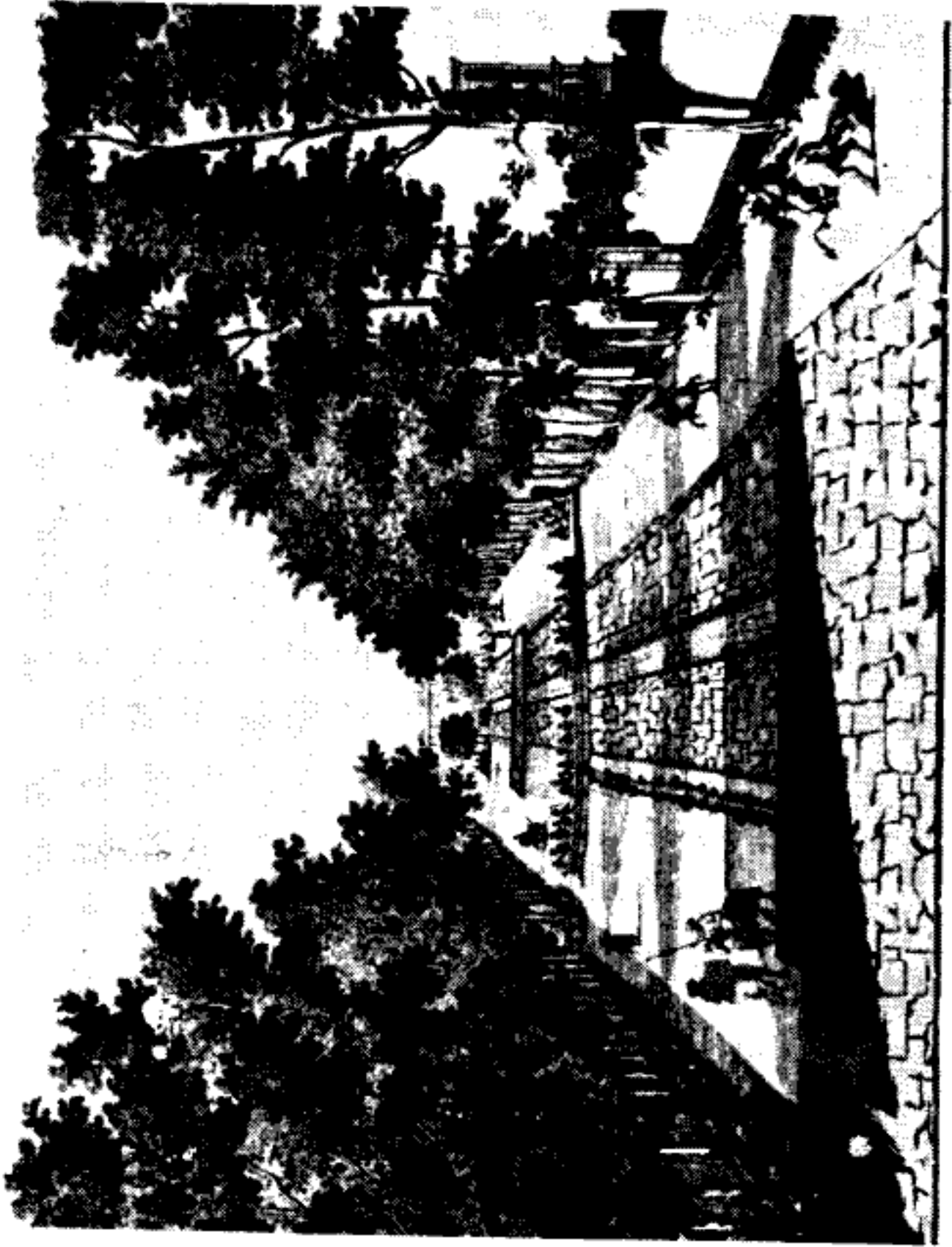
وهذا المسجد له ثلاث قباب وأربعة أروقة ، أكبرها ذلك الرواق المتجه صوب القبلة ، والملاحظ أن قبة الرواق الكبير أعلى من القبتين الأخريين ، وعلى جانبي هذا الرواق الكبير ترتفع أعلى مثذنتين بالمسجد ، وعلى مقربة من محراب ذلك الرواق الكبير يوجد منبر من حجر المرمر ، وقد نحت من قطعة واحدة ، ونصب بعد ذلك في مكانه . وقد تم استيراد هذا المرمر من رانجون بالهند^(٢) . كما أن بواكيه المرتفعة محيطة بتجاويف ، ومزدانة بتجاويف داخلية مسقوفة بخزف مطلي بالميناء ومحاطة بإقريز من القرهيد المكتوب عليه آيات من القرآن الكريم . كما أن ساحته الداخلية يوجد بها حوض من الرخام^(٣) .

(١) إيران در زمان صفوية ، ص : ٢٦٧

(٢) آثار ملي اصفهان ص : ٦٦٤

History of persia, Vol. II p.199

(٣)



- حدائق چهارباغ باصفهان -

٥ - خیابان چهارباغ^(١) :

أصدر الشاه عباس أوامره إلى عماله أثناء إنشغالهم ببناء ميدان نقش جهان والمباني المطلّة عليه بشق طريق يربط بين هذا الميدان ونهر زاینده رود^(٢)، وأن يعبر هذا الطريق النهر بواسطة إنشاء قنطرة عرفت فيما بعد باسم (قنطرة الله وردی خان) ثم يواصل الطريق امتداده بعد ذلك حتى أسفل الجبل الموجود جنوبی أصفهان، على أن تفرس على جانبي هذا الطريق أربعة صفوف من أشجار اللب^(٣)، ولهذا عرف باسم شارع الحدائق الأربع، وقد بلغ طول هذا الطريق أكثر من ثلاثة كيلومترات^(٤).

وعلى مدخل هذا الطريق أقيمت عمارة صغيرة، كانت عبارة عن إيوان ونوافذ وقد بنيت على هذا الشكل حتى يستطيع الجالس فيها مشاهدة الطريق من مكان مرتفع، ويكون في إمكانه رؤية أكبر قدر من هذا الطريق^(٥)، وقد عرفت هذه العمارة باسم «جهان نما» أي «الكاشفة للعالم»، وقد عرف هذا القسم الذي يربط بين جهان نما ونهر زاینده رود باسم: «طريق چهار باغ السفلی».

كما أنشئت في نهاية الطريق حديقة عظيمة واسعة متدرجة بين مرتفع ومنخفض، تصل إلى تسع طبقات، وأطلق عليها حديقة «عباس آباد»،

(١) أي طريق الحدائق الأربع .

(٢) عالم آرای عباس؛ ص: ٥٤٤ - ٥٤٥ .

(٣) إيران در زمان صفویه، ص: ٢٦٥ .

(٤) جغرافیای مفصل ایران، ج ٢، ص ٤١٤ .

(٥) آثار ملی أصفهان، ص: ١٦٤ .

وأُنشئ وسط الحديقة قصر عظيم عرف باسم (هزار جريب)^(١) أى (البالغ مساحته ألف ألف متر) . وقد عرف هذا الجزء الممتد من نهر زابنده رود حتى قصر هزار جريب باسم « چهار باغ العليا » .

ولكى يضمن الشاه عباس سرعة تجميل الشارع وزراعته بالحدائق ، فقد قسمه على أمراء الدولة وأعيانها ، وذلك لكي يتولى كل واحد منهم إنشاء حديقة فى القسم الذى وكل إليه به .

وقد أجمع السائحون الأوربيون الذين زاروا إيران خلال عصر الدولة الصفوية على أن هذا الطريق كان غاية فى الذوق والجمال ، فقد قال شاردن الفرنسى مثلا : إن طريق چهار باغ يعد أجمل طريق رأته عينه^(٢) .

وكان الإيرانيون يخرجون للتنزه فى حدائق هذا الطريق ، للتمتع بمناظره الجميلة ، وبرائحة الورد المنتشرة على جانبيه ، وقد أصدر الشاه عباس أوامره بأن تخصص بعض الأيام لخروج النساء وليتمتعن بالتنزه فى هذا الطريق .

. . .

٦ - قنطرة اللهورديخان^(٣) :

أنشئت هذه القنطرة فوق نهر زابنده رود لكي تصل بين قسمي طريق

١ - إيران در زمان صفويه ، ص ٢٦٤

٢ - المرجع السابق ، ص : ٢٦٥

٣ - اللهورديخان : قائد جيوش الشاه عباس ، وحاكم فارس من قبله كذلك وكان فى الأصل غلاما أرمنيا اعتنق الإسلام ، وانضم إلى غلمان الشاه الخصوصيين وترقى حتى أصبح رئيس هؤلاء الغلمان ، ثم أسند إليه الشاه عباس الإشراف على المذهبات فى الدولة ، أى الإشراف على ما يرد إلى الدولة من جواهر وفضة =



قنطرة الله وردي خان

چهار باغ السفلى والعلوى ، ويقال إن الشاه عباس أمر ببنائها عام ١٠١١ هـ^(١) وأوكل أمر بنائها إلى قائده وحاكمه على منطقة فارس وهو اللهورديخان ، وقد عرفت هذه القنطرة بعدة أسماء منها^(٢) :

(أ) قنطرة الشاه عباس . حيث أنشئت في عصره ، وبأمر منه .

(ب) قنطرة اللهورديخان : إذ أشرف اللهورديخان على بنائها .

(ج) قنطرة الأربعين فتحة : فقد كانت تضم يوم بنائها أربعين فتحة .

(د) قنطرة الثلاث والثلاثين فتحة :

حيث تهدم من فتحاتها سبع فتحات ، وبقيت منها ثلاث وثلاثون

فتحة ، مازالت قائمة حتى اليوم .

(هـ) قنطرة جلقا :

فقد كانت تربط مدينة أصفهان بضاحية جلقا الجديدة التي بناها الشاه

عباس ليقيم فيها الأرمن بعد تهجيرهم إليها .

وذكر المؤرخون أن طول هذه القنطرة كان يوم بنائها ٢٠٥ متر ، في

حين كان عرضها ١٣٧٥ مترا^(٣) ، وتضم هذه القنطرة ستة طرق للعبور ؛

== وذهب ، وما يخرج منها . وفي عام ١٠٠٣ هـ أسندت إليه ولاية فارس وقيادة

جيوش إيران ، وقد ظل في فارس حتى عام وفاته في عام ١٠٢١ هـ ، وقد شارك

الشاه عباس في تشييع جثمانه ، وأمر بأن ينقل ليدفن في مشهد ، ولكي يكرمه

عباس أصدر أوامره بأن يتولى حكم فارس ابن اللهورديخان ويدعى

إمامقليخان ، وقد ظل في منصبه حتى توفي الشاه عباس . وقد سميت القنطرة باسم

اللهورديخان لإشرافه على بنائها بتكليف من الشاه عباس الأول . انظر مجلة يادگار

سال چهارم ، شماره چهارم ، ص : ٢٩

(١) آثار ملي أصفهان ، ص : ٣١٧

(٢) آثار ملي أصفهان ، ص : ٣١٨

(٣) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٦٤

بيانها كالآتي: (١)

الطريق الأول : وهو الطريق الأوسط ، وقد خصص لعبور الفرسان
والعربات .

الطريقان الثاني والثالث : وهما على طرفي القنطرة في طابقتها الأول ، وقد
خصصا للمشاة .

الطريقان الرابع والخامس : ويعطوان الطريقين الثاني والثالث ، وكان
الناس يصعدون إليهما للفرجة والمشاهدة ، وذلك عن طريق سـلام جميلة
موجودة في أول القنطرة وآخرها .

الطريق السادس : ويوجد أسفل القنطرة .

لعلنا لاحظنا من خلال الحديث عن طرق عبور القنطرة ، أنها كانت
ذات طابقين فقد بنى الطابق أولاً ؛ ولكن حدث في وقت الفيضان أن مياه
نهر زابنده رود كانت ترتفع وتغطي الطرق ، مما يعرقل حركة عبور المشاة
فوق القنطرة ، لذا أقدم اللهوردديخان على بناء الطابق الثاني لضمان انسياب
الحركة مهما علت مياه الفيضان .

وقد الفت هذه القنطرة أنظار الأوربيين الذين زاروا أصفهان أيام حكم
الشاہ عباس ، أو بعد ذلك ، وأسهبوا في وصفها والتعبير عن جمال تنفيذها ،
ومن هؤلاء شاردن ، وتاورنيه الفرنسيان ، وسايكس الإنجليزى الذى قال
عنها : إن هذه القنطرة على الرغم مما أصابها من تهدم وتصدع ، فإنها تعد
واحدة من أعظم قناطر العالم (٢) .

وهذه القنطرة ما زالت قائمة حتى اليوم ، ويؤمنها الخلق للتمتزه .

(١) آثار ملي أصفهان ، ص : ٣١٨ ، ٣٢٧

History of Persia; vol. II p. 201

(٢)

هذه أم الآثار التي بنيت في عصر الشاه عباس ، وتحت إشرافه ، وإلى جانبها توجد بعض المباني التي شرع الشاه عباس في بنائها ولكنها لم تكتمل إلا في عصور سلفه من حكام الدولة الصفوية ، ومن هذه المباني كاخ جهلستون (أي قصر الأربعين عموداً) ، وكان في البداية جزءاً من حديقة نقش جهان الملحقة بعمارة عالی قاپو فاقطع الشاه عباس جزءاً منها وبني وسطه عمارة على الطراز الأوربي ، ولكن الشاه عباس الثاني زاد عليها الكثير ، وانتهى من البناء عام ١٠٥٧ هـ^(١) وعرف المبنى الجديد باسم (كاخ جهلستون) ومن المباني التي بدأ العمل فيها خلال حكم عباس ولم يكتمل البناء قبل وفاته أيضاً ، قصر هشت بهشت (أي الجنات الثماني) ، وقد اقتطعت كذلك من حديقة نقش جهان وبنيت في عهد عباس عمارة صغيرة ، ولكن أعيد بناؤها بصورة كبيرة في عام ١٠٨٠ هـ أيام حكم الشاه سليمان الصفوي^(١) .

كما بنى الشاه عباس ضاحية جلفا الجديدة ، والتي سبق أن أشرت إليها أثناء الحديث عن معاملة الشاه عباس لكل من الأرمن والمسيحيين .

ولاشك أن ما بناه الشاه عباس في أصفهان وما أدخله عليها من تجديدات حسن تخطيط وتزيينات ، أحال أصفهان إلى مدينة يؤمها السياح وبيالغون في تعظيمها والإشادة بجمالها ، حتى أطلق الجميع عليها في ذلك الوقت (أصفهان نصف الدنيا)^(٢) .

(١) آثار ملي أصفهان ، ص : ٣٣٩ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ، ص : ٣٣٤

(٣) لمعرفة المزيد عن المباني التي بناها الشاه عباس في أصفهان ، يحسن الرجوع إلى المرجع السابق حيث تكلم بالتفصيل عن جميع هذه المباني ، وأورد صوراً كثيرة لها .

الفصل الرابع

حروب الشاه عباس مع جيران ايران



الشاه عباس الاول (نقلا عن سفرتامة توماس هربرت)

الفصل الرابع

حروب الشاه عباس مع جيران ايران

أولاً : مع الأوزبك

- ١ -

مقدمات الهجوم الأوزبكي على خراسان :

بعد أن أحرز مرشد قليخان النصر على عليقليخان في معركة سوسفيد عام ٩٩٢ هـ (١٥٨٤ م) ، واستطاع أسر عباس ميرزا ونقله للعيش معه في مشهد ، فقد عليقليخان بذلك ورقة رابحة كان يتخذها وسيلة للإشراف على جميع أمراء خراسان ، لذا حاول استعادة عباس ميرزا أو قتله بأي طريقة ، حتى لا يترك هذه الورقة الرابحة في يد مرشد قليخان يستغلها في فرض سلطانه عليه وعلى كل أمراء خراسان ، ولما لم يفلح عايقليخان في مساعيه هذه بدأ يلجأ الى أعداء الدولة الصفوية في المشرق وهم حكام دولة الأوزبك لعلمهم يساعدونه في استعادة سلطانه على خراسان ، فأرسل رسله إلى ما وراء النهر ، وحملهم هدايا عديدة إلى عبد الله خان الأوزبكي الذي توسعت الدولة الأوزبكية في عهده ، حتى وصلت في المشرق إلى فرغانة وكاشغر والختن ، ووصلت في الجنوب إلى بلخ وطخارستان وبدخشان ، ووصلت في الغرب إلى استراباد التي اغتصبها في غفلة من حاكمها^(١).

ثم سلمه الرسل رسالة أعلن فيها عليقليخان حرصه على الدخول في طاعته كما ضمنها التعريض على تقدمه صوب خراسان والاستيلاء عليها ، وقد تعهد فيها بتسليمه مدينة هراة بمجرد قدومه إليها ، بل إنه سيساعده في

(١) لغت نامه شماره ٧٦ ص : ٤٢

الاستيلاء على كل ولايات العراق وهمدان بعد ذلك^(١) .

ما أن وصل الرسل إلى عبد الله خان الأوزبكي ، حتى أخذ يعد العدة للتقدم بجيوشه نحو خراسان، ولكن هذا الإعداد احتاج إلى بعض الوقت، مما دفع عليقليخان لإرسال وفد آخر صوب ماوراء النهر ، ليستحث عبد الله خان للإسراع بالتقدم صوب خراسان، وكان موعد توجه هذا الوفد الثاني في بداية عام ٩٩٦ هـ (١٥٥٨ م) .

وفي ذلك الوقت كان مرشد قليخان يتقدم ومعه عباس ميرزا صوب هراة بفرض المصالحة مع عليقليخان ، ولكن ما أن اقترب ركبهما من هراة حتى جاءتهما الأنباء بتقدم عبد الله خان الأوزبكي صوب هراة استجابة لتعريض عليقليخان من جانب، ولحرصه على اقتطاع أجزاء من الدولة الصفوية العادية من جانب آخر ، وأمام هذا الخطر تراجع مرشد قليخان وعباس ميرزا وعادا أدراجهما إلى مشهد، ومنها واصلتا المسيرة نحو قزوین الا بتمعاد عن الخطر الأوزبكي الذي يتهدد منطقة خراسان كلها ، ولينتزع عباس الحكيم من أبيه السلطان محمد خدا بنده .

- ٢ -

سقوط هراة :

عندما اقترب عبد الله خان الأوزبكي بجيوشه من هراة أرسل إلى عليقليخان لكي يسلم له المدينة بلا حرب، وقد جاء في رسالته : « . . . لقد تحركت لتسخير خراسان بناء على دعوتكم لنا، فإن كنت مازلت على وعدك، فلتخطب باسمي في هراة منذ اليوم، ولينقش اسمي على النقود، كي أبقىك على حكم هراة أو أنصبك

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص : ١٢٤

حكومة أى إقليم آخر فى ما وراء النهر، وإن كنت قد رجعت عن قولك ،
فترك هراة ، ولترحل إلى أى مكان تريد . . . »^(١) .

ما أن تسلم عليقليخان هذه الرسالة ، حتى اعتراه الخجل والندم ، وبدأ
ببذل قصارى جهده فى الاستعداد لصد الهجوم الأوزبكي ، ولكن عبد الله
خان استطاع التقدم ومحاصرة قلعة هراة ، واستمر حصاره لها مدة أحد عشر
شهرأ ، لاستماتة جيش عليقليخان فى الذود عن القلعة ؛ على الرغم من قله المؤن
وتفشى الأمراض والأوبئة بين الجنود ، وقد كان عليقليخان يأمل طوال هذه
الفترة أن تصله الإمدادات العسكرية من العاصمة قزوين ، ولكن العاصمة
كانت مشغولة بالنزاع بين عباس وبين السلطان محمد خدابنده ، فلم يكن
هناك من يهتم بمشا كل خراسان وما يهددها من خطر أوزبكي .

وبعد أن مجح الشاه عباس فى انزاع السلطنة من أبيه ، كان حريصاً على
تقديم العون العسكرى لمربيه الأول عليقليخان ، فكان يصدر فى كل يوم
أوامره لمرشد قليخان المسيطر على كل شىء فى الدولة الصفوية ، بالإسراع فى
إرسال العتاد والجنود صوب هراة لإتقاذ عليقليخان ومن معه من جنود
القرلباش ، ولكن مرشد قليخان تباطأ فى تنفيذ أوامر الشاه عباس المتكررة
لما كان بينه وبين عليقليخان من ضغائن سابقة ، وخوفاً من عودة العلاقات
الودية بين عباس ومربيه الأول ، مما يهدد مكانته وسيطرته على الشاه عباس
وعلى الدولة الصفوية كلها .

وظل مرشد قليخان يسوّف ويماطل حتى فقد عليقليخان كل مقدرة على
المقاومة ، وبدأت الهزيمة تحل به ، مما اضطره ومعه جمع من القواد إلى ترك
قلعة هراة ، والتوجه صوب قلعة أخرى صغيرة ، تقع على مقربة من قلعة هراة

١ - زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص : ١٢٥

وعلى أثر فرارهم دخل الأوزبك قلعة هراة ، وقتلوا عدداً كبيراً من رجال القزلباش ، كما أسروا عدداً كبيراً من نساء قبيلة شاملو وصبيتها . وتم إرسال السبايا إلى ما وراء النهر^(١) .

أما عن عليقليخان ، فإنه لم يستطع ومن معه من الجنود والقواد الصمود في القلعة التي لجأوا إليها إلا لمدة يومين فقط ، ثم سقطوا أسرى في أيدي الأوزبك حيث نفذوا فيهم حكم الاعدام في أكبر حديقة بمدينة هراة ، وكان ذلك في ربيع الأول عام ٩٩٧ هـ (١٥٩٩ م)^(٢) .

— ٣ —

تحرك الشاه عباس صوب خراسان وتراجعه :

ما أن وصلت أنباء سقوط هراة ومقتل عليقليخان إلى العاصمة قزوين ، حتى سارع مرشد قليخان بإعداد الجنود والعتاد بعد أن اطمأن على التخلص من غريمه ، وخرج الجيش الصفوي يتقدمه الشاه عباس ومرشد قليخان وجمع كبير من قواد القزلباش ، وسلك الجيش الطريق إلى هراة ، وكان الشاه عباس في ضيق شديد من مسلك مرشد قليخان الذي اتسم بالتراخي والإهمال فصمم على التخلص منه انتقاماً لمقتل مربيه الأول عليقليخان ، ولسقوط هراة في أيدي أعداء إيران من الأوزبك ، وما أن وصل الجيش الصفوي إلى مدينة بسطام حتى نفذ ما عزم عليه من اغتيال لمرشد قليخان^(٣) .

بعد ذلك واصل الجيش الصفوي مسيرته صوب خراسان ، لطرد الجيش الأوزبكي الذين يواصل تقدمه بغية الاستيلاء على مدينة مشهد وما يجاورها

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٣٨

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص : ١٢٦

(٣) راجع قصة التخلص من مرشد قليخان ص : ٥٠ وما بعدها من هذا الكتاب .

من مدن ، ولكن وردت أنباء إلى الشاه عباس وهو في الطريق بأن فرهاد باشا القائد العثماني قد تقدم بجيشه صوب قراباغ بأذربايجان، وأنه احتل كنججه كما تقدم چغال أو من ناحية بغداد صوب همدان ونهاوند^(١) .

وهنا أدرك الشاه عباس بأن موقفه أصبح غاية في الدقة والحرج ، إذ تعرض دولته لهجوم أوزبكي من الشرق ، وهجوم عثماني من الغرب ، كما توجد بعض الفتن الداخلية التي يقوم بها عدد من قواد القزلباش وحكام الأقاليم أملا في الإبقاء على سيطرتهم ، وأمام هذه الأخطار جميعها ، آثر الشاه عباس العودة إلى قزوین ، والتخلي عن دفع الأوزبك حتى يوقف الغزو العثماني ويقضى على الفتن الداخلية^(٢)

وبعد فترة من عودة الشاه عباس إلى العاصمة استطاع القضاء على عدد من الفتن الداخلية ، كما نجح في عقد معاهدة صلح مع العثمانيين ، تنازل لهم بمقتضاها عن جميع المناطق التي احتلوها في آذربايجان والعراق المعجمي ، وذلك لكي يؤمن ظهره إذا تقدم صوب خراسان لصد الأوزبك .

— ٤ —

سقوط مشهد :

لا شك أن الهجوم العثماني وما ترتب عليه من عودة الشاه عباس إلى قزوین، أتاح فرصة سانحة للأوزبك لكي يواصلوا زحفهم في خراسان، وإشاعة الفوضى والاضطراب ونشر الخراب والدمار بكل شيء ، فتقدمت جيوش عبد الله خان الأوزبكي غرباً واحتلت بعض المدن الواقعة بين هراة ومشهد ، ثم تقدم عبد الله خان صوب مشهد وحاصرها ، ونهبت جيوشه الحبوس الكثيرة التي

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ج ٨ ، ص ٢٥٢

(٢) تاريخ إيران أز مغول تا افشارية ؛ ص : ٣١٢

كانت موقوفة على زوار ضريح الإمام الرضا ، مما جعل القائميين على الضريح يكتبون إلى عبد الله خان يسألونه كيف تسمح له مشاعره الدينية بأن يدمر جيشه ممتلكات الإمام ، فيقضى بذلك على موارد يعيش من فيضها آلاف كثيرة من الحجاج الأتقياء وفيهم كثير من أهل السنة .

وهناك انبرى للرد عليهم من كان بمعسكر الأوزبك من شيوخ أهل السنة ، فحملوا بعامة الشيعة حملة شعواء طويلة ، واحتجوا بأن أصحاب هذا المذهب هم على مقتضى أحكام السنة أشد كفراً من المشركين الذين أمر الله بقتلهم والقضاء عليهم : « فإذا كان فرضاً على كل مسلم أن يقاتل المشركين ، فأولى به أن يحاسب الذين حادوا عن طريق الحق ، وهم - أي الشيعة - برغم صلتهم بذلك الولي الذي ترقد عظامه بين ظهرانيهم ، قد سقطوا في حماة الضلال المبين »^(١) .

وعندما فشلت محاولات المشايخ في رد الهجمة الأوزبكية أرسل حاكم مشهد الصفوي « أمت الله خان استاجلو » إلى الشاه عباس يطلب النجدة والعون ، فانقظر الشاه حتى استتب الوضع الداخلي ، وتوقف الخطر العثماني ، ثم أعد العدة وتحرك بالجيش قاصداً خراسان ، ولكن ما أن وصل الجيش إلى منطقة طهران الحالية وعسكر هناك حتى تفشى الوباء العام بين الجنود ، ودم المرض الشاه عباس نفسه ، ولم يعد في مقدور الشاه وجيشه مواصلة التقدم . فكانت أنباء هذا المرض وتفشى الوباء دافعاً للجيش الأوزبكي لتشديد حملته على مشهد ، كما كان عاملاً مهماً في إضعاف الروح القتالية لدى جنود القزلباش المحاصرين بداخل قلعتها . مما أدى إلى سقوطها بعد حصار دام أربعة أشهر^(٢) . وقد أشاع الأوزبك القتل العام بالمدينة ، كما أغاروا على كل شيء بها ،

(١) ارمينيوس فامبري : تاريخ بخاري ، ترجمة الدكتور أحمد محمود الساداتي

القاهرة ١٩٦٥ م ، ص : ٣٤٢

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٥٣

فحاول العديدون من سكانها الاحتماء بقبر الإمام الرضا ، ولكن الأوزبك أطلقوا عليهم السهام وقتلوا عدداً كبيراً منهم ، بل إن عبد المؤمن خان بن عبد الله خان والذي تولى قيادة الجيش الأوزبكي بعد عودة أبيه إلى ما وراء النهر ، أمر بالقتل العام وهو واقف في صحن الضريح دون خجل أو حرج من صاحب الضريح ، كما أغار جنوده على الضريح نفسه واستولوا على المصاييح الذهبية والفضية ، وعلى عدد من المصاحف والمخطوطات التي قيل إنها كتبت بخطوط الأئمة أنفسهم^(١) .

كما لم ينج من خطر الأوزبك السنين الأموات في مقابرهم ، حيث أقدم جنودهم على نبش قبر طهماسب ، وكان مشواه إلى جوار مقام الإمام الرضا ، وذرروا في الريح ما بقى من أشلائه مصحوباً باللعنات^(٢) .

وقد أراد عبد المؤمن أن يكسب ود عدو سني آخر من أعداء الصفويين حين ينهى إليه خبرا سقيلائه على مشهد ، فبعث بحاجبه محمد قلى إلى السلطان مراد الثالث بالقسطنطينية ، ومع رسالة يصف فيها انتصاراته في خراسان ، ويصف فيها ما فعله بأشلاء طهماسب ، كما أخبره بأنه ينوى مواصلة الزحف حتى يستولى على العراق (قزوين) ليقضى على أصحاب المذهب الشيعي .

ولكن هذه الخطة الطموحة التي كان عبد المؤمن خان يتطلع للقيام بها ، لم تتحقق لأن العثمانيين عزفوا عن مساعدته ، بل دخلوا في صلح مع الشاه عباس مكنه من التفرغ لقتال الأوزبك ، كما أن الشاه عباس سرعان ما برأ من مرضه وأخذ يبذل غاية جهده لاقتضاء على الخطر الأوزبكي في خراسان^(٣) .

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٥٣ ، ٢٥٦

(٢) تاريخ بخارى ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦

(٣) المرجع السابق ، ص : ٢٤٦

بعد ذلك واصل عبد المؤمن خان زحفه ، واستولى على كل من خواف
وباخرز وبوشنج وغوريان ، كما حاصر قلعة اسفرايين لمدة أربعة أشهر ، وعلى
الرغم من قتل الأوزبك لجميع من كانوا بالقلعة بعد فتحها ، فإن جنود القزلباش
- كما يقول مؤلف عالم آراى عباسى - قد قتلوا عددا كبيرا من جنود
الأوزبك يقدر بحوالى أربعة آلاف قتيل^(١) ثم عاد عبد المؤمن خان بعد هذا
الفتح إلى ماوراء النهر استعداداً لجولة أخرى ، أما الشاه عباس فقد عاد بعد
شفائه إلى العاصمة لتصرف بعض أمور دولته ، والقضاء على الفتن الداخلية التي
أطلت برأسها من جديد .

- ٥ -

تقدم عباس صوب خراسان ، وتحرير مشهد :

وفى ١٠٠٩ هـ (١٥٩٣ م) تقدم الشاه عباس على رأس جيش كبير قاصدا
خراسان . وعندما وصل الركب إلى مدينة بسطام عسكر فيها فترة ، لينظم
صفوفه ، ثم واصل تقدمه بعد ذلك ، وما أن اقترب الجيش الصفوى من مدينة
مشهد أرسل عبد المؤمن خان رسالة إلى الشاه عباس قال فيها : « . . . إننا
مستعدون للسلم والحرب معا ، فإن كنتم تودون السلم فاتركوا لنا خراسان ،
وعودوا إلى العراق (قزوین) وإن ترغبوا فى الحرب ، فتقدموا ! :

فرد الشاه عباس برسالة قال فيها : « نحن بفضل الله واثقون ، ولن نتخلى
عن حكم خراسان التي ورثناها منذ مائة عام ، فإن تمخلوا عن أرض خراسان ،
نقبل المصالحة ، ولن نتدخل فى حكم أراضيكم ، وإلا فنحن للحرب مستعدون ، ولها
نتقدم باشتياق من العراق إلى خراسان ، وإننا على استعداد للنزال فى أى مكان^(٢) .

(١) عالم آراى عباسى ، ج ٢ ، ص : ٤٢٥

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٦٤

أمام هذا الرد العنيف من الشاه عباس بدأت الرهبة والتوجس والخشية تدب في قلوب بعض قواد الأوزبك لذا تخلى كثيرون منهم عن البلاد التي يحتلونها في خراسان ، وبدأوا يتجمعون في مشهد ، وذلك لكي يتصدوا للشاه عباس وجيشه كجبهة واحدة قوية ، ولمعرفتهم بأن الشاه عباس حريص على مشهد ولا يريد إلحاق الدمار والخراب بها ، مما يجوز معه عدم مهاجمته لهم في تلك المدينة المقدسة ، أما عن عبد المؤمن خان فقد تراجع عن نيسابور وعسكر في مدينة جام ، ومن هناك أرسل للشاه عباس رسالة أخرى أكثر رقة وأدبا من سابقتها ، لعله بذلك يخطب وده ويعيده دون قتال ، ولكن الشاه عباس لم يأبه بهذه الرسالة الودية ، وتقدم صوب نيسابور واستعادها دون قتال ، كما استعاد كلا من سبزوار وجاجرم ، ثم واصل زحفه حتى أصبح على مشارف مدينة مشهد ، وهناك دهم الشتاء واشتدت البرودة وتساقط الثلوج ، ولم يعد المكان مناسباً لإقامته ، فاضطر للعودة صوب قزوین ، تاركاً المنطقة تحت إشراف درویش محمد خان ومعه عدد كبير من الجنود^(١)

وبعد ذلك حدث خلاف بين نور محمد خان والي مرو واو كنج ، وبين حاجي محمد خان حاكم خوارزم ، فرغب عبدالله الأوزبكي استثمار هذا الخلاف لمصلحته ، حيث كان يبغي الاستيلاء على أملاك هذين الأميرين على الرغم من أن أحدهما وهو والي مرو كان ابن عم عبدالله خان ، وقد تمكن من طردهما من ديارهما واستولى على أملاكهما ، مما دفعهما للجهوء إلى الشاه عباس طلباً للعون ، والمساعدة في استرداد المناطق التي طردا منها^(٢) . ولاشك أن ضم تلك المناطق إلى ملك عبدالله خان الأوزبكي كان سبباً في شعوره بالقوة والزهو ،

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاریه ، ص : ٣١٥

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص ١٢٨

وشجعه ذلك على معاودة الهجوم على خراسان ، واغتصاب أراضي جديدة
وضمها إلى مملكته .

وفي عام ١٠٠٤ هـ (١٥٩٦ م) جمع الشاه عباس جيوشه وتوجه بها صوب
خراسان، وتقدم حتى أصبح على مقربة من اسفرايين الخاضعة لنفوذ الأوزبك ،
فاضطر عبد المؤمن خان إلى التراجع عنها حيث كانت عادة الأوزبك التراجع
السريع إذا أحسوا باقتراب الجيش الإيراني منهم ، كما أرسل عبد المؤمن رسالة
إلى الشاه عباس يطالبه بإغماض عينيه عن خراسان ، والقناعة بملك العراق ،
إلا أن الشاه عباس رد عليه برسالة عنيفة مليئة بالتهديد والوعيد ، وتقدم
بعدها واستعاد السيطرة على قلعة اسفرايين ، ولكنه بدلا من أن يتوجه
صوب سبزوار ونيسابور ثم مشهد فإنه توجه صوب استراباد في طريق عودته
إلى قزوین ، مما شجع عبد المؤمن خان على معاودة الهجوم على اسفرايين ،
وإحداث قتل عام في سبزوار ، فاضطر الشاه للعودة صوب سبزوار حيث
استعادها ، وتقدم منها صوب نيسابور ، ولكنه عاد إلى قزوین مع
مقدم الشتاء^(١) .

ظل الحال في خراسان على هذا للنوال ، حيث يحدث هجوم أوزبكي
بعقبه مقدم الشاه عباس لصددهم ، ثم معاودة الهجوم بعد عودته إلى قزوین ،
إلى أن جاء عام ١٠٠٦ هـ (١٥٩٨) ، حيث حدث خلاف بين عبد الله خان
سلطان الأوزبك ، وابنه عبد المؤمن خان ، وكاد الموقف ينتهي بينهما إلى
الحرب ، ولكن حدث أن مرض عبد الله خان وتوفى ، فتولى عبد المؤمن
خان حكم الأوزبك ، وتم تنصيبه مكان أبيه^(٢) .

(١) زندگانی شاه عباس اول . ج ٤ . ص : ١٣٤

(٢) تاریخ ایران از مغول تا افشاریه . ص : ٣١٧

ولاشك أن هذا الخلاف بين عبد المؤمن وأبيه قد أضعف الروح القتالية لدى جيش الأوزبك مما شجع الشاه عباس على التوجه صوب خراسان للقضاء على الخطر الأوزبكي وطردهم من جميع أراضي خراسان التي احتلوها، وأمر بأن تتقدم جميع الجيوش الإيرانية نحو خراسان، وأن تكون منطقة بسطام، مكان الالتقاء والتمركز. فسلكت جميع الجيوش الإيرانية طريق الشمال، عدا جيوش فارس وكرمان التي سلكت طريق يزد عبر صحراء كوير، وأخيرا التقت الجيوش الصفوية في بسطام حيث تم تنظيمها استعداداً للهجوم العام ضد الأوزبك^(١).

بعد ذلك تقدم الجيش الصفوي بقيادة فرهادخان من بسطام قاصدا نيسابور وتم له استعادتها بلا مشقة، ثم تقدمت طلائع الجيش الصفوي صوب مشهد، وعلى مقربة منها وصلت الأنباء بمقتل عبد المؤمن خان الأوزبكي، بعد أن ثار القواد ضده لظلمه وطغيانه، فأشعل هذا الخبر حماس الجنود الإيرانيين الذين تقدموا نحو مشهد واستطاعوا دخولها بلا عناء، وذلك في اليوم الخامس والعشرين من ذي الحجة عام ١٠٠٧ هـ (١٥٩٩)^(٢). وبعد ذلك صمم الشاه عباس على التوجه صوب هراة لكي يحررها.

أما عن الأوزبك فقد ثارت الخلافات فيما بينهم بعد مقتل عبد المؤمن خان، وأعلن ثلاثة منهم تولى الحكم، حيث أعلن پير محمد خان نفسه ملكا على بخارى، ونصب عبد الأمين خان نفسه ملكا على بلخ، في حين تولى دين محمد خان ملك هراة^(٣).

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ج ٨ ، ص : ٣٠٩

(٢) زندگانی شاه عباس اول ج ٤ ، ص : ١٣٥

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

تحرير هراة والتخلص من الخطر الأوزبكي :

تقدم الشاه عباس بجنوده صوب هراة ليحررها من دين محمدخان ، وأصدر أوامره إلى قائد جيشه فرهاد خان بأن يستدرج الأوزبك للقتال خارج هراة ، حتى لا يلحق أى دمار بالمدينة التي ولد فيها عباس وتربى فيها ، لذا ما أن اقترب جنود عباس من مشهد حتى تظاهروا بالتراجع خوفا من الهزيمة ، فانخدع دين محمد خان بهذا التراجع ، وأمر جنوده بالخروج إليهم وتعبهم خارج هراة ، وعلى بعد أربعة فراسخ من المدينة دارت معركة حامية بين الجيشين ، وقد تمكن الجيش الأوزبكي من إحراز النصر في الجولة الأولى ، فاتهم الشاه عباس قائده فرهادخان بالتراخي في الدفاع والحرب ، ثم أمر باغتياله^(١) وتولى قيادة

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص ٣١٦ - ٣١٨ . وقد كتب المؤلف ، قصة حياة فرهاد خان ولماذا أمر الشاه عباس باغتياله ، وهذا ملخص القصة : كان فرهادخان أحد قواد الجيش الصفوي إبان حكم السلطان محمد خدابنده . ولكن عندما اشتدت الاضطرابات في ذلك الوقت ، نزع فرهادخان وأخوته إلى الدولة العثمانية التي لم ترض عن مقدمهم ، وأقدمت على قتل أخيه الأكبر رستم خان ، مما اضطره للهرب إلى إيران مرة أخرى ، والتحق بجيش القزلباش من جديد . وعندما تولى الشاه عباس الحكم أسند إليه منصب القائد العام لجيوشه كما ولاه إمارة آذربايجان ، فقدم فرهادخان العديد من الخدمات للشاه عباس في السنوات الأولى من حكمه ، حيث ساعده في القضاء على كثير من الفتن الداخلية ، ولكن حدث في الفترة الأخيرة أن فقد الشاه عباس ثقته في إخلاصه ، وبدأ يشم منه رائحة النفاق ، مما جعله يضعه موضع التجربة ، حتى وقعت الحرب بين الجيش الصفوي ودين محمد خان الأوزبكي على مقربة من هراة ، وقد تولى فرهاد خان قيادة مقدمة الجيش الصفوي المهاجم هراة ، إلا أنه لم يكن حازما شجاعا في خوض غمار الحرب ، بل إنه آثر الفرار وتحمل الهزيمة على الرغم من كثرة عدد الجنود معه ، فتيقن الشاه بأن فرهاد خان هو الذي افتعل الهزيمة متعمدا ، وبخاصة أنه عندما فر لم يرجع إلى حيث يوجد الشاه ، بل سلك طريقا آخر ، وعندئذ أصدر الشاه أوامره للموردينخان وجمع من القواد باغتيال فرهادخان ، وتم تنفيذ ما أمر الشاه عباس به .

الجيوش الصفوية بنفسه ، فحاض معركة حامية ، استطاع في نهايتها إحراز نصر مؤزر على دين محمد خان الذي قتل في المعركة ، وبعد ذلك تمكن الشاه عباس من استعادة هراة دون أن يلحقها أى دمار من جراء الحرب التي دارت خارج ديارها .

وهكذا استعاد الشاه عباس جميع مدن خراسان ، وحررها من الخطر الأوربكي وأصبح سلطانه يهدد دولة الأوزبك في ماوراء النهر ، بعد أن ظلوا فترة طويلة مصدر تهديد لأمن الدولة الصفوية ، فقد تقدم الشاه عباس في عام ١٠١١ هـ وحاصر مدينة بلخ ولكنه عاد دون فتحها ، حيث تفشى وباء عام بين جنده ، كما تعرضوا لهجمات شرسة من بدو الأوزبك القاطنين الصحارى المحيطة ببلخ ، مما اضطر الشاه عباس لإنهاء حصاره والعودة دون أن يحقق هدفه من حملته .^(١)

كما أصبح الشاه عباس الملاذ والملاجأ لبعض حكام الأوزبك إذا ألم بهم أى خطر ، فقد حدث في عام ١٠٢٠ هـ أن فقد ولي خان الأوزبكي عرشه الذى تولاه عام ١٠١٤ هـ ، فلجأ إلى الشاه عباس لى يعيده إلى عرشه ويقضى على مفتصبيه ، فأحسن الشاه عباس وفادته ، ولكن نتيجة لانشغال الجيش الصفوى بالحروب مع الدولة العثمانية اكتفى الشاه عباس بإمداده بالمال دون الرجال ، وأوكل أمره إلى أحد قواده لى يصحبه حتى خراسان ، ومن هناك يتسلل إلى ماوراء النهر لينظم أتباعه ويحاول استرداد ملكه ، وقد فعل هذا، ولكنه هزم وقتل بعد ذلك^(٢) .

وعلى الرغم من انتصار الشاه عباس على الأوزبك وتيقنه من ضعفهم

(١) تاريخ بخارى ، ص : ٣٦٦

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص ١٢٧ - ١٢٩

وعدم مقدرتهم على معاودة الهجوم على خراسان ؟ إلا أنه كان يرغب في تأمين حدوده المشتركة معهم ، حتى لا ينتهزوا فرصة إنشغاله بالحرب مع الدولة العثمانية ، ويحاول بعضهم التطاول على أراضي الدولة الصفوية ، لذا أمر الشاه عباس بنقل عدد كبير من القبائل السكردية من كردستان إلى حدود خراسان الشرقية ، وذلك ليسكونوا بمثابة منطقة عازلة بين الأوزبك وخراسان ، ولكي يتعمل هؤلاء الأكراد أى خطر قد تتعرض له المدن الخراسانية مستقبلاً^(١).

وهكذا أمن الشاه عباس حدوده الشرقية ، وأطمأن على المدن الخراسانية ، ولم يعد الأوزبك يمثلون أى خطورة على دولته ، بل أصبحوا يخشون سطوة عباس ونفوذه ، وبذلك يسكون عباس قد نجح بانتصاره على الأوزبك في التغلب على أول معسكر سنى كان يهدد دولته الشيعية المذهب .

ثانيا : حروب الشاه عباس مع العثمانيين

- ١ -

معاهدة ٩٩٨ هـ (١٥٩٠ م) :

انتهز العثمانيون فرصة الاضطرابات التي اجتاحت إيران خلال فترة حكم كل من الشاه اسماعيل الثاني والسلطان محمد خدا بنده، حيث هاجمت قواتهم الأراضي الإيرانية واستولت على أجزاء كبيرة منها ، فقد استولى فرهاد باشا على قراباغ وضمها إلى كنجه التي كان يسيطر عليها من قبل ، كما أن جعفر باشا حاكم تبريز العثماني مد سيطرته على جميع المناطق المجاورة لتبريز حتى منطقة سراب ، وفي جبهة العراق تمكن جفال أوغلي مد سيطرته حتى مدينة نهاوند وحدود لرستان ، كما بنى قلعة كبيرة في نهاوند (١) .

وعندما تولى الشاه عباس الحكم ، كانت المناطق الغربية من دولته تتعرض للهجوم العثماني بين آونة وأخرى ، وما أن خرج من العاصمة قزوین قاصدا خراسان لدفع القوات الأوزبكية المغيبة ، حتى فوجيء بهجوم عثماني جديد على مناطق آذربايجان وولايات إيران الغربية ، فاضطر الشاه عباس للعودة إلى قزوین، والسعى من أجل عقد معاهدة صلح مع العثمانيين ، حتى يوقف زحفهم المستمر ، ويفرغ بعد ذلك لمحاربة الأوزبك . وتحقق للشاه عباس ما تطلع إليه ، وقبل العثمانيون الدخول في مفاوضات لعقد معاهدة صلح بين الطرفين ، وقد جرت المفاوضات في اسطنبول عاصمة العثمانيين الذين فرضوا شروط المنتصر على الشاه عباس المغلوب على أمره ، وقد تم التوقيع على هذه المعاهدة في نيروز

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج : ٥ ، ص : ٥

عام ١٩٩٨ هـ أى فى ٢٢ مارس ١٥٨٠ م ،^(١) وقد تضمنت هذه المعاهدة الشروط التالية :^(٢)

١ - أن تتنازل إيران للدولة العثمانية عن حكم تبريز والولايات الغربية من إيران ، أى منطقة العراق المعجمى وخوزستان وشمأخى وتفليس وجزء من منطقة لرستان .

٢ - أن تتوقف إيران عن سب الخلفاء الثلاثة الأول ، وسب السيدة عائشة .

٣ - أن يبقى حيدر ميرزا بن حمزة ميرزا أخى الشاه عباس فى اسطنبول كرهينة حتى لا ينقض الشاه عباس هذه المعاهدة . وكان حيدر ميرزا ضمن الوفد الإيرانى الذى سافر إلى اسطنبول لعقد معاهدة الصلح . (وقد ظل حيدر ميرزا فى اسطنبول حتى عام ١٠٠٥ هـ) .

٤ - الإفراج عن أسرى الطرفين ، وكان الإيرانيون قد أسروا عدداً من باشوات تركيا ومن بينهم مراد باشا ، وزجوا بهم فى قلعة قهقهة بقراداغ ففك الشاه عباس أسرهم على مضض ، وعلى نفس المنوال تم الإفراج عن الأسرى الإيرانيين ومنهم شاهرخ سلطان مهر دار ، ومهد يقليلينخان شاملو وغيرها ؛ وأعيدوا جميعاً إلى إيران^(٣) .

ولعل العثمانيين قبلوا الصلح - وكان فى مقدورهم تحقيق المزيد من التوسع والتوغل فى الأراضى الإيرانية - لأنهم حققوا بهذه المعاهدة هدفين استراتيجيين

(١) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، ص : ١٧٦

(٢) لغت نامه شماره ٧٦ ، ص : ٤٢

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ص ٢٥٨ : ٢٥٩

أولها يتمثل في تأمين جبهتهم الشرقية ؛ حتى يتفرغوا لحروبهم مع المعسكر المسيحي في أوروبا ، وثانيهما تمثل في إيقاف الحملات العدائية التي كانت الدولة الصفوية الشيعية المذهب تشنها ضد المذهب السني ، وضد الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول ، حيث اعتبر العثمانيون أنفسهم خلفاء الخلفاء ، وأن أي معاداة لهؤلاء الخلفاء تعتبر معاداة لهم أيضاً ، ومن واجبهم الشرعي التصدي لمثري هذه المعاداة .

وبعد توقيع هذه المعاهدة سيطر الهدوء على منطقة الحدود الجديدة بين الدولتين والتي نصت عليها هذه المعاهدة ، وانتهت بذلك فترة من الحروب والمناوشات استمرت اثني عشر عاماً ، وذلك في الفترة الممتدة بين عامي ٩٨٥ و ٩٩٨ هـ (١٥٧٧ - ١٥٩٠ م)^(١) . وكان الشاه عباس حريصاً كل الحرص على أن يستمر هذا الهدوء ، مهما حدث ما يعكر صفوه ، وذلك لكي يتفرغ للجبهة خراسان من جانب ، ولعدم وجود القدرة لديه في ذلك الوقت لطرد العثمانيين من المناطق التي استولوا عليها ، فعندما ثار خان أحمد حاكم جيلان على الشاه عباس ولجأ إلى الدولة العثمانية حيث أحسنوا استقباله ، لم يحتج الشاه على ذلك^(٢) ونفس الشيء حدث مع شاهر ديمخان حاكم لرستان الذي ثار ضد الشاه عباس ، وحاصر قلعة (صدمره) القريبة من خرم آباد وعندما تقدم جيش الشاه لمحاصرته والقضاء على فتنته سارع بالهرب إلى بغداد للاحتباء بالدولة العثمانية المسيطرة على العراق^(٣) .

وكان الشاه عباس في هذه الفترة حريصاً على إظهار وده تجاه السلاطين

(١) تاريخ أدبيات إيران - ج ٤ (براون) ص ٩٩

(٢) راجع ص : ٢٤٣ وما بعدها من هذا الكتاب

(٣) ملحقات تاريخ روضه الصفا ، ج ٨ ، ص : ٢٧١

العثمانيين، وأن يسلك معهم طريق الود والخنوع بدلا من القوة والنفخة، حتى أنه إذا أرسل رسالة إلى السلطان العثماني كان يكتب في مقدمتها ما يقرب من أربعين سطرا بين نثر ونظم في تعداد مناقب السلطان المرسل إليه الرسالة، كما كان عباس يحاول التظاهر بأنه يعاضد العثمانيين في حروبهم ضد أوروبا ولكنه في نفس الوقت يحاول الاتفاق مع زعماء المسيحيين الأوربيين للتعاون فيما بينهم وبينه ضد السلطان العثماني، كما قيل إن الشاه عباس عندما وصلته الأنباء بموت السلطان مراد الثالث عام ١٠٠٣ هـ (١٥٩٥ م)، وتولى مكانه السلطان محمد خان الثالث، أرسل وفدا للامراء والتهنئة مكونا من ثلاثمائة رجل وعندما وصل الوفد إلى اسطانبول كان السلطان الجديد مشغولا بالحرب في أوروبا، فظل الوفد في العاصمة العثمانية حتى عاد إليها السلطان وقدم إليه تعازيه في وفاة مراد الثالث، وتهانيه بتوليته حكم الدولة العثمانية^(١).

وبعد أن حقق الجيش الصفوي انتصارات حاسمة على الأوزبك في خراسان وبدأ الشاه عباس يخطط للدخول في مواجهة سافرة مع الدولة العثمانية، شعر بأن وجود العاصمة في قزوين، يجعلها قريبة من أي هجوم عثماني متوقع، لذا أقر نقل العاصمة إلى أصفهان لتكون بعيدة عن أيدي المغيرين العثمانيين^(٢).

كما أخذ الشاه عباس يبذل قصارى جهده في تقوية جيشه، والتفاني في تدريبه وتنظيمه وتسليحه، وقد أفاد في ذلك من مقدم الأخوين شرلي ورفاقها البريطانيين. حيث أعانوه على إنشاء مصنع للأسلحة النارية وزودوا جيشه بالمدافع، وأحسنوا تدريب جنود القزلباش حتى أصبح الجيش الصفوي قادرا على منازلة الجيش العثماني، مما شجع الشاه عباس على نقض معاهدة عام ٩٩٨ هـ

(١) زندگانی شاه عباس اول . ج ٥ ، ص : ٧ وما بعدها

(٢) راجع ص ٢٨٧ وما بعدها من هذا الكتاب

مضى وافته الفرصة ، وبخاصة أنه اطمئن إلى هدوء الجبهة الداخلية ، كما حقق الهدوء في الجبهة الشرقية المتاخمة لدولة الأوزبك بعد انتصاراته الحاسمة عليهم .

- ٢ -

الجولة الحربية الأولى بين جيش الشاه عباس والجيش العثماني :

بعد أن اطمأن الشاه عباس إلى قوته ، واستقرار أحوال إيران السياسية بدأ يسلك مع السلطان العثماني مسلكاً مختلفاً ، فلم يعد يبدي الخنوع الزائد ، بل أخذ يجهر ببعض شعوره الحقيقي تجاه العثمانيين أعدائه ، ففي عام ١٠٠٧ هـ وفد إليه سفير من قبل السلطان محمد الثالث [١٠٠٣ - ١٠١٢ هـ = ١٥٩٥ م [١٦٠٣]^(١) ، وطلب السفير من الشاه إعادة النظر في اتفاقية عام ٩٩٨ هـ ، بفرض الحصول على المزيد من الامتيازات ، كما طالبه بأن يترك خراسان للأوزبك - ووصل السفير والجيش الصفوي يتقدم لاسترداد مشهد من الأوزبك - كما طلب السفير من الشاه عباس أن يرسل ابنه الأكبر ليكون رهينة في البلاط العثماني - حيث أن حيدر ميرزا ابن حمزة ميرزا كان قد توفي عام ١٠٠٥ هـ - فما كان من الشاه عباس إلا أن قال « إن ابني هو ولي عهدي ، وسيكون ملكاً من بعدى ، وليس من حقى أن أجعل الملك من بعدى رهينة لدى أى سلطان .. » ثم أمر الشاه بنتف لحية ذلك السفير العثماني وأن ترسل لحيته على شكل هدية للسلطان العثماني .^(٢)

وقد ساعدته على التصريح بعدائه للعثمانيين - إلى جانب قوة جيشه وهدوء

(١) سلسلة هاى إسلامى ؛ ص : ٢٠٩

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج : ٥ ، ص : ١٣ ، ١٤

جهته الداخلية وانتصاراته في خراسان - بعض الظروف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية نفسها ، واعتبرها الشاه عباس مواتية له ، وهذه الظروف تمثل فيما يلي :

١ - بعد وفاة السلطان مراد الثالث (١٠٠٣ هـ - ١٥٩٥ م) ، ثارت بعض الفتن التي تزعمها بعض الباشوات ، واستمرت بعض هذه الاضطرابات طوال فترة حكم السلطان محمد الثالث ^(١) ، وكانت هذه الأحداث مشجعة للشاه عباس لكي يتخلص من ربة معاودة ٩٩٨ هـ التي وقعها مع السلطان الراحل ، كما أن الاضطرابات الداخلية في الدولة العثمانية ستضعف من موقف جنودها في الولايات الإيرانية المحتلة ، مما يشجع الشاه عباس على محاربتهم .

٢ - كما ثار بعض العامة من رعايا الدولة العثمانية وهم من عرفوا باسم الجلالين ضد حكومتهم المركزية ، واستطاعوا السيطرة على بعض أقاليم تركيا الشرقية ، وعاثوا فيها وفي مناطق آذربايجان فساداً ، وقد حاول السلطان محمد الثالث احتواء ثورتهم ولكن دون جدوى ^(٢) وعلى الرغم من عبثهم الذي امتد إلى آذربايجان الإيرانية الخاضعة لحكم العثمانيين . فإن الشاه عباس كان يساند في ثورتهم ضد السلطان العثماني ؛ فعندما زاد ضغط الدولة العثمانية عليهم ، هربوا في عام ١٠١٧ هـ إلى إيران حيث أحسن الشاه عباس وفادتهم . ^(٣)

٣ - وفي بغداد ثار غلمانها على حاكمها العثماني وأخرجوه منها ، وولوا

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٤٥

(٢) مختصر تاريخ الكرد وكرديستان ، ص : ٢٠٢

(٣) زندگانی عباس اول ، ج : ٥ ، ص : ٥٦ - ٦١

مكانه أحمد آقا نامى . ونتيجة لهذه الثورة توقفت إمدادات المؤن عن قلعة نهاوند العثمانية ؛ مما دفع معظم حراسها إلى التفرق . ومن بقى منهم ، كانوا يغيرون على القوافل ويسلبون متاعها وأموالها . مما أثار حنق كل من الشاه عباس والدولة العثمانية التي أرسلت قائدا جديدا للإشراف على تلك القلعة . ولكن الأفراد المتبقين بها منعوه من ذلك . بل سلبوه ما كان معه من أموال ومتاع . فشكا هذا القائد ويدعى محمد آقانامى أمره إلى الشاه عباس ، فعزم عباس على مساعدته ؛ أملا في تأمين طريق القوافل . ولكن قبل أن يجهز الشاه عباس الجيش الذى سيسير معه لتسخير القلعة ، حدثت فتنة في تلك القلعة وهاجمها السكان المحيطون بها لكثرة اعتداءات جنودها على ممتلكاتهم . وقد دفعت ثورة الأهالى إلى هرب محمد آقا نامى . مما أغضب الشاه عباس فأصدر أوامره فى عام ١٠١١ هـ إلى قواده بضرورة الاستيلاء على هذه القلعة وهدمها . وتحقق للشاه عباس ما أراد . وتقدمت بعض فرق الجيش الإيرانى واستولت على قلعة نهاوند ، وجعلتها فى مساواة الأرض تماما^(١) . وقد كان هذا العمل حافزا للشاه عباس على مواصلة تحديه للدولة العثمانية التى لم تتخذ أى رد عنيف على احتلاله لقلعة نهاوند وهدمها .

٤ - وفى منطقة وار أغار حاكمها العثمانى على التجار الإيرانيين ، واستولى على أموالهم ، مما أثار حفيظة الشاه عباس فعقد العزم على تأديب هذا الحاكم العثمانى ، وكل حاكم آخر يمتدى على الرعايا الإيرانيين . وبخاصة أن معظم حكام مناطق الحدود العثمانيين وحكام منطقة أرمينية الكبرى ومنطقة أرزنه الروم لم يمودوا يحترمون نصوص الاتفاقية المعقودة بين الدولتين عام ٩٩٨ هـ^(٢) .

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج : ٨ ، ص ، ٣٤٥

(٢) المرجع السابق ، ونفس الصفحة

٥ - حدث في عام ١٠١١ هـ نزاع مسلح بين الجيش العثماني المتمركز في تبريز بقيادة علي باشا وبين غازي بيك الكردي حاكم سلماص . مما دفع الأخير إلى إرسال ابنه إلى الشاه عباس يطلب عونه ومساعدته . أما علي باشا فقد أعد عدته وتقدم بالقسم الأكبر من جيوشه نحو سلماص ، حيث أطلق يد النهب والسلب ، وقتل العديدين من سكانها (١) .

واعلن خلو تبريز من معظم جنود الحامية العثمانية المتمركزة فيها ، كان أفضل فرصة انتهزها الشاه عباس لبدء هجومه على آذربايجان ؛ لكي يسترد تبريز وغيرها من المدن التي تنازل عنها بمقتضى اتفاقية عام ٩٩٨ هـ ولكي يقضى على المآسى التي يعيش فيها سكان آذربايجان والولايات الغربية الإيرانية الخاضعة للاحتلال العثماني .

استرداد تبريز :

انتهز الشاه عباس وجود علي باشا خارج تبريز ، وأمر بإعداد الجيش الصفوي على وجه السرعة ، وأعلن لجنوده أن وجهة التحرك ستكون صوب مازندران ، وبدأ الجيش الصفوي تحركه من أصفهان في يوم الأحد الموافق السابع من ربيع الثاني عام ١٠١٢ هـ (١٦٠٣ م) (٢) . وتقدم الركب صوب كاشان ، ومنها إلى قزوین . وعلى مقربة منها أفصح الشاه عباس لجنوده بأن الغرض الحقيقي لتحركهم تحرير تبريز وطالبهم بسرعة المسير لكي يصلوها قبل عودة علي باشا ومن معه من الجنود إليها . كما أصدر الشاه أوامره لحاكم قزوین بأن يتبعهم بغلمانه وجيشه ، ونفس الأمر صدر إلى ذى الفقار خان حاكم أردبيل .

(١) مختصر تاريخ الكرد وکردستان ، ص : ١٩٦

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٤٦ وما بعدها

وبعد مضي أربعة عشر يوماً فقط من مغادرتهم أصفهان، أى فى الحادى والعشرين من ربيع الثانى استطاعوا الوصول إلى مشارف تبريز . وهناك لجأ الشاه عباس إلى الحيلة لسكى يتمكّن من استرداد المدينة بأقل مجهود . فأمر جماعة من جنده بالتخفى وإبدال ثيابهم العسكرية . ودخول المدينة على أنهم من المواطنين العاديين . كما تقوم مجموعة أخرى من الجنود بالتخفى فى زى التجار الذين يسبقون القوافل التجارية عامة ، حتى يعرف أهالى تبريز أن هناك قافلة قادمة . وبذلك يتم خداع الجنود الأتراك ؛ وفى الساعة المتفق عليها بين الشاه عباس والجنود المتخفين بداخل المدينة يبدأ الهجوم من الداخل والخارج ؛ فيجد الجنود العثمانيون أنه لا قبل لهم بمحاربة هؤلاء وهؤلاء ؛ وبالتالي لا يكون أمامهم إلا التسليم والهزيمة^(١) .

ونجحت خطة الشاه عباس ودخل المدينة بلا مشقة تذكر ، فاستقبله الأهالى استقبالا حاراً حيث استطاع تحرير مدينتهم واستردادها بعد أن ظلت تحت الحكم العثمانى زهاء عشرين عاماً^(٢) .

بعد ذلك أرسل الجنود العثمانيون إلى على باشا من أخبره بدخول الشاه عباس تبريز ، فسارع بعقد صلح مع غازى بيك الكردى ، ليعود مسرعاً إلى تبريز على أمل طرد الشاه عباس وجنده منها ؛ وفى طريق عودته تخلى عنه الجنود المنتمون إلى نخجوان وإيروان ؛ مما أضعف جبهته ، وفى مدينة صوفان على بعد ستة فراسخ من تبريز عسكر على باشا ليعيد تنظيم صفوفه ؛ ولكن الشاه عباس عاجلهم واستطاع أن ينزل بهم هزيمة ساحقة . كما تمكّن

(١) زندگانی شاه عباس اول ج ٥ ، ص ٢٢ نقلاً عن رحلات شاردن

الفرنسى الجزء الثانى ص : ٣٤٢ - ٣٤٣

(٢) تاریخ ایران از مغول تا افشاریه ، ص : ٣٢٥

من أسر على باشا نفسه ؛ وقتل عدد كبير من القواد العثمانيين المصاحبين لعلي باشا الذي أحسن إليه الشاه وأبقى على حياته^(١) .

وبعد ذلك تقدم الشاه عباس صوب قلعة تبريز ليحررها من الجنود العثمانيين المرابطين فيها ؛ فأمنهم على حياتهم إذا استسلموا له ؛ وقد تم تسليم القلعة بلا حرب ولا مشقة ؛ وكان ذلك في يوم الجمعة الثامن عشر من شهر جمادى الأولى عام ١٠١٢ هـ (١٦٠٣ م)^(٢) . وبعد ذلك أصدر أوامره إلى أهالي تبريز بهدم هذه القلعة كرمز للقضاء على الاحتلال العثماني في آذربايجان كلها .

الاستيلاء على نخجوان وایروان بأرمينيا :

بعد نجاح الشاه عباس في استرداد تبريز بدأ يعمل جاهدا لاسترداد جميع مدن آذربايجان الواقعة تحت وطأة الاحتلال العسكري العثماني ، فأمر جيوشه بالتوجه أولا صوب قلاع نخجوان وایروان ، فتقدم ذو الفقار خان الذي تولى إمارة تبريز بعد تحريرها - صوب قلعة نخجوان وحاصرها ، فسارع الجنود العثمانيون بطلب الأمان ، حيث كان عددهم لا يسمح بمقاومة الجيش الصفوي المحاصر لهم ، فأمنهم ذو الفقار على حياتهم ، وتسلم منهم القلعة دون قتال^(٣) .

وبعد ذلك تقدم الجيش الصفوي بقيادة الشاه عباس صوب قلاع ایروان الثلاث ، حيث كانت حامية ایروان مزودة بثلاث قلاع ، إحداها تعرف

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٤٨

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٥ ، ص : ٢٦

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٥٠

باسم القلعة القديمة ، وقد بنيت عام ٥٩٩١ هـ ، وكانت تقسم بمنعتها وصعوبة الوصول إليها ، وفيها يقيم قائد الحامية شريف باشا ، وثانيها قلعة (كوزچى) ؛ وهي قلعة صغيرة تقع في الجنوب الغربي من المدينة ، وثالثها قلعة جديدة أمر ببنائها شريف باشا على عجل في عام ١٠١٢ هـ لتساعد في صد جيش الشاه عباس ، وكانت هذه القلاع تضم حوالى اثني عشر ألف جندي بقيادة شريف باشا (١) .

تقدم الجيش الصفوى ليعاصر القلاع الثلاث والاستيلاء عليها ، كما أصدر أوامره لفرقة المدفعية بالتمهيد للفرق الثلاث وذلك بضرب القلاع ومحاوله القضاء على التحصينات التي قد تعوق تقدم فرق المشاه .

حدث أثناء احتدام المعارك بين جيش الشاه عباس والجيش العثمانى بقيادة شريف باشا ، أن وردت الأنباء بوفاة السلطان محمد الثالث ، وتولى ابنه السلطان أحمد (٢) وله من العمر ستة عشر عاما . وقد صحب ذلك حدوث بعض الاضطرابات والفتن في العاصمة العثمانية ، فكانت هذه الأنباء مثبطة للروح القتالية لدى الجنود العثمانيين الذين فقدوا الأمل في سرعة وصول الإمدادات العسكرية من جانب العاصمة لانشغالها بالاضطرابات والفتن ، في حين انتهز الجيش الصفوى هذه الفرصة وشدد من هجماته على القلاع الثلاث واستولى على القلعتين الصغيرتين أولا وذلك في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ذى الحجة عام ١٠١٢ هـ ثم ركز أفرادهم هجومهم على القلعة القديمة حتى سقطت في أيديهم . واستسلم من بقى منهم على قيد

(١) زندگانی فی شاه عباس اول ، ج : ٥ ، ص : ٣٠

(٢) كان ذلك عام ١٠١٢ هـ (١٦٠٣ م)

الحياة، فتم أسرهم، وكان من بينهم القائد شريف باشا وعدد كبير من مساعديه
المسكرين، وذكر بعض المؤرخين أن عدد القتلى من الجنود العثمانيين بلغ
ما يقرب من أربعة آلاف جندي^(١)، أما شريف باشا فقد أحسن الشاه عباس
معاملته وبصورة لم يسكن يتوقها شريف باشا نفسه، مما جعله يدخل في المذهب
الشيعة ويستأذن الشاه عباس في السفر إلى مشهد والإقامة بجوار ضريح
الإمام، فأذن له، وسافر شريف إلى مشهد وظل بها حتى توفي^(٢).

وأثناء انشغال الشاه عباس بمحاصرة ابروان، أصدر أوامره إلى اللهوردي
خان حاكم فارس بالتقدم على رأس جيش كبير صوب آذربايجان ليقدم العون
للجيش المعارب هناك، فأعد اللهورديخان جيشه، وتقدم به صوب آذربايجان،
ولسكنه في الطريق تعارك مع حاكم بغداد العثماني، واستطاع محاصرة بغداد،
والتغلب على حاكمها، ولسكنه لم يبق بها، وآثر مواصلة السير نحو آذربايجان،
حيث تدور المعارك الرئيسية بين الجيش الصفوي وبين الحاميات العثمانية في
مدن آذربايجان المختلفة.

— ٣ —

الجولة الحربية الثانية بين جيش الشاه عباس والجيش العثماني بقيادة
چفال أوغلي:

بعد أن حقق الشاه عباس تحرير تبريز والعديد من مدن آذربايجان، آثر
أن يستريح بعض الوقت، ويلتقط أنفاسه حيث أقبل الشتاء، ومن عادة
الجنود في هذا الفصل اللجوء إلى الراحة نظراً لشدة البرد وتساقط الثلوج في

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا، ج: ٨، ص: ٣٥٥

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

منطقة آذربايجان ، لذا سمح للعديد من أفراد جيشه بالسفر إلى مناطقهم الأصلية لزيارة ذويهم والاطمئنان عليهم^(١) ، ثم يعودون بعد ذلك لاستئناف جولة جديدة من الحروب مع الحاميات العثمانية الباقية في مدن آذربايجان .

أما بالنسبة للدولة العثمانية ، فقد هالها استرداد الشاه عباس لنهاوند ثم تبريز وعدد من مدن آذربايجان مثل نخجوان وإروان وجفور سفد ، فأمر السلطان أحمد بإعداد جيش عظيم يتولى قيادته الصدر الأعظم والسرदार الأكبر سنان باشا المعروف باسم چفال أوغلي ، وذلك ليؤدب عباس ويسترجع جميع المناطق التي استولى عليها الجيش الصفوي ، ثم يواصل تقدمه ويسخر إيران كلها ويقضي على الدولة الصفوية .

وتحرك الجيش العثماني وسار بهمة حتى وصل إلى مدينة قارص على الحدود الإيرانية العثمانية ، وهناك توقف چفال أوغلي لكي ينظم جيشه الكثيف العدد ، وليضع خطته التي يبدأ بها الهجوم على أراضي آذربايجان ، وليختار الطريق الذي سيسلكه للقضاء على الشاه عباس وجيشه .

وكانت أخبار هذه الحملة تصل أولاً بأول إلى علم الشاه عباس ، حيث أرسل بعض جواسيسه إلى اسطانبول لإطلاعه على كل تحرك تركي ضده ، فاستطاع بعض هؤلاء الجواسيس مراقبة جيش چفال أوغلي ومعرفة كل أخباره ، وإرسالها فوراً إلى الشاه عباس ، حتى يتخذ حذره ، وأخيراً وصلتته الأنباء بأن الجيش العثماني سوف يتوجه صوب إروان ونخجوان حتى يلتقى بالجيش الصفوي هناك ويقضي عليه^(٢) ، فوجد الشاه عباس نفسه في

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج : ٥ ، ص : ٣٧

مأزق ، إذ كيف يلتقى بالجيش العثماني الكثيف العدد والعتاد ، وعدد كبير من جنده قد سافروا إلى ذويهم ، لذا نراه يؤثر التراجع إلى تبريز ، وذلك ليفرى چغال أوغلي بالتقدم داخل أراضي آذربايجان ، وبالتالي لا يكون قريباً من الأراضي العثمانية حتى يصعب إمداده بالرجال والعتاد في وقت قصير^(١) كما أن الشاه عباس أقدم على إحراق كل مظاهر الحياة ووسائل المعيشة في الطريق الذي يسلكه چغال أوغلي في هجومه على آذربايجان ، وردم جميع آبار المياه حتى لا يجد الجيش العثماني أثناء تقدمه غذاء وماء ، وبالتالي تكون الطبيعة خير سلاح يتصدى للجيش العثماني ويكبده خسائر كثيرة في الأرواح نتيجة للجوع والعطش ، كما أمر الشاه عباس بترحيل جميع سكان المدن الواقعة على الطريق المتوقع أن يسلكه چغال أوغلي ، وأن يتم إسكانهم بمدن إيران الداخلية ، وقدر البعض عدد من أمر الشاه بترحيلهم بحوالي عشرين ألف نسمة ، كان بينهم عدد كبير من الأرمن ، حيث أسكن بعضهم في ضاحية جديدة بنيت بجوار أصفهان ، وعرفت الضاحية الجديدة باسم « جلفا الجديدة » .

وللمزيد من الاستعداد أمر الشاه عباس ببناء قلعة جديدة في تبريز ، وذلك مكان القلعة . التي أمر بهدمها يوم استرداد المدينة فبنيت القلعة على عجل حيث تم بناؤها في عشرين يوماً فقط ، وذلك في المدة ما بين الثامن والعشرين من ذي الحجة عام ١٠١٣ هـ (١٦٠٤ م) إلى الثامن عشر من المحرم ١٠١٤ هـ ، وأمر بحفر خندق عظيم يحيط بها ، كما جهزها بمعدات ومؤن تكفي للمسكرين فيها مدة ثلاث سنوات^(٢) .

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج : ٨ ، ص : ٢٦٢

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٥ ، ص : ٣٧

وعندما استكمل چغال أوغلي استعداداته الحربية ، ونظم عساكره ، تقدم من قارص قاصدا ايروان ونخبجوان على الرغم من قسوة الأحوال الجوية وتساقط الثلوج ، فتكبد جيشه العديد من المشاق ، وزاد من هذه المشاق أنهم وجدوا كل شيء في طريقهم قد أحرق بأمر الشاه عباس . فلم يجدوا أي زاد أو ماء بالطريق ، مما دفعهم للتذمر والامتناع عن مواصلة السير ، فاضطر چغال أوغلي للعودة صوب وان بعد أن تحمل الكثير من الخسائر في الأرواح والمعدات^(١) .

وهكذا نجحت خطة الشاه عباس في استدراج چغال أوغلي وتركه للطبيعة القاسية تحاربه ، وبذلك يحقق نصراً كبيراً دون الدخول في مواجهة قد يكون الخاسر فيها ، نظراً لكثرة عدد الجيش العثماني ووفرة أسلحته .



كانت هزيمة چغال أوغلي وتراجعها ، من العوامل المشجعة للشاه عباس لكي يعاجل الجيش العثماني ، ويهاجمه في وان قبل أن يستكمل تنظيم صفوفه المبعثرة ، وقبل أن تصله أي إمدادات عسكرية يعوض بها خسائره في الأرواح والعتاد ، لذا أصدر الشاه عباس أوامره إلى قائده العام اللهورديخان بالتقدم السريع صوب وان ومهاجمة الجيش العثماني المرابط هناك ، وأخذه على غرة ، وعندما اقتربت جيوش القزلباش من بلدة وان فوجيء بمقدمهم چغال أوغلي ، ورأى أن الحكمة تقضى بعدم خروجه لمقابلتهم ، بل يجب احتماؤه بقلعة وان ، في حين يضرب بقية قواده حصاراً حول المدينة من عشرة اتجاهات ، ويتولون الدفاع عنها دون المخاطرة بالمهجوم والتقدم لصد الجيش الصفوي ، وعلى الرغم

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشارية ، ص: ٢٢٧

من كل هذه الاستعدادات فقد بادر الصفويون بالهجوم على مشارف المدينة حتى انتصروا على القوات العثمانية التي توت الدفاع خارج الأسوار ، مما أجبر هذه القوات على التراجع إلى داخل المدينة للاحتماء بأسوار قلعتهما^(١).

وأثناء اشتداد المعارك وصلت الأنباء إلى قائد الجيش الصفوي بأن الإمدادات في طريقها إلى چفال أوغلي ؛ فأصدر أوامره إلى بعض وحداته بالانسلاخ من المعركة والإسراع باعتراض طريق الإمدادات العثمانية ، حتى لا تكون سندا للجيش المحاصر ، ونجحت الوحدات الصفوية في التغلب على القوات العثمانية القادمة لنجدة الجيش العثماني في وان ، كما قامت بعد ذلك بمهاجمة جيش چفال أوغلي من الخلف ،^(٢) مما أشعر چفال أوغلي بأنه فقد كل فرصة للانتصار ، كما أصبح لا قبل له على مواصلة الحرب نتيجة لمقتل عدد كبير من جنوده وانقطاع الإمدادات العثمانية ، مما اضطره إلى الهرب عن طريق بحيرة وان متجها صوب الأراضي العثمانية ، ومعه عدد كبير من قواده ومستشاريه^(٣) ، وقد لحقتهم الهزيمة الثانية في آذربايجان .

وبعد انتهاء المعركة عاد الجيش الصفوي بقيادة اللهوردينخان إلى تبريز حيث يوجد الشاه عباس الذي خرج لاستقبالهم والحفاوة بهم ، وتهنئتهم على النصر الكبير الذي أحرزوه على الجيش العثماني .

. . .

بعد فرار چفال أوغلي عبر بحيرة وان ، أخذ يجمع حوله العيوش من جديد ،

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٧١

(٢) History of Persia Vol, II p, 178.

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٧١

ويستعد لجولة أخرى يحقق فيها النصر على الجيش الصفوي ، وقبل التقدم صوب آذربايجان راسل جميع رؤساء القبائل الذين انتصر عليهم الشاه عباس ، وأدخلهم تحت حكمه . ودعاهم في هذه الرسائل إلى مسانדתه ومشاركته في محاربة الشاه عباس ، ثم تقدم نحو آذربايجان وعسكر على مقربة من مدينة سلماس . كان الشاه عباس موجوداً في ذلك الوقت في مدينة (خوى) حيث كان يشرف على بناء قلعة جديدة ، فإذا به يتوجه صوب مدينة (مرند) ليكون قريباً من المكان الذي عسكر فيه جيش چفال أوغلي . ومن هناك أرسل عيونَه وجواسيسه لكي يستطلعوا أحوال الجيش العثماني القادم للانتقام من الهزائم السابقة . فأخبره هؤلاء العيون بأن الجيش العثماني يبلغ زهاء المائة ألف جندي . مما جعل الشاه عباس يتوجس خيفة من لقاء الأتراك ، وجَدَّ في جمع أكبر عدد من الجنود حتى وصل تعداد جيشه إلى ما يقرب من اثنين وستين ألف جندي^(١) . وعلى الرغم من ذلك فقد فكر في التراجع صوب تبريز وإحراق كل مظاهر الحياة بين مرند وتبريز . وذلك لكي يصل جيش چفال أوغلي إلى تبريز منهوك القوى . فيستطيع الجيش الصفوي الظفر به ، والانتصار عليه . ولكن قواده رفضوا فكرة التراجع حتى لا يكون ذلك حافزاً للجيش العثماني على مهاجمتهم . فاقترح الهموردبخان القائد العام للجيش الصفوي في ذلك الوقت أن يلزم الجيش الصفوي الدفاع ، وألا يبادر بالهجوم . فاعترض بعض القواد قائلين : إن إحجامنا عن التقدم معناه تشجيع العثمانيين على مواصلة التقدم كما أن الحلم في بعض المواضع ذلة^(٢) .

وأمام إصرار القواد ، أمر الشاه عباس ببده الهجوم ، ورأى أن يقود

(١) لغتنامه شماره ٧٦ ، ص : ٤٢

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ج ، ٨ ، ص : ٣٧٥

الحملة بنفسه . ولكن الهموردينخان رفض ذلك قائلا : « .. من الحكمة أن يظل الشاه بعيدا عن المعركة . فإذا قدر وهزم الجيش الإيراني ، فإن بقاء الشاه عباس على قيد الحياة ، سيحیی الأمل في رد الهزيمة والعودة إلى النصر ، أما إذا شارك الشاه في المعركة وأصيب بمكروه ، فمعنى هذا القضاء التام على إيران أمام الخطر العثماني الزاحف . أضف الى ذلك أن السلطان العثماني لن يحارب المعركة بنفسه ، فلماذا يشارك الشاه عباس بنفسه في هذه المعركة؟ »^(١)

وفي يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من جمادى الآخرة عام ١٠١٤ هـ^(٢) تقدم الجيش الصفوي بقيادة الهموردينخان لملاقاة جيش چغال أوغلي، ودارت معركة طاحنة وصفها رضا قليخان هدايت بقوله: « .. التقى الجيشان، ودارت حرب طاحنة وصلت إلى حد الالتعام بالسيف والخنجر وأصبح القتلى تلالا . وسارت الدماء جداولا . وكانت أصوات مدافع الجيش العثماني تصل إلى الأفلاك ، كما كانت أصوات طبول الحرب الصادرة عن جيش القزلباش تدوى كالرعد وسط الجبال . وارتفع الغبار في ساحة المعركة ؛ حتى لم يعد يرى غير السيف البراق والدم المراق »^(٣)

وأخيرا استطاع الجيش الصفوي تحقيق نصر مؤزر على الجيش العثماني وقد غنم الكثير من آلات الحرب والعتاد والجواهر ، وما يقرب من مائة قطعة من النسيج . وقد وزع الشاه عباس على جنده جميع الغنائم عدا

(١) سفر نامه اتنوير دو كوه ص ٣ ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ، وذلك نقلا عن زندگانی

شاه عباس اول ، ج ٥ ، ص : ٤٥

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ص : ٣٧٤

(٣) المرجع السابق ، ص : ٣٧٥

قطع النسيح التي ضمها إلى حوزته الخاصة . (١)

وبالنسبة لچفال أوغلي فقد تراجع بعد هزيمته الثالثة صوب ديار بكر . وهناك أسلم الروح بعد انقضاء المعركة بيومين فقط . وقال معظم المؤرخين بأنه مات كمداً نتيجة هزائمه المتكررة أمام الجيش الصفوي . ولكن انتونيو دي جوفيا ذكر أنه مات منتحراً، حيث بلغه كذباً بأن السلطان أحمد قد أمر بإهدار دمه ، إذ أن الشاه عباس كان قد استولى على بعض الرسائل التي كانت ترسلها زوجة چفال أوغلي إلى زوجها وهو في ساحة المعركة ، وأمر الشاه عباس بتقليد خط الزوجة وأسلوبها ، وإرسال رسالة على لسانها إلى زوجها چفال أوغلي تتحدث فيها عن إهدار السلطان لدمه ، وأن عقوبة الإعدام ستنفذ فيه بمجرد قدومه إلى العاصمة العثمانية . وما أن تسلم چفال أوغلي الرسالة حتى ظنّها من زوجته وسارع بالانتحار حتى ينهى حياته بيديه مؤثراً الانتحار على تنفيذ عقوبة الإعدام . وهكذا حقق الخطاب المزور الذي أرسله الشاه عباس الغرض منه وتخلص الشاه عباس من خصم عنيد .

. . .

— ٤ —

مفاوضات الصلح :

بعد أن حقق الجيش الصفوي انتصارات باهرة على جيش چفال أوغلي العثماني ، أصبحت الفرصة مهيأة للجيش الصفوي بالتقدم لاحتلال باقي القلاع التابعة للعثمانيين في آذربايجان ، فتقدم هذا الجيش نحو كنجه منتهزاً فرصة ثورة

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص ٢٣٨

حاكمها العثماني ضد الشاه عباس ، واستطاع القضاء عليه وتخطيم قلعة كنججه وذلك في الثامن والعشرين من صفر عام ١٠١٥ هـ (١٦٠٦) (١) ، ثم واصل الجيش الصفوي تقدمه نحو قلعة تفليس لتسخيرها ، فأحسن المحتمون بها استقبال الجيش الصفوي وأعلنوا الدخول في طاعة الشاه عباس دون حرب أو عراق (٢) .

وأمام هذه الانتصارات وتساقط قلاع آذربايجان الواحدة تلو الأخرى ، أدرك الصدر الأعظم الجديد درويش باشا أن مصلحة الدولة العثمانية تقضى بالكف عن منازلة الشاه عباس ، بل يجب الدخول في صلح بين الدولتين ، فلعل الظروف في المستقبل تسمح بأن تشن الدولة العثمانية هجوما واسعا تحقق فيه ما لم تستطع تحقيقه جيوش جفال أوغلي ، فأرسل درويش باشا رسالة إلى الشاه عباس يقترح فيها أن يكتب الشاه للسلطان أحمد الأول للدخول في صلح ، وأن الحكمة تقضى نبذ الخلافات بين الدولتين ، فاستجاب الشاه عباس لطلب الصدر الأعظم درويش باشا ، وأرسل رسولا من قبله إلى السلطان أحمد ، محملا بالعديد من الهدايا ومعه رسالة تتضمن اقتراح الشاه عباس بالدخول في صلح مع السلطان العثماني بنفس شروط معاهدة ٩٦٩ هـ والتي وقعت بين الشاه طهماسب الأول والسلطان سليمان القانوني (٣) .

ولم ينتظر الشاه عباس استجابة السلطان أحمد وموافقته على شروط الصلح التي عرضها في رسالته ، بل أخذ يعمل جادا على تسخير الأجزاء الباقية من

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٥ ، ص : ٥٠ .

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٨٠ .

(٣) تاريخ إيران از مغول تا افشارية ، ص : ٣٢٨ .

آذربايجان لسيطرته ، والقضاء على كل قلعة مازالت تابعة للدولة العثمانية ، فسارعت بعض هذه القلاع بإعلان تبعيتها للشاه عباس دون قتال أو عراق ، فقدثار سكان بادكوبه ودر بند على حكاهم العثمانيين ، وتغلبوا عليهم ، ثم تقدموا للشاه عباس معلنين دخولهم في طاعته ، وهكذا تحقق للشاه عباس احتلال هاتين المدينتين بلا قتال ، وأهم القلاع التي دانت له في منطقة در بند ، قلعة (باب الأبواب) الشهيرة بحصانتها ومنعتها^(١) .

ولكن بعض قلاع آذربايجان رفضت التسليم ، فأعد الشاه عباس عدته لاحتلالها بالقوة المسلحة ، وأهم هذه القلاع قلعة « شماخي » عاصمه إقليم شيروان ، وكانت قلعة تمتاز بصعوبة الوصول إليها ، مما جعل الخوف يسيطر على قواد الجيش الصفوي من مهاجمتها ، وحاولوا التمرد والامتناع عن القيام بهذه المهمة البانفة الصعوبة ، ولكن الشاه عباس أمر عددا من قواده بمهاجمة هذه القلعة دفعة واحدة ، حيث يهاجمها الالهوردبخان من الجانب الشمالي ، ويهاجمها الالهقليخان من الجانب الغربي ، ويتولى ذو الفقار خان مهاجمة بقية جوانبها ، كما يتولى سلاح المدفعية ضربها من بعيد والتمهيد للجيوش المتقدمة لتقوم بواجبها خير قيام^(٢) ، وأخذ الحصار يضيق حول تلك القلعة الحصينة تدريجيا ، حتى استطاع بعض الجنود الصفويين اقتحام أحد أسوارها والدخول إليها . ودار القتال داخل القلعة وخارجها بشراسة وعنفة ، حتى تمكن الجيش الصفوي من تحقيق النصر ، والاستيلاء على هذه القلعة الحصينة في يوم الثلاثاء غرة ربيع الأول عام ١٠١٦ هـ (١٦٠٧ م)^(٣)

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ص : ٣٨٦ - ٣٨٨

(٢) المرجع السابق ، ص : ٣٨٤

(٣) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٥ ، ص : ٥٣

وإلى جانب مهاجمة هذه القلاع الخاضعة للدولة العثمانية ، فإن الشاه عباس كان حريصاً على تأديب جميع القبائل التي تعاونت مع العثمانيين ، لذا نراه يأمر جيشه بشن الهجوم من وقت إلى آخر على القبائل الكردية الثائرة ضده ، والمتعاطفة مع العثمانيين بسبب وحدة المذهب السني فيما بينهما ، ثم انتهر الشاه عباس فرصة لجوء عدة آلاف من الجلاليين الثأرين ضد الدولة العثمانية ، وأسكنهم في المناطق الكردية ، لكي يتولى هؤلاء الجلاليون مساعدة الشاه عباس في القضاء على أي فتنة كردية ، ولكن أمير خان زعيم طائفة برادوست الكردية رفض إقامة هؤلاء الجلاليين في أما كن تجمع طائفته ، وتحصن في قلعة « دمدم » المنيعة ، فكلف الشاه عباس جيشه بمحاصرة تلك القلعة في السادس والعشرين من شهر شعبان عام ١٠١٧ هـ (٥ ديسمبر ١٦٠٨^(١)) ولجأ الجيش الصفوي إلى وسيلة المعهودة في محاصرة أي قلعة حيث قطع إمدادات المياه عنها ؛ مما أدى إلى تضيق الخناق على المحاصرين ، وأخيراً دخل الجيش الصفوي في حرب طاحنة مع الأكراد المتحصنين بالقلعة ، واستطاع التغلب عليهم ، وقتل جميع من ظلوا أحياء بالقلعة بعد فتحها ، كما أخضع الشاه عباس لسيطرته قبادة خان المكري الكردي واستولى على قلعته « كاودولي »^(٢) .

بهذه الانتصارات التي أحرزها الشاه عباس وجيشه ، أصبحت منطقة آذربايجان كلها خاضعة لسلطانه ، ولم يعد في مقدور أي حاكم إقليمي الجهر بمعاداته للبيت الصفوي وللشاه عباس ، لذا أدرك الصدر الأعظم مراد باشا الذي تولى ذلك المنصب بعد درويش باشا بأن المصاحبة تقتضي منه السعي الجاد من أجل عقد معاهدة صلح بين الدولتين العثمانية والصفوية ، بعد أن تعثرت

(١) خلاصة تاريخ الكرد وكرديستان ، ص : ٢٠٣

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص ٣٩٨ - ٤٠٠

محاولات الصدر الأعظم السابق لانعدام الثقة بين الطرفين . فأرسل مراد باشا رسولا إلى الشاه عباس وطلب منه تكرار مراسلة السلطان أحمد لعقد صلح فيما بينهما ، وقد جاء في رسالة الصدر الأعظم للشاه عباس مايلي : « الآن وقد استعاد شاه إيران جميع الولايات التي كان العثمانيون قد احتلوها أيام آباءه ، فمن الخير أن يسمى للصلح وأن يرسل السلطان العثماني في أمر الصلح ونبذ الحرب التي تضعف الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين ، مما يرضى أعداء الإسلام من ملوك أوربا»^(١) . فقبل الشاه عباس رجاء الصدر الأعظم العثماني ، وأرسل عام ١٠١٨ هـ رسالة إلى السلطان أحمد بدعوه إلى نبذ الحرب وعقد صلح بين الطرفين بنفس شروط معاهدة عام ٩٦٩ هـ .

بعد أن توجه رسول الشاه عباس إلى العاصمة العثمانية ، تحرك مراد باشا على رأس جيش كبير العدد قاصدا إيران ، بحجة الدخول في مفاوضات الصلح ، ولكن كثرة عدد الجنود المصاحبين له ، جعلت الشاه عباس يشك في نواياه الحقيقية ، وهل جاء قاصدا الصلح أم متذرعا بالسلام ، ومضمرا نية الهجوم إذا وافته الفرصة ، وبخاصة إذا خدع الشاه عباس بطلب الصلح ، ولم يعد العدة للقتال ، ولكن لانعدام الثقة بين الجانبين أمر الشاه عباس باستنفار الجيوش الصفوية ، وحسن استعدادها لمواجهة أي خطر مرتقب .

وأمام الاستعداد الضخم الذي بذله الشاه عباس وجيشه . بدأ الخوف يقرب إلى قلب الصدر الأعظم مراد باشا ، وتوقف عند الحدود العثمانية الإيرانية ، وأرسل رسالة إلى الشاه عباس يخبره بأنه متقدم لعقد صلح حقيقي وليس في نيته الغدر ، وأنه منتظر من الشاه ما يثبت رغبته في الصلح حتى

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٥ ، ص : ٦٢

يوصل مسيرته صوب تبريز حيث يقيم الشاه عباس . فأرسل الشاه إلى مراد باشا هدية عبارة عن زجاجة من العطر مطعمة بالذهب، وكانت من المصنوعات الهندية النادرة التي أهداها الشاه محمد سليم بن محمد أكبر سلطان الهند إلى الشاه عباس (١).

وبعد تبادل عدة رسائل بين الصدر الأعظم وبين الشاه عباس تقدم مراد باشا إلى تبريز، وأعلن موافقة السلطان العثماني على إبرام معاهدة بين الطرفين على غرار معاهدة ٩٦٩ هـ بين الشاه طهماسب الأول والسلطان سليمان القانوني، وقد تم توقيع هذه المعاهدة عام ١٠٢٠ هـ (١٦١٢ م)، ونصت هذه المعاهدة على ما يلي :

١ - الاعتراف بأن حدود إيران هي ما كانت عليه أيام حكم السلطان سليم الأول، وبذلك يكف العثمانيون عن جميع الادعاءات التي يربطونها بفتوحات كل من السلطانين مراد الثالث ومحمد الثالث (٢).

ب - أن يعلن الشاه عباس استعدادة لتصدير مائتي حمل من الحرير سنويا إلى الدولة العثمانية. (ولكن الشاه لم يف بتصدير الحرير المتفق عليه) (٣).

ج - أن تقوم كل دولة بتحديد ممثلين عنها، لكي تجتمع اللجان المشتركة لتحديد الأراضي الخاصة بكل دولة منهما.

وحدث بعد توقيع المعاهدة أن تمرد بعض جنود مراد باشا، وخرجوا على طاعته واعتدوا على أهالي تبريز، فسارع الجيش الصفوي بالتصدي لهم،

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا، ج : ٨، ص : ٤٠٤

(٢) لغت نامه، شماره ٧٦، ص : ٤٢

(٣) المرجع السابق، ص : ٤٣

والفتك بهؤلاء المتمردين ، وقتل عددا كبيرا منهم ، ولم يؤثر هذا الحادث على المعاهدة التي جد الطرفان في توقيعها، وبعد ذلك عاد مراد باشا إلى الأراضى العثمانية ، ولكن ما أن وصل إلى ديار بكر حتى وافته منيته ، وذلك فى التاسع والعشرين من جمادى الآخرة عام ١٠٢٠ هـ ، وهكذا أسلم الروح بعد أن لاحت فى الأفق بوادر فترة هدوء فى العلاقات بين الدولتين المتصارعتين ، فإلى متى يستمر هذا الهدوء ؟

— ٥ —

الجولة الحربية الثالثة بين الجيشين الصفوى والعثمانى :

نصت معاهدة ١٠٢٠ هـ على أن تجتمع لجان مشتركة لتقوم بتحديد الحدود الفاصلة بين أراضى الدولتين العثمانية والصفوية ، وقامت كل دولة باختيار مفاوضيها ، وأخيراً اجتمعت اللجان المشتركة فى مدينة سلماس بأذربايجان ، ونجح المفاوضون فى تحديد الحدود فى كل من أذربايجان وأرمينيا ، كما اتفقوا على تقسيم بلاد الكرج بين الدولتين^(١) ، ولكن هذا القرار الأخير لم يرق لبعض حكام الكرج السابقين ، ومنهم طهمورث خان حاكم ولاية كاخك التى نصت الاتفاقية على تبعيةها لإيران ، فأخذ يتحين الفرص للانقضاض على حكام المنطقة من قبل الشاه عباس ، وقد وافته الفرصة فى عام ١٠٢٣ هـ وذلك بتدبير مشترك بين طهمورث خان وعدد من باشوات الدولة العثمانية ، لأنه لم يمكن مجرؤ على هذا العمل إلا إذا كان مسبقدا على حماية الدولة العثمانية له^(٢) .

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج : ٥ ، ص : ٦٩

(٢) تاریخ ایران از مغول تا افشاریه ، ص : ٣٣١

وأمام هذا الخطر أمر الشاه عباس جيشه بالإسراع صوب بلاد الكرج لتأديب طهمورث خان ، ومن أيده في ثورته ، فتقدم الجيش الصفوي في عام ١٠٢٥ هـ (١٦١٦ م) ، وعبر نهر الأرس ، ودخل في حرب طاحنة مع جيوش طهمورث خان ، وأشاعوا القتل العام في مدينة كاخت ، وكان مسلك جيش الشاه عباس يتسم بغاية العنف والقسوة ، لدرجة أن الكرجيين مازالوا حتى اليوم يتحدثون عن الشاه عباس ويطلقون عليه اسم « الملمون »^(١) . ومن الأعمال التي فعلها جنود الشاه كذلك أنهم أحالوا جميع كنائسهم إلى مساجد^(٢) ، كما رحلوا عددا منهم إلى منطقة فرح آباد ومنطقة شرف بماندران . بعد ذلك واصل الجيش الصفوي تقدمه في مناطق كرجستان (بلاد الكرج) لإخضاع جميع الثائرين من حكامها ، وكانت حملات الصفويين مركزة على المناطق التابعة لدولتهم كما حددتها اتفاقية عام ١٠٢٠ هـ ، ولكن هذا الجيش كان يضطر أحيانا لمطاردة بعض هؤلاء الأمراء في المنطقه التابعة للدولة العثمانية ، إذا فروا إليها .

الملاحظ أن هذه الاضطرابات ومطاردة الثائرين حدثت ومفاوضات تعيين الحدود مستمرة بين الطرفين ، فكان لهذه الأحداث أثرها على تمر المفاوضات ، حيث اتهم الجانب العثماني الجانب الصفوي بافتعال هذه الهجمات لتقويض المباحثات ، فحاول الشاه عباس توضيح موقفه من الحرب الدائرة في كرجستان ، وأنه لم يأمر جيشه بنقض المعاهدة الموقعة بين الطرفين في عام ١٠٢٠ هـ ، وإنما أمر جيشه بإخضاع الثائرين في المناطق الخاضعة لسلطانة فقط ، وليس

(١) انقراض سلسله صفويه . ص : ٧٥

(٢) ملحقات تاريخ روضه الصفا ، ج : ٨ ، ص : ٤١٦ - ٤٢٠ ، وتاريخ

إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٣١

في نيتهم المهجوم على الأراضي العثمانية ، وليؤكده الشاه صدق نيته أمر بالإفراج عن جميع الأسرى الأتراك الذين اعتقلوا أثناء حروبه ضد الجيش التركي في آذربايجان^(١) .

استطاع الشاه عباس إقناع الصدر الأعظم العثماني نصوح باشا بوجبة نظرة في محاربة طهمورث خان وغيره من أمراء منطقة الكرج ، مما أثار عدا من باشوات الدولة العثمانية ضد نصوح باشا ، واتهموه بالتواطؤ مع الشاه عباس وأثاروا ضده الخليفة العثماني ، فأمر بإعدام نصوح باشا وتعيين صدر أعظم جديد هو محمد باشا^(٢) ، وأمام هذا الحادث المفاجيء زادت صيحات المطالبة بالثأر وإعلان الحرب ضد الشاه عباس ، ومحاولة وضع حد لتطاوله على حلفاء الدولة العثمانية في بلاد الكرج ، وتولى محمد باشا الصدر الأعظم إعداد العدة وتجهيز الجيش للمهجوم على آذربايجان لتأديب الجيش الصفوي المحارب في منطقة الكرج وما جاورها ، وأخيرا تقدم الجيش العثماني في شهر شعبان عام ١٠٢٥ هـ (١٦١٦ م) ، وكان جيشا كثيف العدد والعتاد تولى الصدر الأعظم جمعه من الأمصار التابعة للخلافة العثمانية ، وواصل هذا الجيش تقدمه داخل آذربايجان الإيرانية حتى وصل إلى قلعة إيروان وحاصرها .

طال حصار الجيش العثماني لقلعة إيروان ، دون أن يتمكن من فتحها ، وظل الحصار قائما حتى جاء الشتاء وتساقط الثلوج واشتد البرد ، مما أضعف الروح القتالية لدى الجنود العثمانيين ، كما استطاع الجيش الصفوي قطع طريق الامدادات عن هذا الجيش العثماني المتقدم ، وبالتالي بدأ الجنود العثمانيون يشعرون بأنهم أصبحوا محصورين لامحاصرين ، لذا شعروا بأنهم لن

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج : ٥ : ص : ٧٢

(٢) أحمد بن زين دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ،

ج ٢ ص ١٢٧ . طبع القاهرة ١٣٢٣ هـ

يستطيعوا مواصلة الحصار بدون مؤن منتظمة، فأثروا التراجع مهزومين وعادوا
أدراجهم صوب مدينة وان .^(١)

وأمام هزيمة الصدر الأعظم محمد باشا ، اتهمه أعداؤه السياسيون بالخيانة
والتكاسل عن تحقيق النصر على الشاه عباس ، وتم عزله وتولى مكانه خليل
باشا . ثم تبادل كل من السلطان العثماني والشاه عباس الرسائل من أجل عقد
معاهدة صلح بين الطرفين ، واعلها كانت محاولة لكسب الوقت من جانب
العثمانيين الذين كانوا يبذلون استعدادات قصوى لجمع جيش جديد يتولى قيادته
الصدر الأعظم خليل باشا ، ويتقدم به صوب آذربايجان ، متذرعاً بالرغبة في
عقد معاهدة صلح بين الطرفين ، وفعلوا تقدم خليل باشا بجيش عظيم نحو
آذربايجان ، فبادر الشاه عباس بإحراق كل المحاصيل ووسائل المعيشة في الطريق
الواقع بين ديار بكر وتبريز بل أمر بإحراق تبريز ذاتها ، وإخلائها من جميع
المؤن ، وترحيل جميع سكانها إلى داخل الأراضي الإيرانية ، كما أمر قائد
حاميتها بالتخلي عنها ، والإقامة مع عساكره على الطريق الموصلة بين تبريز
وقزوين ، واعلله قصد بذلك أن يقوم هذا الجيش باعتراض تقدم الجيش العثماني
نحو قزوين إذا فعل ذلك بفرض الاندفاع منها إلى قلب إيران واسقاط الدولة
الصفوية ، أما الشاه عباس فقد عسكر بجيشه في مدينة أردبيل ليكون على
مقربة من ميدان المعارك في آذربايجان عامة وتبريز على وجه الخصوص .

تقدم الجيش العثماني قاصداً تبريز ، وقد انضم إليه عدد كبير من أمراء
الكرجيين الذين آلمهم ما أصاب ديارهم على أيدي الجيش الصفوي ، وتمكنوا
من دخول تبريز بلا مقاومة ، وكانت مفاجأة لهم أن وجدوا المدينة خربة ،

(١) ملحقات تاريخ روضه الصفا ، ج ٨ ، ص ٤٢٠ - ٤٢٣ ، وتاريخ إيران

ز مغول تا افشاريه ، ص : ٣٣٣

خاوية ، لاتصلح للسكنى ، ولا يوجد بها ما يفتتت به الجنود ، وعلى هذا لم يستطيعوا البقاء بها إلا لمدة خمسة أيام فقط ، ثم تخلوا عنها وعسكروا إلى جوارها ^(١) وبدءوا يخططون لمواصلة الهجوم بغية احتلال جميع مدن إيران .

وأثناء هذه الاستعدادات ، أرسل خليل باشا رسولا من قبله صوب الشاه عباس ، وحمله رسالة حدد فيها شروطه لعقد صلح بين الدولتين ، ونصح الشاه بقبولها حتى يكف عن مواصلة التقدم وإسقاط الدولة الصفوية ، وهذه الشروط هي ^(٢) .

١ - أن يرسل الشاه عباس مقدارا من الحرير يتراوح ما بين مائتين إلى ثلاثمائة رحل كخراج سنوي يدفع للسلطان العثماني .

٢ - أن يعيد الشاه عباس إلى حوزة الدولة العثمانية جميع الأجزاء الغربية من آذربايجان ، وأرمينيا وشكي وشروان وبلاد الكرج وقراباغ ، وهي الولايات التي استعادها الشاه عباس ، بعد أن كانت تحت تصرف العثمانيين منذ عهد السلطان محمد خدابنده .

٣ - أن يرسل الشاه عباس أحد أبنائه كرهينة يقيم في اسطانبول ، كما فعل في بداية حكمه ، حيث وافق على إرسال حيدر ميرزا ابن أخيه حمزة ميرزا ، بعد معاهدة عام ٩٩٨ هـ .

والملاحظ أن هذه الشروط نبعت من إدراك خليل باشا أن الجيش الصفوي ان يقوى على مجابهته ، وأن الهزيمة واقعة بهم دون أدنى ريب ،

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٥ ، ص : ٨٣ ، ٩١

(٢) المرجع السابق . ص : ٨٥ ، ٨٦

فليس أمامهم إلا القبول والإذعان لشروطه ، وقد بدأ الصدر الأعظم بالتركيز على التحرير الإيراني ذي الشهرة الكبيرة ، وبخاصة أن الشاه عباس كان قد تعهد في معاهدة ١٠٢٠ هـ على أن يزود السلطان العثماني بمائتي حمل من التحرير ولكنه لم يف بوعده ولم يرسل أى حمل منه مما جعل خليل باشا يطالبه بالتعهد بتوريد الكميات المتفق عليها سابقا ، بل وزيادتها إلى ثلاثمائة حمل مما يؤثر على هذه التجارة الإيرانية الرائجة مع العالم المسيحي الأوربي ، ويؤثر على العلاقات الودية بين الشاه عباس وملوك أوروبا الخريصين على هذا التحرير الإيراني ، كما أن الشرط الثاني الخاص بإعادة أراضي آذربايجان وأرمينيا وغيرها إلى حوزة الدولة العثمانية ، ليس من المعقول أن يوافق الشاه عباس عليه وإلا ، فلم كانت الحروب السابقة ؟ ولم أزهدت أرواح الكثيرين من جنود الدولة الصفوية في سبيل استعادتها من الدولة العثمانية ؟ . وبالنسبة للشرط الثالث ، فقد سبق أن طالبت به الدولة العثمانية عام ١٠٠٧ ، ورفضه الشاه عباس على الرغم من أنها كانت تسيطر على آذربايجان والعراق العجمي^(١) فهل يعقل أن يقبله الشاه عباس وقد أحرز العديد من الانتصارات عليهم ؟ .

وكان الرد المنطقي أن يرفض الشاه عباس هذه الشروط التي تعد وثيقة استسلام وخضوع إذا قبلها ، واكتفى بإبداء استعداده لإرسال مائة حمل من التحرير مرة واحدة كهدية منه إلى السلطان العثماني ، وليس بمقابلة خراج واجب الدفع في كل عام .

وأمام هذا الرفض أصبحت المعركة حتمية بين الطرفين ، فبذل العثمانيون المزيد من الاستعداد لمجابهة الجيشين الصفويين المسكرين في كل من أردبيل

(١) أنظر ص: ٣٢٦ من هذا الكتاب

وطريق تبريز قزوین ، فی حین کان الشاه عباس یسارع بإجلاء سكان أردبیل خوفا من سقوطها فی أیدی العثمانيين و بعد العدة لإحراقها . وفجأة یرز من بین الجيش الصفوی قائد يدعی علیک ، وبقنع بقية القواد بضرورة الهجوم المباغت علی الجيش العثماني المعسكر بجوار تبريز ، حتی ولولم يأذن الشاه عباس بذلك ،^(١) وفعلأ أسرع قواد عباس بالتحرك بجيوشهم من أردبیل إلى تبريز وانضم إلیهم الجيش الآخر المعسكر فی طريق قزوین ، وعلى مقربة من تبريز نظموا صفوفهم ، وقسموا أنفسهم إلى أجنحة يتولى كل جناح مهاجمة جانب من جوانب معسكر القوات العثمانية ، وفجأة هجموا من جميع الجهات علی القوات العثمانية بصورة مباغثة وقبل أن يستكملوا استعداداتهم للتقدم ، بل وقبل أن یكتشفوا تقدم الجيوش الصفوية للهجوم علیهم فكانت المفاجأة القاتلة للجنود الأتراك ، مما كبدهم خسائر جسيمة فی الأرواح ، وصلت إلى خمسة عشر ألف قتيل ،^(٢) وهكذا منی خليل باشا وجيشه بهزيمة لم یکن يتوقعها أحد علی الإطلاق .

وهكذا منیت الجيوش العثمانية بقيادة خليل باشا بهزيمة نكراء ، كما هزمت جيوشها بقيادة كل من علی باشا فی عام ١٠١٢ هـ ، وچفال أوغلی فی عام ١٠١٤ هـ ، ومحمد باشا فی عام ١٠٢٥ هـ ، مما جعل میزان القوة فی منطقة آذربایجان یتحول إلى صالح الشاه عباس ، وتفقد الدولة العثمانية القدرة علی مجابهة الجيش الصفوی فی آذربایجان طول بقية حکم الشاه عباس ، كما حرصت الدولة العثمانية بعد هذه الهزيمة علی توقيع معاهدة جديدة ، لیسود السلام فی منطقة آذربایجان ولتتفرغ لحروبها فی أوروبا ، لذا أرسل خليل باشا فی طلب

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٥ ، ص : ٩٢

(٢) تاریخ ایران از مغول تا افشاریه ، ص : ٣٣٢

الصلح؛ فقبل عباس توقيع معاهدة جديدة وذلك في التاسع من شوال عام ١٠٢٧ هـ (٢٧ من سبتمبر عام ١٦١٨ م) ^(١)، وقد تضمنت هذه المعاهدة نفس شروط معاهدة ١٠٢٠ هـ، مع تعهد الشاه بالوفاء بتصدير مائة حمل من الحرير سنويا ^(٢).

وبهذه المعاهدة الجديدة انتهت الجولة الثالثة من الحروب بين الدولتين الصفوية والعثمانية في آذربايجان، وساد الهدوء هذه المنطقة حتى آخر حياة الشاه عباس، ولكنه انتقل بعد ذلك إلى ساحة أخرى، وهي منطقة العراق العربي.

* * *

- ٦ -

الجولة الرابعة واستيلاء الشاه عباس على بغداد :

وبعد أن هدأت الحروب الدائرة في آذربايجان، واطمأن الشاه عباس على تثبيت حكمه في كل من آذربايجان وأرمينيا وبلاد الكرج، بدأ يهتم بمعالجة بعض المشاكل الأخرى، من هذه المشاكل استرداده جزيرة هرمز وغيرها من الموانئ الهامة التي كان البرتغاليون يسيطرون عليها في منطقة الخليج، واسترداده كذلك قندهار التي كانت تحت حكم ملوك الهند ^(٣)،

(١) خلاصة تاريخ الكرد وكرديستان، ص: ٢١١

(٢) لغت نامه: شماره ٧٦، ص: ٤٣

(٣) ستعرض للحديث عن هذه الأحداث بعد قليل.

وبعد أن فرغ من استرداد قندهار توجه صوب خراسان ، ليتفقد أحوالها ، بعد انشغال دام عدة سنوات بسبب حروبه في آذربايجان وغيرها من المناطق في إيران ، وأقام بهراة فترة حتى وصلتته أنباء حدوث فتن واضطرابات في العاصمة العثمانية ، حيث تم اغتيال السلطان عثمان الثاني عام ١٠٣١ هـ (١٦٢٢م) وأعيد تنصيب السلطان مصطفى الأول مرة أخرى (١). كما وقعت اضطرابات أخرى في مدينة بغداد ، حيث ثار أحد القواد فيها ويدعى بكر الصوباشي على حاكمها العثماني يوسف باشا ، وقتله ، وسيطر على بغداد معلنا تحديه للحكومة المركزية في اسطنبول ، مما دفع السلطان العثماني لإرسال جيش عثماني بقيادة حافظ باشا حاكم ديار بكر لكي يتولى تأديبه والإطاحة به ، فسارع بكر الصوباشي بمخاطبة الشاه عباس ، وحثه على الإسراع نحو بغداد لكي يسلمها له ويكون تابعا لسلطانه (٢).

شعر الشاه عباس بعد أن تسلم رسالة بكر الصوباشي ، بأنها فرصة ثمينة لا يجب أن يضيعها من يديه ، وذلك لكي يعيد بغداد إلى حكم الدولة الصفوية بعد أن سيطر عليها العثمانيون عام ٩٤٤ هـ في زمان الشاه طهماسب الأول (٣) ولكي تصبح مزارات الشيعة في كربلاء والنجف تحت تصرفه ، ويكون للطريق مفتوحا أمام شيعة إيران لزيارة هذه المزارات المقدسة .

أسرع الشاه عباس بالعودة إلى أصفهان حيث اجتمع في جمع أكبر عدد من الجنود وتقدم بهم صوب بغداد متذرا بالارغبة في زيارة العتبات الشيعية المقدسة ، ونحفا الفرض الحقيقي من تقدمه ، وعندما وصل إلى مشارف بغداد

(١) الفتوحات الإسلامية بعد الفتوحات النبوية ، ج ٢ : ص ١٣١

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٣) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص ٤٣٢

عسكر هناك ؛ وأرسل إلى بكر الصوباشى عددا من رسله لكي يسلمهم مفاتيح مدينة بغداد وحملهم إليه هدية عبارة عن عمامة القزلباش، على اعتبار أنه أصبح من رجاله المقربين ، ولكن حدث ما لم يكن يتوقعه الشاه عباس، إذ أقدم بكر الصوباشى على قتل رسل الشاه عباس ووطىء عمامة القزلباش بدميه، وذلك لأنه كان قد استعاد صلته بالدولة العثمانية قبل قدوم الشاه عباس ، وثبتوه على حكم بغداد (١) .

أمام هذا الغدر الذى تعرض له الرسل الإيرانيون ، أمر الشاه عباس بشن الهجوم على بغداد ، وتقدم جيشه وحاصرهما ، فأمر بكر الصوباشى بإطلاق مدافع قلعة بغداد عليهم ، كما راسل حافظ باشا والى ديار بكر ، ليطلب منه النجدة ، فأرسل حافظ باشا بعض قواته لمساعدته ، ولكن الجيش الصفوى استطاع قطع الطريق على هذه القوات ، ومنعها من الوصول إلى بغداد ، مما جعل الأمور تسوء بالنسبة لبكر الصوباشى ومن معه ، ولكنهم واصلوا الدفاع ولم يستسلموا ، مما دفع الشاه عباس إلى اللجوء للمكر والخديعة لاحتلال المدينة كما يقول بعض المؤرخين (٢) .

وتفصيل ذلك أن الشاه عباس استطاع أن يستميل إليه محمد بن بكر الصوباشى ، واتفق معه على التعاون المشترك فيما بينهما فى الاستيلاء على بغداد مقابل أن يعينه الشاه عباس حاكما عليها بعد إقصاء أبيه عن حكمها ، واتفقا على أن يفتح محمد بن بكر أبواب القلعة بالليل ، ايندفع جنود القزلباش إلى داخل القلعة ، ويستولوا عليها ، وقد تم تنفيذ هذه الخيانة فى ليلة الثالث

(١) الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، ج ٢ ، ص : ١٣١

(٢) المرجع السابق ، ص : ١٣٢ ، وخلاصة تاريخ الكرد وكرديستان ،

والعشرين من شهر ربيع الأول عام ١٠٣٢ هـ (١٦٢٣ م) ^(١) ، حيث فوجيء جنود الحامية بالجيش الصفوي يقف بينهم ، وقد باغتهم وقتل عددا كبيرا منهم ، مما أفقدهم أترانهم . وخارت قواهم المعنوية ، وفترت قوتهم القتالية ، فتعقق النصر لجيش الشاه عباس . وتمكنوا من أسر بكر الصوباشي واقتياده مكبلا بالقيود صوب الشاه عباس الذي أغلظ القول معه ، وعنفه على غدره به وقتله رسله . ثم أمر بوضعه في قارب مليء بالزفت والكبريت وأن تضرم فيه النيران ؛ ليأتهب في دجلة أمام الناس ^(١) .

وكان محمد بن بكر الصوباشي يتوقع أن يعهد إليه الشاه عباس بحكم بغداد ، ولكن الشاه عباس أمر بإرساله إلى خراسان ، وأمر بقتله هناك ^(٢) . وهكذا جنى ثمار غدره وخيانتته لأبيه ، وهل يعقل أن يبقية الشاه عباس في بغداد ، لكي يشور ضده ويخونه كما خان أبيه من قبل ؟ وهل يعقل كذلك أن يحافظ الشاه عباس على عهده معه ويبقيه على قيد الحياة ، وهو الذي سفك دماء أبنائه وتخلص منهم حتى لا ينافسه أحد في الانفراد بالعرش ^(٤) ؟

في نفس الوقت الذي شغل فيه الشاه عباس بفتح بغداد ، وتثبيت حكمه فيها ، أمر بعض قواده بالتوجه صوب الأجزاء الشمالية من العراق ، فتوجه بعضهم لفتح الموصل وتوجه آخرون لفتح كركوك . واستطاعوا إنجاز المهام التي كلفوا بها ، وهكذا استطاع جيش الشاه عباس السيطرة على معظم مناطق

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٥ ، ص : ١١٦

(٢) الفتوحات الاسلاميه بعد الفتوحات النبويه ٢ ص : ١٣٢

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٤) أنظر ص : ٢٣١ ، وما بعدها من هذا الكتاب

العراق العربي ، مما أشعر الشاه عباس بالفخر والاعتزاز ، وقد ظل فترة في النجف ثم عاد أدراجه صوب العاصمة أصفهان .

أما عن السلطان العثماني مراد الرابع (١٠٣٢ - ١٠٤٩ هـ = ١٦٢٣ - ١٦٤٠ م)^(١) فقد أصدر أوامره إلى حافظ باشا حاكم ديار بكر ، لكي يتوجه صوب بغداد على رأس جيش كبير لطرد الجيش الصفوي من بغداد وغيرها من مدن العراق^(٢) فتقدم حافظ باشا ، واستولى على كل من كربلاء والحلة ، ثم تقدم صوب بغداد في التاسع من شهر صفر عام ١٠٣٤ هـ (١٦٢٥ م)^(٣) ، وأخذ يناوش القزلباش العسكريين في حاميتهما ، فسارع الشاه عباس بإرسال الإمدادات العسكرية إلى جنوده في بغداد مما أطال فترة المناوشات بين الجانبين ، حتى وصلت إلى سبعة أشهر دون أن يحقق أحد الجانبين نصراً على الجانب الآخر ودون أن يدخلوا في معركة فاصلة^(٤) .

ثم أرسل حافظ باشا إلى العاصمة العثمانية بطلب إمدادات عسكرية ومؤن ، وفعلاً أرسلت الحكومة المركزية إليه كل ما طلب ، ولكن جنود القزلباش استقطاعوا قطع الطريق على جيش الإمداد العثماني ، بل وأخذوا يهاجمون جيش حافظ باشا من الخلف ، مما جعل مهمة الجيش العثماني صعبة حيث يواجه قوات صفوية أمامه ، ويحارب قوات صفوية أخرى تشن هجمات على مؤخرته ، لذا تقدم حافظ باشا بطلب للصالح على أساس الاعتراف

(١) سلسلة های إسلامی ، هی : ٢٠٩

(٢) ملحقات تاریخ روضه الصفا ، ج ٨ ، ص : ٤٣٤

(٣) زندگانی شاه عباس اول ، ج : ٨ ، ص : ١١٧ - ١٢١

(٤) ملحقات تاریخ روضه الصفا ، ج ٨ ، ص : ٤٢٤

بسلطان الشاه عباس على بغداد والأماكن المقدسة في العراق ، فوافق الشاه عباس على ذلك ، وهياً للجنود العثمانيين طريق العودة دون الاعتداء عليهم.

وهكذا فشلت محاولات الدولة العثمانية في استعادة بغداد ، حيث ظلت تابعة للبلاط الصفوي طوال الفترة الباقية من حكم الشاه عباس ، ولمدة عشر سنوات أخرى بعد وفاته ، حيث استطاع العثمانيون استردادها عام ١٠٤٨ هـ

. . .

تعقيب على العلاقات الصفوية العثمانية في عهد الشاه عباس :

لقد مرت العلاقات الإيرانية العثمانية خلال حكم الشاه عباس [٩٩٦-١٣٠٨ = ١٥٨٨ - ١٦٢٩ م] بثلاث مراحل متميزة ، بدأت المرحلة الأولى منذ تولى الشاه عباس الحكم وحتى عام ١٠١١ هـ ، وقد اتسمت هذه المرحلة بالخضوع والاستسلام ، حيث اعتلى الشاه عباس العرش والقوات العثمانية تسيطر على آذربايجان وكثيراً من أراضي منطقة العراق المعجمي ، كما أن قواتهم تقدمت لاحتلال بقية أراضي الدولة الصفوية وإسقاط الشاه عباس وذلك عندما تقدم بجيوشه لصد الهجمات الأوزبكية على خراسان ، فحرص الشاه عباس على خطب ودم وممالأتهم والتفازل لهم عن حكم جميع المناطق التي يحتلونها في غربى إيران ، وكانت معاهدة ٩٩٨ هـ في الحقيقة وثيقة خنوع واستسلام من جانب الشاه عباس .

أما المرحلة الثانية ، فهي مرحلة من الصراع المرير من أجل التحرير ، وفيها انتقلت الدولة الصفوية من دور الخانع المستسلم إلى دور الندية والمجابهة العسكرية ، وقد استمرت هذه الفترة منذ عام ١٠١١ هـ حتى عام ١٠٣٢ هـ

حيث كانت المعارك تدور رحاها داخل أراض إيرانية يحرص الشاه عباس على تحريرها وتخليصها من الاحتلال العثماني ، دون التفكير في الاعتداء على أراض عثمانية وقد استطاع الشاه عباس تحرير الأراضى التي تنازل عنها في معاهدة ١٠٩٨ هـ ، وبدأ يتعامل بندية مع العثمانيين ، مما رد الإيرانيين - كما يقولون - عزتهم وكرامتهم .

والمرحلة الثالثة وهى مرحلة الهجوم وقد بدأت عام ١٠٣٢ هـ واستمرت حتى وفاة الشاه عباس عام ١٠٣٨ هـ ، وفيها استطاع احتلال أجزاء كبيرة من الأراضى العراقية ، واقتطاعها من السيطرة العثمانية ، ومن هذه الأراضى العراقية بغداد و كربلاء والنجف حيث توجد المزارات الشيعية المقدسة وكذلك الموصل و كركوك فى شمال العراق ، وقد كان لهذا الهجوم واحتلال تلك المناطق أثرها العميق فى شعور الإيرانيين بالاعتزاز والرفعة لاستيلائهم على المزارات الشيعية ولأنهم أصبحوا قادرين على منازلة العثمانيين واقتطاع أجزاء من الأراضى التابعة لدولتهم ، مما أعطى الهيبة لإيران ، ولمذهبها الشيعى ، وبخاصة أن العداء - كما يقول بروان - أساسه مذهبي ، وليس اختلاف اللغة ولا الأصل^(١) .

ولعل تطور هذه العلاقات وانتقالها إلى مرحلة الهجوم الصفوى على الأراضى العثمانية ، كان من أهم الأسباب التى جعلت الإيرانيين يمجدون الشاه عباس ويفخرون به حتى اليوم ، كما جعلت أوروبا المسيحية تهتم دائماً بشخصية الشاه عباس الذى قدم لهم - عن طريق حروبه مع الدولة العثمانية - خدمات جليلة ، حيث أتاح للأوروبيين الفرصة لالتقاط الأنفاس ، وتجميع الصفوف لمحاربة الدولة العثمانية ، ولولا هذه الحروب العثمانية الإيرانية لأتمت

(١) تاريخ ادبيات إيران ج : ٤ ، ص : ٢٥ ، ٢٦

الجيش العثمانية اجتاح اراضي جميع الدول الأوربية ، ولتغير تاريخ أوروبا كلها ، ولهذا كان الصراع الصفوي العثماني المحور الأساسي للتقارب بين ملوك الدولة الصفوية - وبخاصة الشاه عباس - وبين عدد كبير من ملوك أوروبا ، وسنرى أثر هذا الصراع على العلاقات الإيرانية الأوربية في الفصل القادم .

ثالثا : حروب الشاه عباس مع الدولة المغولية في الهند

بدأت صلات الصفويين بمغول الهند منذ عهد الشاه اسماعيل الأول ،
وساعد على تقويتها عداء الطرفين للأوزبك ، ومحاولتهما القضاء على هذا
العدو المشترك ، وظلت صلات الود قائمة بين الدولتين إلى أن استولى الشاه
طهماسب الأول على قندهار عام ٩٤٣ هـ (١٥٣٥ م) فأسند أمرها إلى ابن
أخيه حسين ميرزا بن بهرام ميرزا بن الشاه اسماعيل الصفوي^(١) ونتيجة لهذا
الاعتداء ساءت العلاقة بين الدولتين ، وظلت على هذا السوء طوال عصر
الشاه طهماسب ، وخلال فترة حكم كل من الشاه اسماعيل الثاني ، والسلطان
خدا بنده^(٢) ، وإن لم يتفجر الموقف في صورة حرب سافرة بين الجانبين .
وخلال هذه الفترة الطويلة كان الشاه جلال الدين أكبر ملك الهند^(٣) ،

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص ٣٦٣

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٤ ص : ٨٠

(٣) هو جلال الدين أكبر الأول حفيد بابر مؤسس دولة المغول في الهند ،
وهو من التركمان الچغتائيين ويصل نسبه من ناحية الأب إلى تيمور لنگك ،
وقد حكم أكبر شاه فترة طويلة امتدت ما بين عامي ٩٦٣ - ١٠١٤ هـ (١٥٥٦ .
١٦٠٥ م) ، وولد أكبر عن أب سني وأم شيعية . ولكنه شغل نفسه كثيرا
بعلوم أهل السنة حتى التق بأحد حكماء زمانه . فبدأ يدرك الكثير من المسائل
الفلسفية والأسرار الصوفية ، فحاول التقريب كثيرا بين المسلمين والهندوكيين
في دولته ، لدرجة أنه حاول إيجاد مذهب جديد أطلق عليه المذهب الإلهي ،
حيث يتم التوحيد بين جميع الأديان دون تفرقة ، ودعوته هذه جعلته متساعفا
مع الجميع ، مهما اختلفت مذاهمهم ، ولكن دعوته هذه لم تنجح في حمل الناس =

يتلمس الفرص لكي يسترد قندهار ، حتى أنه في عام ٩٩٥ هـ (١٥٨٧ م) أمر قواته بالاستيلاء على السند والملتان ومنـازل البطهان ، لتطل منها على قندهار ، التي كان يمني النفس منذ أمد بعيد باسترجاعها من الفرس (١) ، وأخيراً وافته الفرصة عام ٩٩٨ هـ (١٥٩٠ م) ، حين تمرضت الدولة الصفوية في بداية حكم الشاه عباس لهجوم أوزبكي من الشرق وهجوم عثماني من الغرب ، مما أدى إلى انشغال الشاه عباس بصد هذين المهاجمين ، وإهماله تدعيم صلواته بحكام قندهار ، مما دفع كلا من مظفر حسين ورستم ميرزا ابني حسين ميرزا حفيد الشاه اسماعيل ، للاجوء إلى أكبر شاه ظنا منهما بأنه حليف الشاه عباس وسيمدهما بالعون والقوات لمساندتهما أمام أي هجمة أوزبكية ولكن خاب ظنهما ، حيث أمر أكبر باستبقائهما في الهند ، وإسناد أمر قندهار إلى حاكم من أسرته يدعى شاهي بيك الجفتائي (٢) .

علم الشاه عباس بما أقدم عليه جلال الدين أكبر ، ولكنه لم يستطع أن يفعل أي شيء لانشغاله بمحاربة الأوزبك والعثمانيين ، لذا آثر أن يخطب ود أكبر ؛ لعله يساعده في حروبه ضد الأوزبك أو لعله يرد إليه قندهار دون عراق أو نزال ، وإن لم يتحقق هذا أو ذاك ، فليترك مشكلة قندهار مؤقتاً

== على تغيير معتقداتهم ، ونبذ الخلافات العقائدية فيما بينهم ، مما حكم على المذهب الإلهي بالموت . انظر : سلسلة هاي إسلامي ص ٣٠٥ وما بعدها ، ودكتور أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهند وباكستانية وحضارتهم الطبعة الثانية عام ١٩٧٠ ص : ٣٢٦ .

(١) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهند وباكستانية وحضارتهم ،

ص : ٣٢٣

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ؛ ص ٣٦٣ .

حتى يفرغ من باقى أعدائه فى الداخل والخارج ، وبعد ذلك ينتهز أى فرصة مواتية ليطرد الحاكّم الهندى من قندهار ، ويعيدها إلى حوزته من جديد .
وأثناء هذه الفترة من الترقب كان الشاه عباس يلجأ أحياناً إلى أسلوب جمع المعلومات عن قوة أكبر وحكومته ، لعله يجد ما يشجعه على الهجوم فى أى وقت ، فقد أرسل الشاه عباس عدة رسل إلى بلاط أكبر ، ومنهم « يادكار سلطان روملو » الذى حمّله العديد من التحف والهدايا ، وكلفه بجمع المعلومات الكافية عن حكومة أكبر أثناء إقامته فى بلاطه^(١) ، وليخفى غرضه الحقيقى حمّله رسالة إلى أكبر شاه يطلب فيها إعادة العلاقات إلى سابق عهدهما من الازدهار وتقديم العون له فى محاربتة للأوزبك ، كما كان الحال خلال عصر الشاه اسماعيل الأول فى حروبهما المشتركة ضد الأوزبك^(٢) .

أحسن أكبر استقبال مبعوث الشاه عباس ، واستبقاه فى الهند مدة خمس سنوات كاملة ، ولكنه امتنع عن تقديم أى عون عسكرى لمساندة الشاه عباس فى حروبه مع الأوزبك ، حيث كان قد عقد معاهدة صداقة بينة وبين الأوزبك ، ولهذا لم يكن من الحكمة أن يساند الشاه عباس وينقض معاهدته معهم ، وبخاصة أن مسلك عباس مع قواده وكبار رجال دولته مع أصعب المذاهب المختلفة ، لم يعجب أكبر شاه ، لذا نجده يكتب فى رسالة رسالة ينصح فيها الشاه عباس بالحسنى مع الجميع ، وبضرورة التخلّى عن أسلوب البطش برجال دولته ، وعدم سفك الدماء بلا جريرة ، كما يجب الابتعاد عن التعصب المذهبى ، وأن يكون عطوفاً مع الخلق جميعاً ، مهما اختلفت مذاهبهم^(٣) .

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، : ص ٣٥١

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ : ص ٢١٧

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٣٢٠

ظل الشاه عباس وأكبر شاه يتبادلان الرسائل والهدايا حتى جاء عام ١٠١٤هـ (١٦٠٥ م) وتوفي أكبر شاه ، وتولى مكانه ابنه نور الدين جهانكير (١٠١٤ - ١٠٣٧هـ - ١٦٠٥ - ١٦٢٨ م)^(١) ، فأراد الشاه عباس اختبار الموقف في قندهار ، نتيجة لانشغال حكومة المغول الهندية بوفاة ملك وتولى آخر ، فأمر بعض قواته بالتقدم صوب قندهار ، فتقدمت هذه القوات الصفوية واستطاعت الاستيلاء على (بست) من أعمال قندهار ، مما أغضب شاهي بيك حاكم قندهار الهندي ، فسير حملة لطردهم ، ونشبت معركة بين الطرفين انتهم بهزيمة الجيش الهندي ، فحاول شاهي جمع جيش جديد ، ومعاودة الحرب ، ولكنه منى بهزيمة ثانية ، مما ثبت دعائم حكم الشاه عباس في بست^(٢) .

بعد ذلك شغل الشاه عباس بحروبه في آذربايجان وشروان ، كما شغل جهانكير ببعض الأحداث في الهند ، مما أوجد نوعا من الفتور في العلاقات ، إلى أن جاء عام ١٠١٨هـ (١٦٠٩ م) فأرسل الشاه عباس رسولا من قبله إلى بلاط جهانكير وحمله العديد من الهدايا والنفائس . وأعطاه رسالة تضمنت العزاء في وفاة أكبر ، والتهنئة بقولي جهانكير الحكم . فعادت الصلات الودية مرة أخرى ، وكثر عدد الرسل المترددين بين العاصمتين الهندية والصفوية ، كما كثرت الهدايا المتبادلة ، لدرجة أن إحدى بعثات الصداقة الهندية وفدت إلى أصفهان وقد أحضرت معها قدرا كبيرا من الهدايا التي حملها أكثر من سبعمئة مبعوث هندي ، وكان ذلك في عام ١٠٢٦هـ^(٣)

(١) سلسلة هاري إسلامي ، ص : ٣٠٥

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٦٤

(٣) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ٦٣ ، ٩١

على الرغم من الصلات الودية والإكثار من تبادل السفراء ؛ لم يغيب عن بال الشاه عباس ضرورة استعادة قنندرها ، سِلماً كان ذلك أم حرباً ! لذا كان حريصاً على الإشارة إلى قنندرها في معظم الرسائل التي بعث بها إلى جافنكير ، كما كان يفعل نفس الشيء في رسائله لأبيه أكبر ، ولكنها كانا يتجاهلان هذه الإشارات والتلميحات ، لذا أرسل في عام ١٠٢٩ هـ أحد سفرائه لكي يتفاوض مع وزراء جهانكير بشأن استعادة قنندهار ، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل كذلك . حيث كانت المفاوضات عقيمة وبلا جدوى .

وأمام فشل المحاولات السلمية ، بدأ الشاه عباس يفكر في اللجوء إلى القوة لاسترداد قنندهار ، لذلك سافر إلى خراسان ، ثم خرج محاطاً بالعديد من جنوده إلى أطرافها معلناً أنه خارج للصيد والتجول فتوجه نحو حدود قنندهار ، ومن هناك أرسل رسالة إلى واليها الهندي يخبره فيها برغبته في التجول بأحاء قنندهار ، ولكن الوالي الهندي رفض طلبه قائلاً . . من الأفضل أن تعود إلى خراسان مرة أخرى ؛ لأنني وقوادى لانملك من تصرف غير منعكم ومقاومتكم . . . فانهز الشاه عباس هذا الرفض وسارع بمهاجمة قنندهار ، ومحاصرة قلعتها ، وكان ذلك في يوم الأربعاء الثامن من رجب عام ١٠٣١ هـ (١٦٢٢) (١) .

لاشك أن الشاه عباس قد أحسن اختيار الوقت الذي هاجم فيه قنندهار ، وذلك لأنه أقدم على القيام بهذه الحملة وقد استطاع التخلص من هجمات الأوزبك والعثمانيين ، واسترد جميع المناطق التي كانوا قد استولوا عليها في بداية سني حكمه ، كما استطاع التغلب على القوات البحرية البرتغالية في جزيرة هرمز

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٠٠

وغيرها من جزر الخليج العربي^(١) ، ولاشك أن هذه الانتصارات أعطته ثقة كبيرة في نفسه وجنده ، وهذه الثقة كفيلة بأن تقوده من نصر إلى نصر ، وانتصاراته أيضا ستكون خير دعاية له لدى جنود قلعة قندهار ، مما يلقي الرعب في قلوبهم ويسهل مهمة الجنود الصفويين في الاستيلاء عليها ، كما أن الوقت كان مناسباً من حيث ظروف الدولة المغولية الهندية نفسها ، حيث ثارت خلافات حادة وعلنية بين جهانكير وابنه الأمير خرم المشهور باسم شاهجهان بسبب وشايات زوجة الأب المتكررة ، وحرصها على إبعاد شاهجهان عن ولاية العهد ، وإسنادها إلى الأمير شهربار أصغر أبناء جهانكير ، وزوج ابنتها من زوجها السابق الأمير شيرافكن^(٢) .

واستثمر الشاه عباس هذا الخلاف لصالحه وسارع بالهجوم المباغت على قندهار واحتلها ، وتأكدت توقعاته من حيث أن هذا الخلاف سيجعل العاصمة الهندية مشغولة عن قندهار ، فقد تخوف جهانكير من ترك العاصمة والتوجه صوب قندهار لطرد الصفويين ، حتى لا ينتهز ابنه شاهجهان الفرصة ويستولى على الحكم ، كما امتنع الابن عن تنفيذ أوامر أبيه للخروج على رأس حملة عسكرية لطرد الشاه وجيشه ، خوفاً من أن تنجح زوجة أبيه في تنفيذ مخططاتها الرامية إلى إقصائه عن ولاية العهد . وهكذا كان هذا الخلاف الأساس الذي وفر لخطة الشاه عباس بالاستيلاء على قندهار فرص النجاح .

بعد أن نجح الشاه عباس في السيطرة على قندهار ، وثبت دعائم ملكه

(١) سنعرض لذلك أثناء الحديث عن العلاقات الصفوية البرتغالية في

الفصل التالي

(٢) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهند وباكستانية . ص : ٣٥٩

فيها وخطب فيها باسم الأئمة الإثني عشرية^(١) ، بادر بمراسلة جهانگیر ، ليلاطفه ويعيد جو الود فيما بينهما ، وليقطع عليه أى فرصة للمطالبة باستعادة قندهار مرة أخرى ، فما كان من جهانگیر إلا أن أحسن استقبال رسول الشاه عباس ، ولعل السبب فى ذلك تأكد جهانگیر من عدم قدرته على منازلة الشاه عباس وجيشه ، بعد أن رفض ابنه قيادة الحملة التى جهزها لمحاربة الصفويين وطردهم من قندهار ، فأثر إظهار الود والمداراة مادام لا يملك وسائل العراك ومقوماته ، ولهذا ظلت العلاقات بين الشاه عباس وجهانگیر متممة بالود والمجاملات إلى أن توفيا ، حيث كانت وفاة جهانگیر عام ١٠٣٧ هـ ، ووفاة عباس عام ١٠٣٨ هـ .

. . .

وهكذا كانت العلاقات بين الشاه عباس وملوك الهند متممة بالود فى أغلب فتراتهما ، ولكنه الود الذى يخفى تحته الترقب والانتظار أملا فى الاستئثار بحكم منطقة قندهار المتنازع عليها فيما بين الدولتين ، ولعل التسامح الدينى الذى كان يتميز به حكام الهند قد خفف من حدة العداء ، فلو كان أكبر متعصبا لانتهز فرصة الهجومين الأوزبكي والعثماني ، وواصل زحفه على الأراضى الإيرانية بعد استيلائه على قندهار ، ولكنه اكتفى باسترداد جزء من أراضيه كان الشاه طهماسب قد استولى عليه . أما الشاه عباس فكان يحاول استثمار العلاقات الطيبة بين الدولتين لصالحه ، حيث طلب من أكبر أن يساعده فى حروبه ضد الأوزبك كما كان الحال أيام الشاه اسماعيل

(١) مباحثات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٤٢٩

الأول ، ولكن أكبر رفض ذلك ، فظل الشاه عباس مظمراً للود ، مترقياً
أى فرصة للاستيلاء على قندهار ، لكي يسجل لنفسه مجداً ، بأنه أعاد إلى حكم
الصفويين منطقة كان الشاه طهماسب قد استولى عليها ، ويسجل لنفسه
مجداً آخر بأن يخطب للأئمة الإثني عشرية على منابر قندهار بفضل
استعادته لها !

الفصل الخامس

علاقات الشاه عباس بالدول الأوروبية

الفصل الخامس

علاقات الشاه عباس بالدول الأوربية

تقديم :

من أهم ما يلفت النظر في عصر الشاه عباس ، ذلك الانفتاح السياسى الواسع على العديد من الدول الأوربية ، بعكس ما كانت عليه إيران قبل عصره ، حيث كان حكام الدولة الصفوية قبله يتحذرون من إجراء أى اتصال بالعالم المسيحى الأوروبى ، وحتى إذا وفد إلى العاصمة الصفوية أى سفير أوروبى ، قابله الشاه الصفوى بفتور شديد ، أو امتنع عن مقابلته. وعلى سبيل المثال فقد أرسلت الملكة اليزابيث ملكة إنجلترا فى عام ٩٦٩ هـ (١٥٦٢ م) سفيرا لها يدعى « أنتونى جن كين سن » ليقابل الشاه طهماسب الأول ، ويقنعه بمقدأواصر الصداقة بين البلدين ، ولكن الشاه طهماسب قابله بفتور ، ولم يعطه الفرصة ليحقق أى هدف من زيارته ، مما جعله يعود أدراجه وقد فشل فى مهمته .

ولكن ما أن تولى الشاه عباس الحكم وأدرك أنه لن يستطيع مناهضة الدولة العثمانية إلا بالتعاون مع أعدائها الأوربيين ، وجدناه يحرص كل الحرص على الاتصال بجميع ملوك أوربا ويحاول عقد الكثير من المعاهدات بينه وبين هؤلاء الملوك ، وكانت هذه المعاهدات تُعنى فى المرتبة الأولى بالتأكيد على رغبة الشاه عباس فى التعاون المشترك من أجل مناهضة العثمانيين ومحاربتهم .

ولكى تتوطد هذه الصلات الجديدة أرسل الشاه عباس العديد من

سفراته إلى جميع العواصم الأوروبية تقريباً ، كما أرسل ملوك أوروبا رسلهم
وتجارهم لزيارة إيران ، وعقد معاهدات سياسية وصفقات تجارية مع الشاه
عباس ، وقد أدى هذا الاتجاه إلى زيادة عدد الأوربيين بالعاصمة أصفهان
وغيرها من المدن الإيرانية ، حيث حرص الشاه عباس على توفير كل متطلبات
الأمن والراحة لهؤلاء الأوربيين .

ولكى نحكم على هذا الانفتاح السياسي والتجاري الإيراني على أوروبا
يجب أن نعرض لعلاقات الشاه عباس لكل دولة أوروبية على حدة ، ثم نرى
بعد ذلك ماذا تحقق لإيران من وراء هذه العلاقات .

أولاً : علاقات الشاه عباس مع البرتغال وأسبانيا

— ١ —

العلاقات قبل حكم الشاه عباس الأول :

من المعروف لدارسي هذه الحقبة التاريخية أن القوات البرتغالية تمكنت من بسط نفوذها على جزيرة هرمز بمدخل الخليج العربي عام ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) ثم سيطرت بعد ذلك على العديد من الموانئ المجاورة ؛ مما جعل هذه القوات صاحبة الكلمة العليا في التجارة البحرية بين دول الخليج والعالم الخارجي ، بعد أن كانت حركة التجارة في يد العرب قبل ذلك . كما حرص البرتغاليون على بناء عدة قلاع حصينة في هرمز والبحرين وكبرون ، حتى يحكموا قبضتهم على كل مناطق الخليج . وكانت رئاسة هذه القلاع معقودة للمندوب البرتغالي في جزيرة هرمز ، وهو بدوره تابع لرئاستهم العامة في منطقة المحيط الهندي ومركزها ميناء جوا بالهند .

ولا شك أن مقدم القوات البرتغالية إلى منطقة الخليج وسيطرتهم على حركة التجارة فيه ، وكذلك شل حركة التجارة في البحر الأحمر ، أدى إلى صراع بين هذه القوات وبين الدولة العثمانية حيث حرصت هذه القوات البرتغالية على قطع الصلات التجارية بين الهند وبين البلاد التابعة للدولة العثمانية . فحاول العثمانيون التصدي لهذه القوات وإبعادهم عن مدخل البحر الأحمر وعن منطقة الخليج العربي ، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك ، وأمل هذا

لانشغالهم بالحروب والتوسع في البلقان ، وعدم التفاتهم إلى المشرق الإسلامي بعد ظهور الدولة الصفوية في إيران^(١) .

أما في الجانب الآخر وهو جانب الدولة الصفوية ، فنظرا لانشغال الشاه اسماعيل الأول بحروبه مع الأوزبك والعمانيين فلم يدخل في حرب مع هذه القوات البرتغالية ، على الرغم من أنها منعت حاكم هرمز من دفع الجزية التي كان يدفعها كل عام للحكومة الصفوية ، وأكثر من هذا أقدم الشاه اسماعيل على عقد اتفاقية معهم ، تنص على أن تساعد القوات البرتغالية في حروبه ضد الدولة العثمانية في مقابل إغماض عينيه عن المطالبة بجزيرة هرمز وميناء كبرون .

وطوال فترة حكم الشاه اسماعيل الأول وحتى نهاية حكم السلطان محمد خدابنده ، والأمور على ما هي عليه من تسلط كامل للقوات البرتغالية على حركة الملاحة والتجارة بمنطقة الخليج ، ولم يحدث سوى دخول هذه القوات تحت سلطان ملك أسبانيا ، الذي استطاع إخضاع البرتغال لسلطانه في عام ٩٨٨ هـ (١٥٨٠ م)^(٢) ونتيجة لهذا أصبح على إيران إذا أرادت أن تتعامل سياسياً مع هذه القوات ، أن تتعامل مع ملك أسبانيا وحكومتها على الرغم من أن جميع أفراد هذه القوات الرابطة في منطقة الخليج كانوا من أصل برتغالي .

هكذا كان الوضع قبل عصر عباس ، فعلام كانت العلاقات خلال فترة حكم الشاه عباس الأول ؟

(١) عبد العزيز سليمان نوار (دكتور) : مصر والعراق . دراسة في تاريخ العلاقات بينهما حتى نشوب الحرب العالمية الأولى . ص : ٥٥ وما بعدها ، القاهرة ١٩٦٨

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشارية ، ص : ٣٤٣

تبادل السفراء بين الشاه عباس وملك أسبانيا :

كانت السنوات العشر الأولى من حكم الشاه عباس مزدهجة بالعمل الداخلي ، وبالتصدي لحملات الأوزبك في الشرق ، لذا لم يرد في أقوال المؤرخين ما يفيد حدوث صلات جادة بين الشاه عباس وملوك أوروبا طوال هذه السنوات العشر .

ولكن بعد أن أحرز الشاه عباس انتصارات حاسمة على الأوزبك ، وبدأ يستعد لمحاربة العثمانيين ، سارع ملوك أوروبا وبابا روما بإرسال سفرائهم إلى العاصمة الإيرانية ، وكانت المحاور الأساسية التي تدور عليها مباحثاتهم دائما ، التعاون الحربي والسياسي ضد الدولة العثمانية ، ومطالبة الشاه عباس بحسن معاملة المسيحيين في إيران ، وعقد صفقات تجارية بين إيران والدول الأوروبية ، و كان الشاه عباس يرحب بمقدم هؤلاء السفراء لأنه كان في حاجة ماسة لمساعدة ملوك أوروبا ضد الدولة العثمانية ، وكان مستعدا لبذل كل الساعي المطلوبة ليعطى بهذه المساعدة ، لذا أرسل عددا من سفرائه إلى أوروبا لحث ملوكها على التعاون المشترك . ومن الذين اهتم الشاه عباس بمراسلته وتبادل السفراء معه ، ملك أسبانيا وهو المشرف في نفس الوقت على القوات البرتغالية المرابطة في منطقة الخليج العربي ، بسبب خضوع البرتغال لسيطرته منذ عام ١٤٩٨ م (١٥٨٠ م) كما سبق أن ذكرت فمن هم أهم السفراء الذين تم تبادلهم بين الشاه عباس وفيليب الثالث ملك أسبانيا ؟

أولا : سفراء ملك أسبانيا إلى بلاط الشاه عباس :

يبدو أن أول بعثة أسبانية وصلت إلى إيران كانت عام ١٠٠٧ هـ (١٥٩٨ م) .

ورأس هذه البعثة قسيسان برتغاليان هما : (آفونسو كوردرو) مبعوث كنيسة الفرنسيين ، و (نيكولا دي ملو) مبعوث كنيسة الدومينيكان وهو في نفس الوقت قسيس القوات البرتغالية المرابطة في جزيرة هرمز ، وقيل إن الشاه عباس أحسن وفادتهما والوفد المصاحب لهما ، فقدموا للشاه الهدايا ، وبلغاه تهنئة ملك أسبانيا على انتصارته في خراسان ، ثم طلبا منه السماح لمسيحيي إيران ببناء الكنائس ومزاولة شعائرهم الدينية^(١) ، فشكرهم الشاه على الهدايا والتهنئة ، ووعدهم بحسن معاملة مسيحيي إيران . ولكن بقاء هذه البعثة في إيران لم يطل كثيراً ، حيث كان الشاه عباس يعد العدة لإرسال بعثة من قبله إلى أوروبا برئاسة حسين علي بيات وانتوني شرلي ، فعادت البعثة الأسبانية مع البعثة الإيرانية المسافرة إلى أوروبا عن طريق روسيا وألمانيا .

ثم وفد إلى بلاط الشاه عباس مبعوث أسباني آخر يدعى (أنتونيودي جوفيا) . وقد جاء هذا السفير إلى إيران ثلاث مرات مبعوثاً من قبل فيليب الثالث ، فكانت بعثته الأولى عام ١٠١١ هـ (١٦٠٢) ، حيث وفد معه عدد كبير من المبشرين المسيحيين ، وبعد استقبال الشاه عباس لهم في مشهد ، أعلنوا أنهم جاءوا للتفاوض بشأن إعادة البحرين إلى سيادة أسبانيا — وكانت القوات الإيرانية قد استردتها عام ١٠١٠ هـ (١٦٠١ م) — وكذلك لإنهاء الحصار المفروض حول ميناء كبرون ، ثم السماح للمبشرين بالعمل في إيران والتصريح لهم ببناء كنيسة يؤدي فيها المسيحيون شعائرهم^(١) . فلم يقبل الشاه عباس

(١) تاريخ روابط إيران وأوربادر دوره صفويه ، قسمت أول ،

(١) عباس إقبال : قسمتي از ما جرای خليج فارس ، مجله یادگار ، سال

التفاوض بشأن إعادة البحرين في حين أصدر أوامره إلى قواده بفك حصار ميناء كبرون ، ثم قال لمبعوث ملك أسبانيا ، وهو يعاتبه على مساعدتهم له في موقفه من الدولة العثمانية : أما بخصوص السماح بإنشاء كنيسة بـإيران ، فإنني شخصياً موافق على بنائها ، ولكنني أخشى معارضة رجال الدين ، ولكن إذا حدث وساعدتم إيران في حروبها ضد الدولة العثمانية ، ففي هذه الحالة يمكن السماح ببناء عدة كنائس لا كنيسة واحدة ، وذلك دون خشية من اعتراض رجال الدين^(١) .

وبعثة انتونيو دوجوفيا الثانية كانت عام ١٠١٧ هـ (١٦٠٨ م) ، وقد كرر هذا المبعوث نفس المطالب التي طالب بها في بعثته الأولى ، وهي إعادة البحرين وتسهيلات تمنح للمسيحيين ، وكذلك قصر تجارة إيران في منطقة الخليج على تجار أسبانيا والبرتغال ، وذلك في مقابل المزيد من الوعود الصادرة من فيليب الثالث بمساعدة إيران في حروبها ضد الدولة العثمانية ، ولكن الشاه عباس الذي سمع الكثير من الوعود ، ولم ير أي مساعدة من ملك أسبانيا أو غيره من ملوك أوروبا أراد أن يتحقق من هذه الوعود التي قدمها المبعوث الأسباني وهل هذه الوعود صادرة عن السفير ، أم أنها صادرة عن ملك أسبانيا ، لذا أمر أن يصحب هذا السفير في عودته أحد كبار رجاله على رأس وفد إيراني يتوجه لمقابلة ملك أسبانيا للتأكد من صحة هذه الوعود ، وكان هذا المبعوث الإيراني هو (دنكيز بيك)^(٢) .

ظل انتونيو دوجوفيا في أسبانيا حتى عام ١٠٢١ هـ (١٦١٢ م) وبعدها

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٠٩

(٢) المرجع السابق ، ص : ١١٣ ، وقسمتي از ما جرای خليج فارس ص

٣٤ ، وزندگانى شاه عباس اول ٧٤ ص ١٧٣ وما بعدها .

عادا إلى إيران ، فكانت هذه هي البعثة الثالثة لانتونيو دوجوفيا ، ونظرا لوجود الشاه عباس في مازندران ، فإن المبعوث الأسباني لم يلتق به إلا في الثلاثين من المحرم عام ١٠٢٢ هـ وذلك عندما عاد الشاه عباس إلى عاصمته أصفهان ، ولاحظ السفير الأسباني أن الاستقبال كان غاية في الفتور، ثم أهمله الشاه عباس ، وبدأ يوجه حديثه بعنف شديد إلى مبعوثه دنكيز بيك ، ولم يطل الوقت حتى أصدر الشاه عباس أوامره بقتل دنكيز بيك^(١) ، مما جعل الخوف يدب في في قلب السفير الأسباني ، لذا سارع بالهرب إلى جزيرة هرمز حيث يوجد مركز قيادة القوات البرتغالية في منطقة الخليج العربي ، وكانت هذه البعثة آخر بعثاته إلى بلاط الشاه عباس .

(١) من الأسباب التي أصدر الشاه عباس بمقتضاها الأمر بإعدام دنكيز بيك ما يلي :

(١) قام دنكيز بيك بفض رسالة الشاه عباس إلى فيليب الثالث ، وذلك بناء على رغبة ممثل أسبانيا في ميناء جوا حيث يوجد مركز تجارة البرتغال في الهند .

(ب) لم يراع القنيل نظام البروتوكول المتبع بالنسبة للسفراء ، وارتدى ملابس الحداد السوداء بدلا من الملابس الإيرانية الرسمية يوم وفاة ملكة أسبانيا .

(ج) باع القنيل رسالة الشاه عباس المرسلة إلى البابا لتاجر ، حتى يسافر التاجر إلى روما ويدعى أنه مبعوث الشاه ، ويحقق من وراء ذلك الادعاء مكاسب عديدة .

(د) أساء دنكيز بيك معاملة جميع مرافقيه في الرحلة ، مما دفع بعضهم إلى اعتناق الدين المسيحي والبقاء في أسبانيا ، وعدم العودة إلى إيران .

[انظر : ملحقات روضة الصفا ، ج ، ص : ٤١٢ ، تاريخ روابط إيران وأوروبا در دورة صفويه ، ص ٤١ ، ٤٢] .

أما المبعوث الأخير الذي أرسله ملك أسبانيا إلى بلاط الشاه عباس قبل اندلاع الحرب بين القوات الإيرانية والبرتغالية عام ١٠٣١ هـ (١٦٢٢ م) فكان (دون جارسيا دي سيلفا فيجورا) وكان موعد وصول البعثة إلى إيران في الثالث والعشرين من جمادى الأولى عام ١٠٢٧ هـ (١٦١٨ م) ^(١) ، وقد وفد هذا الرسول ليتباحث مع الشاه عباس في عدة أمور أهمها ؛ استعادة البحرين وكمرون (استولت القوات الإيرانية على البحرين في عام ١٠١٠ هـ ، وعلى كمرون في عام ١٠٢٣ هـ) ، والسماح للمسيحيين بمزاولة عبادتهم بحرية ودون قيود ، ثم النظر بعين العطف إلى مواطني البرتغال وأسبانيا الذين يفدون إلى إيران ، وكذلك عقد صفقات تجارية ، تعطى للتجار البرتغاليين والأسبان فرصة الإشراف على تجارة إيران في منطقة الخليج العربي ، وأخيراً عدم السماح لقراصنة البحر الإنجليز وتجارهم بمنافسة القوات البرتغالية في منطقة الخليج . وذلك كله في مقابل مساعدة إيران في حروبها مع الدولة العثمانية ، حيث سترسل السفن الحربية البرتغالية والأسبانية لمهاجمة البحرية العثمانية في البحر الأحمر وتغلقه في وجه التجارة العثمانية ^(٢) .

وجاء دون جارسيا إلى إيران ، والشاه عباس يتفاوض مع العثمانيين بشأن توقيع معاهدة صلح جديدة ، توقف الحرب الدائرة في منطقة آذربايجان وقد تم توقيع هذه المعاهدة الجديدة في عام ١٠٢٧ هـ أثناء وجود هذا المبعوث الأسباني في إيران ، وفي نفس الوقت كانت الصلات بين إيران وشركة الهند الشرقية الإنجليزية قد بدأت ، وكان الشاه عباس حريصاً على التعاون مع هذه الشركة لتكون خير عون له في تصديبه لظلم القوات البرتغالية في منطقة الخليج

(١) تاريخ إيران از مفل تا افشاريه ، ص : ٣٣٤

(٢) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص ١٩٢ - ١٩٤ ، ١٩٦ - ٢٠٠

العربي ، ونتيجة لهذه الأسباب ؛ حكم على بعثة دون جارسيا بالفشل ، لذا كان استقبال الشاه له فاترا ، وردوده في غاية الشدة والعنف ، فبالنسبة للبحرين لم يقبل الحديث عنها مطلقا ، وقال بخصوص كبرون : لنتكلم بصراحة ، إن هذا الميناء جزء من الأراضي الإيرانية لذا لن أسمح لأحد قط بأن يسيطر عليه مرة أخرى^(١) وبالنسبة للتجارة الإيرانية ، فذكر له أنه سيبيع الحرير الإيراني لأي تاجر يدفع أعلى ثمن ، ولن يقصر بيعه على تجار أسبانيا والبرتغال ، كما لا يسمح له بمخاطبته بشأن أصدقائه الجدد ، وهم تجار شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، أما بخصوص إرسال سفنهم صوب البحر الأحمر لإغلاقه في وجه تجارة الدولة العثمانية ، فلم تعد إيران في حاجة إلى ذلك ، حيث وقعت إيران والدولة العثمانية معاهدة صلح ، وخذت نار الحروب بينهما .

وعندما أدرك دون جارسيا بأنه لن يحقق شيئا من وراء بعثته هذه ، سارع بالعودة إلى هرمز ، ويبدو أن ذلك كان دون استئذان من الشاه عباس مما جعله يعتبر توجهه المفاجيء إلى هرمز بمثابة قطع العلاقات الودية بين البلدين^(٢) .

. . . .

ثانيا : سفراء الشاه عباس لدى البلاط الأسباني .

سبق أن ذكرنا بأن الشاه عباس بعد انتصاره على الأوزبك ، بدأ يفكر في مخاطبة الدول الأوروبية لتسانده في صراعه مع الدولة العثمانية ، وكان أول من فكر في الاتصال به من ملوك أوروبا ، ملك أسبانيا والمشرق على الحامية البرتغالية في منطقة الخليج ، وذلك لتواجد قواته على مقربة من إيران من

(١) تاريخ روابط إيران وأوروبا . ص : ٦٣

(٢) قسمتي از ما جرى خليج فارس ، ص : ٣٧

جانب ولتطويقها ممتلكات الدولة العثمانية في الجزيرة العربية من جانب آخر ،
ولإمكان قيام هذه القوات البرتغالية التابعة له بتهديد التجارة العثمانية في
البحر الأحمر ، ولهذا بدأ يعد العدة لإرسال بعثة دبلوماسية إلى أسبانيا ،
وبعض الدول الأوروبية المتصارعة مع الدولة العثمانية ، وتم اختيار أفراد البعثة
فعمدت رئاستها إلى حسينعلي بيك بيات ، ولكن التصرف الفعلي كان في يد
أنتوني شرلي^(١) ، وقد حدد الشاه عباس أهداف البعثة في هدفين أساسيين ،
أولهما عقد معاهدات مع جميع ملوك الدول الأوروبية التي سيزورونها للعمل
المشترك ضد الدولة العثمانية ، وثانيهما تسويق الحرير الإيراني .

خرجت البعثة من إيران في الخامس عشر من ذي الحجة عام ١٠٠٧ هـ
(٩ يونيو ١٥٩٩)^(٢) وضمت إلى جانب حسينعلي بيك وأنتوني شرلي
عددا من المرافقين من بينهم أحد رجال الدين الشيعي الاشراف علي مسلك
أفراد البعثة من الوجهة الدينية ، كما انضم إلى البعثة القسيسان البرتغاليان اللذان
وفدا من قبل ملك أسبانيا للتباحث مع الشاه عباس ، وسلكت البعثة طريق
مازندران ثم روسيا ومنها إلى دول وسط أوروبا ، وأخيراً توجهت البعثة إلى
روما حيث حدث سوء تفاهم بين أنتوني شرلي وحسينعلي بيك بيات ، مما جعل
أنتوني شرلي ينفصل عن البعثة ويقطع صلته بإيران ، وأخيراً توجه حسينعلي
ورفاقه الإيرانيون إلى أسبانيا فوصلوها في أوائل عام ١٠١٠ هـ ، وقضت
البعثة هناك مدة شهرين استأذن بعدها حسينعلي في العودة إلى إيران دون أن
يكمل رحلته في باقي دول أوروبا ، حيث كان مكلفا بتوصيل رسائل الشاه
عباس إلى كل من ملوك إنجلترا وفرنسا وغيرها^(٣) .

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٠١

(٢) تاريخ إيران از هفول تا افشاريه . ص ٣٤٣

(٣) قسمتی از ماجرای خلیج فارس ، ص : ٣٤

ولعل السبب الذي جعل حسين على بيك ييات بسرع بالعودة دون أن يحقق
أى هدف من رحلته ، اعتناق ثلاثة من رفاقه الدين المسيحي وتعميدهم في أسبانيا
بمحضور الملك والملكة^(١) ، وكذلك قتل رجل الدين الشيعي المرافق للبعثة على
يد أحد الأسبان المتعصبين^(٢) .

هكذا عادت البعثة الدبلوماسية الأولى التي أرسلها الشاه عباس دون
أن تحقق أى هدف سافرت من أجله ، لذا توقفت بعثات الشاه عباس إلى

(٣) الثلاثة الذين اعتنقوا الديانة المسيحية ، ورفضوا العودة مرة أخرى
إلى إيران ، هم :

(١) عليقلبي بيك ابن أخى السفير حسين على بيك ييات ، وكان اعتناقه
المسيحية مبكراً ولم وخصه للسفير الإيراني ، وقد حضر فيليب الثالث بنفسه حفلة
تعميده ، وقبل أن يكون بمثابة الأب الروحي له ، وغير اسمه بعد اعتناقه
المسيحية إلى (دون فيليب)

(ب) أروج بيك ، وكان يمثل سكرتير أول البعثة الإيرانية ، وقد قبلت
ملكه أسبانيا أن تكون أمماً روحية له يوم تعميده ، وعرف بعد ذلك باسم
(دون جوان إيران) وقد ألف كتاباً هاماً عن إيران بعد ذلك قسمة إلى ثلاثة
أبواب تحدث فيها عن وصف مختصر لإيران ، ثم شرح أحوال سلاطين إيران
وحروبهم مع الخلافة العثمانية وأخيراً تحدث عن رحلة حسين على واقفونى شرلي
منذ خروجها من إيران ، حتى دخولهم إلى لشبونة .

(ج) بنيادبيك ، وهو أحد أعضاء البعثة ، وأصبح اسمه بعد اعتناق المذهب
الكاثوليكي (دون دييجو)

لمعرفة المزيد عن قصة هؤلاء ، يرجع إلى تاريخ روابط إيران وأوروبا
در دوره صفويه ، قسمت أول ، ص ٣٠ - ٣٢ ، زندگانی شاه عباس اول
ج ٤ ، ص : ١٦٤ - ١٦٥ ، وتاريخ ادبيات إيران ج ٤ (پروان) ص :

١٩ - ٢٠

(٤) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٠٦

أسبانيا مدة ست سنوات ، ولم يعاود الكرة إلا عام ١٠١٦ هـ (١٦٠٧ م) .
عندما اشتدت وطأة الحرب في آذربايجان بين الشاه عباس والدولة
العثمانية سارع بإرسال بعثة دبلوماسية ثانية إلى أوروبا، وعقد رئاستها روبرت
شرلي ، فخرجت البعثة من أصفهان عام ١٠١٦ هـ ولكنها لم تصل إلى
أسبانيا إلا بعد عامين ، وعندما مثل روبرت في بلاط ملك أسبانيا ، سلمه
رسالتين مطولتين من الشاه عباس ، وفيهما يدعو إلى التعاون للقضاء على
عدوهما المشترك المتمثل في الدولة العثمانية ، وذلك في مقابل تسهيلات تجارية
يقدّمها الشاه عباس لتجار البرتغال . وأسبانيا ، فكان جواب ملك أسبانيا
غاية في الاقتضاب ، كما كان استقباله فائرا ، واكتفى بالقول بأنه سيعمل
على حث البابا وملوك أوروبا على محاربة العثمانيين وإرسال سفنهم الحربية
لسد مدخل البحر الأحمر أمام التجارة العثمانية مع الهند^(١) .

ولعل ملك أسبانيا سلك هذا المسلك مع روبرت شرلي ، لأن الشاه عباس
كان قد رفض رجاء هذا الملك باستعادة سيطرة القوات البرتغالية على البحرين ،
وأمام هذا الفتور اضطر روبرت شرلي إلى ترك العاصمة الأسبانية ، والتجول في
أوروبا ثم العودة إلى إيران عام ١٠٢٤ هـ (١٦١٥ م) دون أن يحقق أهداف
المهمة التي سافر من أجلها ، وهكذا أصاب الفشل مهمة روبرت شرلي الأولى ،
كما أصاب الفشل مهمة أخيه أنتوني شرلي من قبل !

ولكن على الرغم من هذا الفشل ، وكذلك فشل بعثات انتونيو ودوجوفيا
المبعوث الأسباني إلى إيران ، فقد أقدم الشاه عباس على معاودة إرسال
روبرت شرلي مرة أخرى إلى أسبانيا ، كما أرسل ملك أسبانيا دون جارسيا

(١) زندكافي شاه عباس اول : ج ٤ ، ص : ١٨٠ - ١٨٨

إلى إيران ، وهذا يفيد بأن اليأس لم يتطرق إلى أحدهما ، فلم ييأس عباس
— المتلف إلى أي عون أوروبي ضد الدولة العثمانية — من مساعدة فيليب
له ، كما لم ييأس فيليب في استرداد البحرين من الشاه عباس^(١) .

غادر روبرت شرلي إيران عام ١٠٢٤ هـ متوجها صوب أسبانيا فوصلها
عام ١٠٢٦ هـ وقضى هناك خمس سنوات ، وخلال هذه الفترة كانت العلاقات
بين الدولتين تسير من سوء إلى أسوأ ، ونستعد كل منهما لانزال والعراك في
منطقة الخليج العربي ، مما أضفى على بعثة روبرت الثانية المزيد من الصعاب ،
فلم يستطع أن يحقق الهدف الذي سافر من أجله على الرغم من طول المدة التي
قضاها في العاصمة الأسبانية . فاضطر لترك أسبانيا والسفر إلى إنجلترا عام
١٠٣١ هـ (١٦٢٣ م) ، ولم يعد إلى إيران إلا في عام ١٠٣٦ هـ .

هذه هي أهم البعثات الدبلوماسية التي أرسلها الشاه عباس الأول إلى
أسبانيا وقد وجدت إلى جانبها بعثات أخرى أقل أهمية ، من بينها سفر
دنسكين بيك بصحبة انتونيو دي جوفيا عام ١٠٢٠ هـ ثم عودته معه إلى إيران
لينفذ فيه حكم الإعدام بمجرد لقائه بالشاه عباس ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك .
وهكذا فشل جميع سفراء إيران ، وكذلك جميع سفراء أسبانيا في تحقيق
التعاون بين الشاه عباس وفيليب الثالث ، ولاشك أن هذا الفشل كان ينتج
أحيانا عن بعض المناوشات الحربية في منطقة الخليج بين الجيشين الصفوي
والبرتغالي ، إلى أن تفاقم الموقف في النهاية وانتهى الأمر بالقطيعة والحرب .

. . .

(١) قسمتي از ما جرای خلیج فارس ، ص : ٣٥

المعارك الحربية قبل تحرير هرمز :

على الرغم من تبادل السفراء بين البلاطين الصفوي والأسباني المشرف على القوات البرتغالية في الخليج ، فإن الشاه عباس كان ينتهز أى فرصة سانحة ويمد نفوذه على أى منطقة خاضعة لوجود البرتغالي في منطقة الخليج العربى ، وقد أثر هذا الموقف على مدى نجاح السفراء في تحقيق الأهداف التى سافروا من أجلها سواء إلى البلاط الصفوي أو إلى البلاط الأسباني ، وظل الموقف يتفاقم بالتدريج حتى انتهى العقد الثالث من القرن الحادى عشر الهجرى ، فالتقى الجيشان الصفوي والبرتغالي في معركة فاصلة حول فرض السيادة على جزيرة هرمز ، وانتهت المعركة بطرد القوات البرتغالية من جميع الأراضى التابعة للشاه عباس الأول ، ولكن ما المعارك التى دارت بين الجيش الصفوي والقوات البرتغالية قبل استرداد الإيرانيين لجزيرة هرمز ؟

أولا : فتح البحرين

كانت البحرين تابعة لحاكم جزيرة هرمز ، وهو الذى يعين من قبله من بصرف أمورها ، واستمر هذا الوضع بعد قدوم القوات البرتغالية إلى منطقة الخليج العربى في أوائل القرن العاشر الهجرى ، واستيلائها على كل من هرمز والبحرين ، ونظرا لأهمية البحرين بالنسبة لمنطقة الخليج كلها ، فقد أنشأت القوات البرتغالية فيها مركزا رئيسيا لقواتهم المشرفة على حكم المناطق الساحلية العربية من الخليج ، وأقاموا فيها كذلك دارا للتجارة^(١).

(١) قسمتى از ما جرای إقليم فارس ، ص : ٢٧ ، تاريخ ايران از مغل

تا افشارية ، ص : ٣٢٢

وفي عام ١٠١٠ توفي فرخ شاه حاكم جزيرة هرمز وتولى مكانه ابنه فيروز شاه الذي استوزر شرف الدين لطف الله ، فقام هذا الوزير بتعيين أخاه ركن الدين مسعود حاكماً على البحرين . وبعد أن تسلم الحاكم الجديد زمام الأمور في البحرين شعر بأن القوات البرتغالية المرابطة هناك وكذلك تجارهم يتحكمون في كل شيء ، ففكر في التخلص منهم ، وفي الاستقلال بحكم البحرين^(١) ولكن كيف يتأتى له ذلك ، وليس لديه من القوة ما يستطيع أن يجابه به قوات حاكم هرمز والقوات البرتغالية المرابطة في منطقة الخليج العربي ؟ لهذا فكر في مخاطبة الإيرانيين لكي يساعده في تحقيق ما يصبو إليه ، فتحدث مع أحد وجهاء فارس ويدعى « معين الدين فالي » في الأمر ، فنقل معين الدين الخبر إلى حاكم فارس اللهورديخان الذي رحب بالفكرة ، لايساعد ركن الدين مسعود ، ولكن ليفرض سلطانه على البحرين ويجعلها تابعة للشاه عباس^(٢) .

تقدمت الجيوش الإيرانية التي أعدها اللهورديخان نحو البحرين بقيادة معين الدين فالي ، وتمكنت من دخولها بعد مقاومة ضعيفة حيث اعتقد سكانها أنهم جاءوا للمساعدة حاكمهم ركن الدين مسعود ، وفجأة هجم الجنود الصفريون ذات ليلة على دار هذا الحاكم واقتلوه ، مما أدخلهم في عراك مع قواته ، ولكن النصر كان حليف الجيش الإيراني ، وهكذا تمت لهم السيطرة على البحرين في منتصف شهر رمضان من عام ١٠١٠ هـ^(٣)

وعندما وصلت أنباء الهجوم الصفوي على البحرين واغتيالهم لحاكمها

(١) ملحقات تاريخ روضه الصفا ، ج ٨ ، ص : ٣٢٣

(٢) تاريخ ايران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٢٢

(٣) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ٣٢٢

إلى جزيرة هرمز، سارع حاكمها، وقائد القوات البرتغالية المرابطة فيها بتجهيز جيشين؛ أحدهما برى وتولى قيادته الوزير شرف الدين لطف الله، وهو في نفس الوقت آخر حاكم البحرين الذي اغتيل، وثانيهما بحرى يضم عددا من سفن البرتغال الموجودة في منطقة الخليج^(١)، وتقدم الجيشان وحاصرا البحرين، وأمام شدة الحصار فكر حاكم فارس الهموردبخان في حيلة تخفف من وطأته؛ ففتح جبهة جديدة أمام القوات البرتغالية بأن أمر جماعة من جنده بحصار ميناء كبرون، ونجحت الخطة حيث انسحبت بعض السفن الحربية البرتغالية من الحصار المضروب حول البحرين وتوجهت صوب ميناء كبرون^(٢)، مما مكن القوات الإيرانية في البحرين من وضع يدها على الجزيرة، والتغلب على القوات المعادية الباقية، كما ظفرت بعدد من المدافع الحربية، ثم إرسلها إلى الشاه عباس فسر بها سرورا عظيما حيث كان يستعد لمنازلة العثمانيين^(٣).

وهكذا كانت البحرين أول جزء في منطقة الخليج العربي يستطیع جيش الشاه عباس انتزاعه من القوات البرتغالية، بعد استعمار برتغالى دام ما يقرب من مائة عام، وقد حاول فيليب الثالث القباحث مع الشاه عباس عن طريق جميع السفراء الذين أرسلهم إلى إيران، لاسترداد البحرين، ولكن الشاه عباس رفض تلبية هذا المطلب على الدوام.

ثانياً : استرداد ميناء كبرون :

يقع ميناء كبرون على مسافة فرسخين فقط من جزيرة هرمز، وقد سارعت

(١) قسمتى از ما جرى خليج فارس، ص : ٢٨

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) زندكاني شاه عباس اول، ج ٤، ص : ١٦٧

القوات البرتغالية بفرض سيطرتها عليه بمجرد قدومها إلى منطقة الخليج^(١) ،
وذلك لتستخدمه مرفأً لسفنها الحربية الكبيرة ، إذ أن شواطئ جزيرة هرمز
لم تكن تصلح لاستقبال مثل هذه السفن^(٢) ، وفي بداية حكم الشاه عباس
شيد البرتغاليون فيه قلعة كبيرة ، فأصبح الميناء منذ ذلك الوقت يمثل قاعدة
بحرية برتغالية ترسو فيه ما بين خمس وعشرين وثلاثين سفينة حربية تقوى
حماية القلعة ، وتحصل الرسوم الجمركية من أى سفينة غير برتغالية تدخل
إلى الخليج^(٣) .

في أثناء الحديث عن فتح البحرين ذكرنا أن قوات الهموردبخان حاصرت
هذا الميناء عام ١٠١٠ هـ لتخفف الحصار عن القوات الإيرانية المسيطرة على
البحرين ، ثم انسحبت هذه القوات عندما انتهى حصار البرتغاليين للبحرين
ولكن القوات الإيرانية عادت وحاصرت ميناء كمرون للمرة الثانية في
عام ١٠١١ هـ ، واستمر الحصار حتى أصدر الشاه عباس أوامره بفك الحصار
استجابة لمطلب انتونيودو جوفيا السفير الأسباني ، ورغبة من الشاه في حث
ملك أسبانيا على تقديم العون له ضد الدولة العثمانية .

بعد ذلك احتدم النزاع الصفوي العثماني ، وحدثت معارك عنيفة بينها
في منطقة آذربايجان ، فحرص الشاه عباس على خطب ود البرتغاليين والأسبان
حتى يساعدهم ضد العثمانيين ، ولكنه لم يظفر منهم إلا بالوعود دون التنفيذ ،
لذا ما أن انتهى من الجولة الحربية الثانية مع العثمانيين حتى أعد قائده
الهموردبخان حملة كبيرة تولى قيادتها ابنه إمامقليخان ، وسيرها في عام ١٠٢٢ هـ

(١) تاريخ روابط إيران وأوروبا در دورة صفويه ، ص : ٥٣

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٢٢

(٣) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ١٩٥ - ١٩٦

(١٦١٣ م) للاستيلاء على ميناء كمبرون ولكن الحملة فشلت في أداء مهمتها. ثم توفي الهورديخان في نفس العام ، وتولى ابنه إمامقليخان حكم ولاية فارس من بعده ، فعاود الكرة بعد عام واحد من توليه وهاجم كمبرون واستطاع انتزاعها من البرتغاليين ، فهدم قلعتهم ، وبني قلعة أخرى جديدة مكانها ، كما بنى على مقربة من ميناء كمبرون ، ميناء جديدا عرف باسم « بندر عباس » تيمنا بطرد البرتغاليين من الميناء القديم وبناء الميناء الجديد في فترة حكم الشاه عباس الأول (١).

وهكذا كان ميناء كمبرون ثاني ميناء يستطيع جيش الشاه عباس طرد القوات البرتغالية منه ، فزاد هذا من سوء التفاهم بين إيران والقوات البرتغالية في منطقة الخليج العربي ، وظل الموقف يزداد سوءا حتى التقت القوات الإيرانية بالقوات البرتغالية في معركة تاريخية في جزيرة هرمز .

* * *

— ٤ —

إخراج القوات البرتغالية من جزيرة هرمز :

أولا : القطيعة بين إيران وأسبانيا :

ارتبط وجود القوات البرتغالية في منطقة الخليج بالسلط والاحتكار التجاري ، ومحاولة الاستيلاء على مقدرات شعوب المنطقة ، مما جعل وجودهم يتسم بالغلظة والقسوة الشديدة مع جميع سكان المناطق التي نزلوا بها ، سواء أكانوا من الإيرانيين أو العرب ، وقد أدت هذه القسوة إلى نفور الجميع

(١) قسمتي ازما جرای خليج فارس ، ص : ٢٢

منهم^(١) ، لذا أقدم بعضهم على قتل عدد من البرتغاليين ، كما امتنعوا في مناسبات كثيرة عن تزويد سفهم بما تحتاج إليه من مؤن وأغذية^(٢) ، ولكن على الرغم من كل ذلك ، كان الشاه عباس يغمض عينيه عن كثير من فظائعهم على أمل أن يساعده في قتاله ضد العثمانيين ، ولكنهم خيبوا رجاءه ، ولم يقدموا له أى عون ، مما زاده نفورا منهم ، ورغبة في الخلاص من وجودهم متى سنحت الفرصة لذلك .

ومما زاد من نفور الشاه عباس منهم ؛ فرض سيطرتهم على حركة الملاحة والتجارة في منطقة الخليج ، إذ لم يكن في مقدور أى سفينة أجنبية دخول الخليج العربى إلا إذا حصلت على ترخيص خاص من العمال البرتغاليين في جزيرة هرمز ، وكان إعطاء هذا التصريح أمرا غاية في الصعوبة^(٣) ، والهدف من عدم إعطاء هذا التصريح احتكار التجارة في أيدي البرتغاليين والأسبان فقط . فكان هذا الموقف يفضب الشاه عباس دائما ، إذ أنه حريص على أن يكون في إيران انفتاح اقتصادى ، وأن يقد إليها التجار من كل بقاع الأرض ، ولذا قال لأحد سفراء أسبانيا محتجا على رغبة ملكها في أن يحتكر البرتغاليون تجارة الحرير : « إننى سأبيع الحرير لأى تاجر يدفع أعلى ثمن ! »

وبعد ذلك أقدم الشاه عباس على تشجيع مندوبى شركة الهند الشرقية الإنجليزية على زيارة إيران ، ولعقد صفقات تجارية معها ، بل إنه أمر بعد ذلك بأن تحتكر هذه الشركة إنتاج جنوبى إيران كله من الحرير ، ولعله أراد بمثل هذه الصفقات التجارية أن يظهر عداوه للقوات البرتغالية ، وأن يضربهم

(١) نهضة الأعيان . . . ص : ١٣

(٢) زندكاني شاه عباس اول ، ج ٤ . ص : ٢٠٣

(٣) تاريخ روابط ايران وأوربا در دره صفويه ، ص ٦٥

بمنافسيهم الإنجليز الذين حرصت القوات البرتغالية دائماً على عدم السماح لهم بالظهور في منطقة الخليج، وعدم عقد أى صفقات تجارية بينهم وبين إيران.

ومن العوامل التي ساعدت الشاه عباس على اتخاذ هذا الإجراء ، تلك الهزائم التي لحقت بالقوات البرتغالية المرابطة في الهند ، من جراء المعارك التي دارت بينها وبين القوات الإنجليزية في ميناء سورات الهندي طوال الفترة من عام ١٠٢١ هـ إلى عام ١٠٢٤ هـ (١٦١٢ - ١٦١٥ م) ^(١) ، وكان لهذه الهزائم أثرها الكبير على بداية أفول هيبة البرتغاليين في المحيط الهندي ، وبداية بزوغ نجم شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، مما شجع الشاه عباس بعد ذلك على طلب العون من مندوبي هذه الشركة لطرد القوات البرتغالية من منطقة الخليج العربي .

ومن العوامل التي ساعدت كذلك على أن يرفض الشاه عباس أى تعاون مع أسبانيا والبرتغال ، أنه وقع معاهدة صداقة وصلاح مع العثمانيين عام ١٠٢٧ هـ ، وبمقتضى ذلك لم يعد في حاجة لمساعدة القوات البرتغالية ، وبالتالي لم يعد مجبراً على التظاهر بالود معهم ^(٢) .

وهكذا كانت العلاقة بين الشاه عباس وإيران من جانب والقوات البرتغالية وفيليب الثالث من جانب آخر ، تسير من سوء إلى أسوأ ، وفجأة وصلت إلى القطيعة بعد أن تسلم الشاه عباس رسالة من فيليب الثالث أرسلها بعد فشل بعثة دون جارسيا ، وفيها تحدث عن ضرورة استرجاع البحرين وميناء كمبرون وعدم تعرض عباس لجزيرتي قشم وهرمز ، ثم قال : إذا كان

(١) إيران در زمان صفويه ، ص ١٣١ .

(٢) تاريخ روابط إيران وأوروبا در دورة صفويه ٦٦٠

الشاه عباس لا يوافق البرتغاليين في مطالبهم، فإن علاقات الصداقة بين البلدين ستقطع، وإذا أقدمت القوات البرتغالية في تلك الحالة على ارتكاب أمر لا يتسم بالود والصداقة، فليست أسبانيا مسئولة افتعلك الشاه عباس الفيظ من هذا التحذير، ومزق الخطاب، وأقسم على استرداد هرمز نفسها وطرده القوات البرتغالية منها^(١).

وهكذا تفجر العداة صراحة بين الطرفين، وأخذ كل طرف منها يعد العدة للحرب، فأرسل ملك أسبانيا إلى مندوبه في هرمز بأمره بالاستعداد للحرب قائلا: « إذا لم تتخل إيران عن الأماكن التي تحتلها، فيجب أن تبدأ الحرب »، وكان ذلك عام ١٠٢٩ هـ (١٦٢٠ م)^(٢).

وعلى الجانب الآخر أصدر الشاه عباس أوامره إلى إمامقليخان حاكم إقليم فارس ببذل كل الاستعدادات لخوض المعارك الفاصلة بين إيران والقوات البرتغالية في منطقة الخليج العربي.

ثانيا : الاستعداد للحرب :

بعد أن وصلت العلاقات الإيرانية الإسبانية إلى حد القيطرة، بدأ كل جانب ببذل المزيد من الاستعداد لأي تطور مفاجيء للأحداث، ومن وسائل الاستعداد التي بذلتها القوات البرتغالية الحرب الدعائية، حيث أشاعت بأن قائد الأسطول البرتغالي الموجود في ميناء جوا بالهند قد تحرك بسفنه صوب جزيرة هرمز استعدادا لتأديب كل من تسول له نفسه مهاجمة الجزيرة وأنه لن يكتفى بالفتك بالسفن الإنجليزية التي ستساعد الشاه عباس فحسب،

(١) قسمتي او ما جرای خليج فارس . ص : ٣٨

(٢) ايران در زمان صفويه ، ص : ١٣٢

بل سيستولى على جميع السواحل الإيرانية المطلّة على الخليج ، كما أضاءوا بأن السفن البريطانية التي وعدت شركة الهند الشرقية الإنجليزية بإرسالها ، لن تصل إلى ميناء جاسك المطل على بحر عمان مطلقاً^(١) .

أما على الجانب الإيراني ، فقد بدأ الشاه عباس بعد جيشه لخوض معركة شرسة مع القوات البرتغالية في جزيرة هرمز وغيرها بمنطقة الخليج العربي ، ولكن على الرغم من هذه الاستعدادات فقد شعر بأن القوات الإيرانية لن تستطيع التصدي للقوات البرتغالية حيث لا يتوافر لإيران أسطول بحري يستطيع مجابهة السفن الحربية البرتغالية ، ولذا عزم على أن يتفاوض مع شركة الهند الشرقية الإنجليزية المتطلعة لأن ترث دور البرتغاليين في منطقة الخليج^(٢) . وكان هدف الشاه عباس من هذه المفاوضات الاعتماد على سفن الشركة الإنجليزية في مهاجمة السفن البرتغالية ، حيث كان يخطط للهجوم ، وبأن يكون من اتجاهين : برى وتقوم به القوات الإيرانية ، وبحري وتضطلع به سفن الشركة الإنجليزية .

وأمام هذه الرغبة ، كلف الشاه عباس حاكم فارس إمامقليخان بالتفاوض مع مندوبي الشركة الإنجليزية ، واستمرت المفاوضات مدة عام كامل ، حيث كان مندوبو الشركة الإنجليزية مترددين في قبول عروض الشاه عباس ، وذلك لأن إنجلترا وأسبانيا كانتا على علاقات طيبة في ذلك الوقت ، ولا يمكن للشركة أن تقدم على هذا العمل دون إذن مسبق من ملك إنجلترا ، ومن المؤكد أنه لن يأذن لهم بذلك ، كما كانت الشركة الإنجليزية تخشى الفشل في مهاجمة القوات البرتغالية ، وهذا الفشل سيصيبها بانقكاسة

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ١٠٨

(٢) قسمتی از ماجرای خلیج فارس ، ص : ٣٨

كبيرة في منطقة المحيط الهندي كله ، بعد أن رسخت دعائمها بعد انتصارهم على البرتغاليين في معارك سورات .

وأمام هذا التردد هددم إمامقليخان ، بأنهم إذا لم يوافقوا على المشاركة في مهاجمة القوات البرتغالية ، فإن الشاه عباس سيلغى جميع الامتيازات التجارية التي أعطاهما لهم ، وسيمنع عنهم الحرير الإيراني ، ولكن إذا شاركوا الجيش الإيراني في طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز ، فسيقصر بيع الحرير الإيراني على الشركة الانجليزية دون غيرها^(١) . وأمام هذا التهديد اضطرت الشركة الإنجليزية للموافقة على المشاركة في محاربة القوات البرتغالية في منطقة الخليج ، وأمام هذه الموافقة التقى إمامقليخان بمندوبي الشركة في ميناب ، وكان ذلك في الرابع والعشرين من شهر صفر عام ١٠٣١ هـ (٨ من يناير ١٦٢٢ م) واتفقوا على الشروط التالية^(٢) :

- ١ - أن تكون تكاليف الحرب مناصفة بين الطرفين .
- ٢ - أن يتم تقسيم الغنائم مناصفة بين الطرفين كذلك .
- ٣ - خضوع جزيرة هرمز بعد إخراج البرتغاليين منها للإشراف المشترك .
- ٤ - تقسيم جمارك جزيرة هرمز مناصفة بين إيران والشركة الإنجليزية مع إعفاء البضائع الانجليزية التي ترد باسم الشاه عباس أو حاكم فارس من الرسوم الجمركية .

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠٠

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٣٦ ، زندگانی شاه عباس اول ،

ج ٤ ، ص : ٢١٦ ، وتاريخ إيران او مغول تا افشاريه ؛ ص : ٣٣٥

• — أن تسلم إيران جميع الأسرى المسلمين ، كما تسلم الشركة الإنجليزية جميع الأسرى المسيحيين .

ولكن حدث بعد توقيع الاتفاق بين الشركة وإيران ، أن اعترض بحارة الشركة الإنجليزية قائلين : « إن مهاجمة القوات البرتغالية ليس عملا تجاريا ، كما أنهم لم يُستأجروا لأى سفرة ٥٠٠٠ » ولكن الشركة استطاعت أن تقنع بحارتها ، ونقضت على اعتراضاتهم ، وذلك بمزيج من الوعود والتهديدات ^(١) .

وعندما علم البرتغاليون باتفاق الشركة الإنجليزية وإيران على مهاجمتهم حاولوا تهدئة الأمور ، ومناشدة الجميع الهدوء والتريث فرفض إمام قليخان عروضهم ، مما جعلهم يحاولون مع مندوبي الشركة الإنجليزية قائلين بأن وحدة الدين المسيحي بينهما ترفض العداء بين الجانبين ، ولكن الشركة الإنجليزية المطلعة إلى أن ترث البرتغاليين في منطقة الخليج رفضت عروض البرتغاليين في الامتناع عن مهاجمتهم ^(٢) .

بعد ذلك أخذ الجانبان يستعدان أكثر وأكثر ، فأمر قائد القوات البرتغالية في هرمز قواته بالتأهب الجيد وإعداد مدافع القلعة لصد أى هجوم متوقع ، فى حين أصدر الشاه عباس أوامره إلى قائده إمام قليخان بالتحرك صوب شاطئ الخليج بجيش قوامه خمسة عشر ألف جندى ، ثم انتظار أوامر الشاه عباس لبدء الهجوم فى أى وقت ^(٣) .

وبعد أن تقدم إمام قليخان إلى المكان الذى حدده له الشاه عباس ، نجح فى تحريك بعض العرب من سكان رأس الخيمة ضد القوات البرتغالية

History of Persia vol. II p. 192

(1)

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٣٧

(٣) زندكاني شاه عباس ، ج : ٤ ، ص : ٢٠٩

فيها ، واستطاع هؤلاء العرب طردهم منها^(١) ، وكان الهدف من وراء ذلك قطع طريق الإمدادات عن القوات البرتغالية المتمركزة في جزيرة هرمز في حالة حصار القوات الإيرانية والإنجليزية لهذه الجزيرة .

ومن استعدادات الشركة الانجليزية ، إرسالها بعض سفنها إلى ميناء جاسك في جنوبي إيران والمطل على بحر عمان ، وذلك لكي تكون على مقربة من منطقة الصراع .

وهكذا أصبح جميع الأطراف مستعدين لبدء القتال ، ولكنهم كانوا في انتظار شارة البدء بإطلاق النارا

. . .

ثالثاً : اندلاع الحرب وإخراج البرتغاليين من هرمز :

بعد الانتهاء من الاستعداد الإيراني الإنجليزي ، اتفق الرأي على التمهيد للهجوم على جزيرة هرمز بإجراءين تمثل الأول في الاتفاق مع عرب الشارقة وعمان على الثورة ضد الوجود البرتغالي والامتناع عن تزويد البرتغاليين الموجودين في جزيرة هرمز بالمؤن الغذائية^(٢) مما يؤثر في مقدرتهم على تحمل أي حصار قد يفرض عليهم من قبل القوات الإيرانية الإنجليزية . واستجاب عرب الشارقة وعمان لهذا المطلب ، وثاروا ضد البرتغاليين ؛ وهذا دليل على النفور المشترك بين الإيرانيين والعرب من وجود هذه القوات البرتغالية المتسلطة على كل شيء ، وبخاصة أنها حرمت العرب في الخليج من الإشراف

(١) قسمتي از ما جرای خلیج فارس ، ص . ٤٠ ، شماره سوم ، سال چهارم
مجله یادگار

(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٤ ، شماره چهارم .

الكامل على النشاط التجارى بين موانيه والعالم الخارجى كما كان عليه الأمر قبل قدوم هذه القوات البرتغالية إلى المنطقة^(١).

والإجراء الثانى تمثل فى التخطيط للاستيلاء على جزيرة قشم القريبة من جزيرة هرمز والتي تمدها بالمياه العذبة الصالحة للشرب وذلك لعدم توافرها فى جزيرة هرمز . وقد استطاعت القوات الإيرانية الإنجليزية محاصرة جزيرة قشم ، وضربها بالمدافع وقد حاول البرتغاليون المرابطون بالجزيرة صد القوات المحاصرة ، ولكنهم فشلوا فى ذلك ، مما أجبرهم على طلب التسليم بالشروط التالية^(٢) :

١ - تأمين حياة البرتغاليين المرابطين بالجزيرة .

٢ - تقوم السفن البريطانية بنقل هؤلاء البرتغاليين إلى جزيرة هرمز ، ومعهم أسلحتهم وأمتعتهم .

٣ - عدم الإضرار بالإيرانيين الذين كانوا يحاربون فى صفوف القوات البرتغالية بجزيرة قشم .

وافقت القوات الإيرانية الإنجليزية على هذه المطالب ، ولكنهم بعد أن تسلموا الجزيرة فى ربيع الأول عام ١٠٣١ هـ ، استولوا على جميع أسلحة القوات البرتغالية ومعداتهم ، كما أسرت القوات الإنجليزية قائد القلعة ونقلته أسيراً إلى مركزها الرئيسى فى ميناء سورات الهندى . وأقدمت القوات الإيرانية

(١) جمال زكريا قاسم [دكتور] . الادعاءات الإيرانية فى الخليج العربى أصول المشكلة وتطورها التاريخى ، ص ١٦٢ وما بعدها . [بحث مستخرج من المجلة المصرية للدراسات التاريخية . المجلد العشرون] ، القاهرة ١٩٧٣

(٢) تاريخ روابط ايران وأوروبا در دورة صفويه ، ص : ٧٧

على سفك دماء جميع الإيرانيين الذين كانوا يعملون في خدمة القوات
البرتغالية بالجزيرة .

وهكذا نجح الإجراءان التمهيديان في قطع إمدادات الغذاء والمياه عن
جزيرة هرمز ، وقد حاولت القوات البرتغالية استعادة جزيرة قشم ، ونجحت
فعلا في استرداد جزء صغير منها ، وهو الجزء للقابل لجزيرة هرمز ، ولكن
سرعان ما أخرجتهم القوات الإيرانية من هذا الجزء ، وبعد ذلك بدأت السفن
الإنجليزية تأخذ طريقها نحو سواحل جزيرة هرمز ثم انتظرت هناك بعض
الوقت حتى وصلت قوات إمامقليخان البرية ، وعندما اكتمل توافد
القوات الإيرانية والإنجليزية ؛ بدأوا في فرض الحصار حول جزيرة هرمز ،
وكان ذلك في السابع والعشرين من شهر ربيع الأول من عام ١٠٣١ هـ (٩ من
فبراير ١٦٢٢ م)^(١) ، وقد كانت هذه القوات تتوقع أن تواجه بمقاومة عنيفة
من القوات البرتغالية بالجزيرة ولكنهم فوجئوا بالتزامهم جانب الدفاع ،
وعدم لجوئهم إلى الهجوم ، وقد شجع هذا الموقف القوات المشتركة على الإسراع
بالمهجوم ، وإحكام الحصار حول الجزيرة .

وبعد أيام قليلة من فرض الحصار قامت السفن البريطانية بإنزال ثلاثة
آلاف جندي إيراني إلى أرض الجزيرة ، فقام هؤلاء الجنود بالإستيلاء على
المدينة بدون مقاومة تذكر ، وذلك لأن القوات البرتغالية كانت قد تخلت
عن المدينة واحتمت داخل القلعة التي احتدم القتال حولها ، حيث حرصت
القوات الإيرانية على تحطيم أسوارها ، بينما ركزت البحرية الإنجليزية على
إغراق السفن البرتغالية ، وقد نجحت في إغراق عدد منها ، وكان من بين

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ص ٤٥ ، ص : ٢٢٢

السفن التي أغرقت سفينة أمير البحر البرتغالي في منطقة الخليج والتي كانت تعرف باسم (سان يدرو) (١) .

وأمام وطأة الحصار وشدته حاولت القوات البرتغالية اللجوء إلى الحيلة والهدوء ، فطلبت من القوات الايرانية عقد صلح بين الطرفين في مقابل جزية وغرامة تدفعهما تلك القوات إلى حاكم فارس إمامقليخان ، ولكنه رفض هذا العرض ، فلجأت القوات البرتغالية إلى محاولة استمالة القوات الانجليزية بحجة وحدة الدين المسيحي بينهما ، ولكن مندوبي شركة الهند الشرقية الإنجليزية المتطلعين إلى إنهاء الوجود البرتغالي في المنطقة ، رفضوا التصالح معهم (٢) . وكان الهدف الأساسي الذي تهدف إليه القوات البرتغالية من دعوة الصلح هذه، كسب الوقت وعقد هدنة حتى تصلهم الإمدادات العسكرية من مركزهم الرئيسي في ميناء جوا الهندي .

بعد ذلك أحكم الإيرانيون والبحرية الإنجليزية حصارهم لقلعة هرمز وحطموا الكثير من أسوارها ، واستولوا على بعض أبراجها ، كما منعوا عنهم كل إمداد غذائي مما أشاع اليأس في نفوس البرتغاليين ، فطلبوا التسليم ، وذلك في التاسع من جمادى الآخرة عام ١٠٣١ هـ (٢١ من ابريل عام ١٦٢٢م) ، بعد أن خربت مدينة هرمز ، تلك المدينة التي كانت تفوق في ذلك الوقت لندن وامستردام معا ، وأصبحت خرابا يبابا (٣) وبعد اتمام السيطرة على الجزيرة ، قامت البحرية الإنجليزية بنقل ثلاثة آلاف برتغالي كانوا بالجزيرة إلى مسقط وموانئ ساحل عمان ، وهكذا انتهى الوجود البرتغالي في جزيرة هرمز بعد أن استمر أكثر من قرن من الزمان .

(١) تاريخ روابط ايران وأوروبا در دوره صفويه ، ص : ٨٢

(٢) المرجع السابق ، ص : ٨٣

(٣) نهضة الأعيان . . . ص : ١٣

أما عن الغنائم العسكرية التي غنمتها القوات المشتركة فتتمثل في خمسين مدفعا ثقيلًا ، وأربعة مدافع صغيرة ، وخمسة عشر مدفعا خفيفا ، ومائة وخمسين عربة مدفع. وطبقا للاتفاقية المقودة بين الطرفين ، تم تقسيم الغنائم مناصفة بينهما ، ولكن الشركة الإنجليزية قامت ببيع نصيبها من هذه الغنائم العسكرية بأسعار رمزية إلى إيران^(١) .

ولاشك أن سقوط جزيرة هرمز كان ضربة قاصمة أصابت الوجود البرتغالي في منطقة الخليج فقد كانت هذه الجزيرة أكبر تجمع لهم بالمنطقة بعد قدوم البحريين عام ١٠١٠ هـ وكبرون عام ١٠٢٢ هـ ، وقشم في ربيع الأول من عام ١٠٣١ هـ ، كما أن سقوط هذه الجزيرة أنهى حكم سلسلة ملوكها الذين حكموا الجزيرة عدة قرون وكانوا يمتعون بنوع من الحكم الذاتي ، فقد تم إرسال آخر حكامها وبدعى محمود شاه أسيرا إلى إيران^(٢) ، وأصبح الإشراف على الجزيرة شركة بين إيران وإنجلترا .

ويمكن إجمال أسباب هزيمة القوات البرتغالية فيما أورده دون جارسيا في سفره وهو يتعلق على تلك الأحداث ، حيث قال : « إن تصميم البرتغاليين على محاربة إيران كان أمرا لا يتسم بالتعقل ، وذلك لأن إيران في ذلك الوقت كانت غاية في القوة ، ومن ناحية أخرى فإن الإنجليز سيساعدونهم ، أضف إلى ذلك أن البرتغاليين لم يكن لديهم قوات إضافية كبيرة في هذه المنطقة ، كما لم يكن لهم إلا عدد محدود من الجنود في الهند ، وعلى هذا فإن هزيمتهم كانت أمرا حتميا^(٣) .

(١) قسمي از ماجرای خلیج فارس ، ص ٢٥ (شماره چهارم) .

(٢) المرجع السابق ، ونفس الصفحة

(٣) سفر نامه دون جارسيا ، نقلا عن إيران در زمان صفویه ، ص : ١٣٢

ومما لاشك فيه ، بأن مشاركة البحرية الإنجليزية في إخراج البرتغاليين من جزيرة هرمز، كانت مبعث افتخار للبريطانيين ، فقد قال بيرسي سايبكس الإنجليزي الجنسية :

« كان سقوط هرمز بمساعدة الإنجليز أمرا ذا أهمية قصوى للإنجليز ، حيث اعتبره أم حدث قام به الإنجليز منذ ظهورهم في الشرق وقد أدى هذا بالتأكيد إلى تحسين وضعهم ومركزهم إلى أقصى حد ممكن ، وذلك عندما وصات أنباء هذا الانتصار إلى الهند ، كما أنهم حظوا دون أدنى ريب بالثقة في إيران ، إذ لا يجرؤ فرد في الجيش الإيراني على تجاهل الدور الذي قام به الإنجليز في هذا الشأن ، ومما لاشك فيه أن الشاه عباس كان متأكدًا تمام التأكيد من عدم مقدرته على استرداد هرمز دون المساعدة الإنجليزية^(١) .

وهكذا استطاعت إيران أن تخرج القوات البرتغالية من جزيرة هرمز ، ولكنها لم تقم وحدها بهذا الإجراء بل شاركتها في ذلك قوات بريطانية تابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية .

وهكذا بدأ الوجود الإنجليزي يظهر في منطقة الخليج العربي ، في صورة شركة تجارية أولا ، ثم تحول بعد ذلك إلى وجود عسكري يفرض سلطانه على كل دول الخليج ، يستنزف خيراتها ويعذب شعوبها طوال حقبة طويلة من الزمن ، كما شجع مقدم الإنجليز إلى المنطقة ، على مقدم الهولنديين من بعدهم ، مما جعل منطقة الخليج تعيش فترة الصراع بين الدول البحرية الثلاث وهي البرتغال وانجلترا وهولندا ، وقد ظهر أثر هذا الصراع في الفترة الأخيرة من حكم الشاه عباس الأول ، وخلال فترات حكم من تبعوه من البيت الصفوي .

العلاقات بين إيران والبرتغاليين بعد الاستيلاء على هرمز :

بعد أن سيطرت القوات الإيرانية الإنجليزية على جزيرة هرمز ، حرص الشاه عباس على إهمال تلك الجزيرة ونقل النشاط التجاري الذي كانت تتمتع به إلى ميناء بندر عباس الذي بنى على مقربة من ميناء كمرون ، ولعل الشاه عباس لجأ إلى ذلك لأنه توقع أن تحاول القوات البرتغالية استعادة الجزيرة ، وأمام هذا الإهمال المتعمد من الشاه عباس ، بدأت جزيرة هرمز تفقد أهميتها كمركز تجاري نشط ، وكمكان يزخر بالثروة والشهرة راج عنه في وقت من الأوقات ذلك المثل القائل : إذا كان العالم خاتماً فهرمز فسه^(١) .

وبدأ بندر عباس يتخذ دوره كأكبر ميناء إيراني مطل على الخليج العربي ومازال محققاً بهذا الدور حتى اليوم .

أما عن البرتغاليين فقد حاولوا تدعيم مركزهم في مسقط ، فأقدموا على بناء مركز تجاري كبير هناك ، كما شيدوا عدداً من القلاع الحصينة ، ولكنهم مع ذلك كانوا مهددين باندياع الثورة من العرب العمانيين الذين كانوا ينظرون إليهم نظرة غيظ واشمئزاز^(٢)؛ لذا نجدهم يحاولون استعادة هرمز أكثر من مرة ، ففي عام ١٠٣٢ هـ (١٦٤٣ م) أرسل نائب السلطنة البرتغالي في جوا بالهند إمدادات عسكرية إلى القوات المرابطة في مسقط على أمل استعادة جزيرة هرمز ، ولكن الإيرانيين كانوا قد أعدوا عدتهم لصد

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه : هامش ص : ٢٤٢

(٢) نهضة الأعيان ... ص : ١٣ - ١٤

هذه الحملة ، كما شاركت القوات البحرية الإنجليزية وحلفاؤها من الهولنديين في التصدي لهذه القوات البرتغالية ، مما جعل هذه الحملة تفشل في تحقيق أهدافها^(١) .

وفي جمادى الأولى من عام ١٠٣٤ هـ (١٦٢٥ م) حاول البرتغاليون مرة أخرى محاصرة هرمز واستعادتها ، فحدثت معركة حامية بين القوات البرتغالية من جهة ، والقوات الإنجليزية والهولندية من جهة أخرى ، ولم يستطع أحد من الطرفين إحراز نصر مؤكد ، مما اضطر القائد البرتغالي بفك الحصار وعودته بسفنه صوب مركزهم الرئيسي في جوا بالهند^(٢) .

وأمام فشل جميع المحاولات البرتغالية لاسترداد هرمز ، آثر البرتغاليون بملاة الشاه عباس وخطب وده . وذلك للمشاركة في حركة التجارة بمنطقة الخليج ، بعد أن زاد نشاط منافسيهم من الإنجليز وحلفائهم الهولنديين . فعرضوا على إيران الدخول في معاهدة صلح يتمهدون بموجبها بعدم التعرض لما كان تحت أيديهم من الأراضي الإيرانية ، في مقابل السماح لهم بإنشاء قلعة ومركز تجارى في كنگ في شمال شرقى ميناء لنسكه على ساحل لرستان وأن يسمح لهم بصيد الاؤلؤ في سواحل البحرين ، كما تعفى البضائع البرتغالية التى ترد إلى ميناء كنگ من الضرائب ، وكذلك اقتسام جمارك هذا للميناء^(٣) .

فوافق الشاه عباس على مطالبهم ، ويقال إنه كان يمطيههم سنويا ، ما

(١) قسمتى از ما جرای خليج فارس (شماره چهارم) ص : ٢٨

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) تاريخ روابط إيران وأوربا در دوره صفويه ، ص : ٨٨

يقابل خمسة وعشرين ألف جنيه من عائدات ميناء كركوك س: ويا^(١)

ولعل موافقة الشاه عباس على هذه المطالب ترجع - كما يقول معظم المؤرخين - إلى عدم رغبته في قطع صلواته بالبرتغاليين قطعاً كاملاً، وذلك على أمل الاستعانة بهم إذا حدث بينه وبين الإنجليز والهولنديين أي خلاف ، فيلجأ إليهم كما لجأ إلى الإنجليز من قبل وساعده في إخراجهم من هرمز^(٢).

وبعد توقيع هذه المعاهدة سارت العلاقات في مسارها الطبيعي ، ولم تحدث حروب أو مناوشات بين الجانبين طوال الفترة الباقية من حكم الشاه عباس وحتى انتهت عام ١٣٠٨ هـ (١٦٢٩ م) .

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٤٠

(٢) قسمت از ما جرای خلیج فارس ، (شماره چهارم) ، ص : ٢٨ ،
وزندگانی شاه عباس اول ، ج : ٤ ، ص : ٢٣٠ ، وغيرهما

ثانيا : علاقات الشاه عباس مع بريطانيا

- ١ -

بعثات الأخوين شرلي :

أولا : مقدمهما إلى إيران :

بعد أن حقق الشاه عباس الاستقرار، في داخل إيران، وأحرز انتصارات حاسمة على المعسكر السني الأوزبكي في خراسان وماوراء النهر، بدأت الوفود الأوربية تفتد إلى إيران على أمل التعاون مع هذا الحاكم الجديد الذي أثبت كفاءة في الإدارة والحرب.

ومن بين هذه الوفود والبعثات الأوربية بعثة بريطانية وفدت عام ١٠٠٧م (١٥٩٩م) وكانت مكونة من خمسة وعشرين بريطانيا برئاسة الأخوين أنتوني وروبرت شرلي^(١)، وذكر البعض بأن هذه البعثة جاءت بتكليف من الكونت اسكس الشخصية البريطانية الشهيرة في ذلك الوقت^(٢). وقيل إن التسامح الديني الذي كان يبديه الشاه عباس تجاه المسيحيين كان من العوامل المشجعة على وصول هذه البعثة^(٣) التي جاءت لتحقيق هدفين أساسيين هما^(٤) :

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٢٠

(٢) تاريخ روابط إيران واوربا در دوره صفويه : ص : ١١٨

(٣) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٩٤

(٤) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ٢٣٩

١ - دعوة الشاه عباس للاتحاد مع ملوك أوروبا ضد العدو المشترك وهو الدولة العثمانية .

٢ - محاولة الحصول على امتيازات وتسهيلات تجارية للتجار البريطانيين الراغبين في التعامل التجاري مع إيران .

حدث أن وصلت البعثة البريطانية إلى قزوین والشاه عباس موجود في خراسان . وعندما بلغه خبر مقدمهم أصدر أوامره إلى عماله بقزوین بأن يحسنوا وقادتهم ، ويبالغوا في إكرامهم حتى يعود الشاه إلى قزوین . وبعد أن أسهى الشاه عباس مهمته في خراسان عاد إلى قزوین ، فوجد جميع أعضاء البعثة البريطانية يقفون على مشارف المدينة مع مستقبلية من كبار رجال الدولة الصفوية ، فصافحهم الشاه وصحبهم معه إلى داخل قزوین ، وأنعم عليهم بإنعامات كثيرة منها مائة وأربعون من الخيل ، ومائة بغل ، ومائة جمل ومبلغ عظيم من المال^(١) ثم صحب أفراد البعثة البريطانية معه إلى العاصمة أصفهان ، حيث قضاوا في ضيافة الشاه ستة أشهر .

ونظراً لأن معظم أفراد البعثة كانوا من الجنود والخبراء العسكريين فقد أمر الشاه عباس بالإفادة من خبرتهم في تدريب الجيش الإيراني ، وإعادة تنظيمه حسب التنظيمات الأوربية الحديثة ، كما أشرف بعضهم على إقامة مصانع للأسلحة النارية في أصفهان وهذه المصانع هي التي أمدت الجيش الإيراني بالمدافع والبنادق التي مكنته من منازلة الجيش العثماني في آذربايجان بعد ذلك .

وفي أثناء مناقشات الشاه عباس مع أعضاء البعثة البريطانية حول طرق

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٢٠

التعاون بينه وبين ملوك أوروبا ، اتفق الرأي على إرسال سفير من قبله يطوف أوروبا ، ويلتقى بملوكها ، ويوقع معهم معاهدات صداقة وتعاون مشترك للحاربة الدولة العثمانية ، كما اتفق على أن تضم البعثة الإيرانية إلى أوروبا أنتوني شرلي وبعض رفاقه .

ثانياً : بعثة أنتوني شرلي إلى أوروبا^(١) :

خرجت البعثة من أصفهان عام ١٠٠٧ هـ (أى فى نفس العام الذى وفده فيه أنتوني إلى إيران ورأس البعثة كل من حسينعلى بيك بيات وأنتوني شرلي وسلكت طريق روسيا ووسط أوروبا حتى وصلت إلى روما ، وهناك حدث خلاف بين أنتوني وحسينعلى أدى إلى انشقاق أنتوني ورفاقه الإنجليز عن البعثة الإيرانية ، واختلفت الآراء حول سبب انشقاق أنتوني ورفاقه ، إذ ذكر البعض بأن أحد رفاقه سرق بعض رسائل الشاه عباس إلى ملوك أوروبا ، وسلمها إلى الوزير الأعظم العثماني ، وعندما شعر أنتوني بأنه فى خطر نتيجة هذه الخيانة ، خشى على نفسه من المعاقبة ، وهرب من روما إلى فينيسيا ثم التحق بعد فترة بخدمة ملك أسبانيا^(٢) . ولكن أروج بيك أحد رفاق الرحلة ، وأحد الأربعة الذين أعلنوا دخولهم فى الدين المسيحى بمجرد وصول البعثة إلى أسبانيا ، ذكر فى سفره بأن أنتوني باع لبعض التجار الإنجليز فى ميناء البلطيق جزءاً من الهدايا التى كان الشاه عباس قد أرسلها مع البعثة لتقديمها هدية إلى ملوك أوروبا فكان هذا التصرف من بين الأسباب التى أدت إلى الخلاف بينه وبين حسينعلى بيك بيات^(٣) .

(١) سبق الحديث عنها بتفصيل أكبر أثناء الحديث عن علاقات عباس مع أسبانيا والبرتغال .

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٠٥

(٣) المرجع السابق ، ص : ١٠٦

قصارى القول أن صلة أنتونى شرلى بإيران قد انقطعت بعد هذه الحادثة، كما أثر ذلك على موقف أخيه روبرت شرلى الذى بقى فى إيران مع خمسة من رفاق البعثة البريطانية ، فبدأ عباس يعامله بجمفوة ، مما جعله يبذل قصارى جهده لىستعيد ثقة الشاه عباس به ، فشارك فى تدريب الجيش الصفوى ، وفى المعارك التى دارت بين إيران والعثمانيين عامى ١٠١٣ - ١٠١٤ هـ تولى روبرت رئاسة إحدى فرق الجيش الصفوى ، وقاتل بحماس شديد ، حتى أنه جرح فى هذه المعارك ثلاثة جروح^(١) ، مما جعل الشاه عباس يشق فيه من جديد ويكلفه بمهمة جديدة فى أوروبا .

ثالثاً : بعثة روبرت شرلى الأولى الى أوروبا^(٢) :

غادر روبرت إيران فى عام ١٠١٦ هـ وطاف ببعض بلاد أوروبا ، ثم استقر فى أسبانيا حتى عام ١٠٢٠ هـ ، وبعد ذلك توجه إلى بريطانيا ، وقابل جيمس الأول ملك إنجلترا ، وسلمه رسالة من الشاه عباس الأول ، جاء فيها :

إن روبرت شرلى إنجائزى الجنسية ، ولسكنه محل اعتبارنا واهتمامنا ، ويعمل فى خدمتنا منذ فترة ، وقد أرسلته سفيرا من قبلنا إليكم ، كما أنه سيذهب لمقابلة سائر الملوك المسيحيين^(٣) .

بعد ذلك تحدث مع ملك إنجلترا فى رغبة الشاه عباس فى عقد معاهدة صداقة بينهما ، وتمثلت بنود هذه المعاهدة المقترحة فيما يلى^(٤) :

(١) History of Persia, vol II, p. 181.

(٢) سبق ذكر بعض التفاصيل عن بعثتى روبرت إلى أوروبا أثناء الحديث عن العلاقات مع أسبانيا والبرتغال

(٣) إيران در زمان صفويه ، ص : ١٩٥ ، ١٩٦

(٤) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ٢٤٥ ، ٢٤٦

١ - تقديم تسهيلات تجارية للرجال البريطانيين .

٢ - السماح بإنشاء مركزين تجاريين بريطانيين في ميناءين من موانئ

إيران المطلّة على الخليج .

٣ - الموافقة على إقامة مبعوثين سياسيين إنجليزيين في هذين الميناءين .

٤ - رغبة الشاه عباس في شراء سفن إنجليزية ، بحيث تحمل مفككة

إلى موانئ إيران ، ويتم تركيبها هناك .

٥ - استعداد الشاه عباس لقصر بيع الحرير الإيراني على التجار الإنجليز

كما يقصر نقله على السفن الإنجليزية لتقله إلى أوروبا عن طريق رأس الرجاء

الصالح دون نقله عبر الأراضي العثمانية .

٦ - الرغبة في عقد معاهدة عسكرية مع ملك إنجلترا .

بعد ذلك أمر ملك إنجلترا بتكوين لجنة رباعية من كبار موظفي شركة

الهند الشرقية لدراسة هذه المقترحات ، وتقديم تقرير عنها ، ولكن على

الرغم من كل هذه التسهيلات والعروض السخية التي قدمها الشاه عباس في

رسالته ، فإن التجار البريطانيين رفضوا الموافقة عليها بحجة أن الطريق

إلى إيران طويل ، والمنافع غير محققة ، كما أن التجار البريطانيين الذين

يتعاملون مع الدولة العثمانية غير راضين عن توقيع مثل هذه المعاهدة التي

يقترحها الشاه عباس خوفاً من أن تؤثر على علاقاتهم التجارية بولايات

الدولة العثمانية .

وأمام هذا الرفض اضطر روبرت شرلي إلى العودة صوب إيران دون

أن يظفر بتحقيق الهدف الأساسي الذي سافر من أجله إلى إنجلترا ، وأخيراً

وصل إلى أصفهان في عام ١٠٢٤ هـ (١٦١٥ م) .

رابعاً : بعثة شرلي الثانية إلى أوروبا .

عاد روبرت شرلي إلى إيران عام ١٠٢٤هـ ولم يمكث بها كثيراً ، حيث كلفه الشاه عباس بالسفر مرة ثانية إلى أوروبا . فغادر إيران في نفس عام ١٠٢٤هـ ، ومكث في أسبانيا حتى نهاية عام ١٠٣١هـ ، ثم توجه إلى إنجلترا في أوائل عام ١٠٣٢هـ (١٦٢٣م) ، حيث تباحث في عقد معاهدة مع جيمس الأول ، على أن تتضمن المعاهدة هذين البندين^(١)

١ - أن تتعهد إنجلترا بأن تكون جميع سفنها العاملة في منطقة الخليج في مساعدة الإيرانيين ضد البرتغاليين المرابطين في موانئ الخليج ، بشرط أن تعمل الخزانة الإيرانية تكاليف هذه السفن .

٢ - أن تتعهد إيران بتقديم خمسة وعشرين ألف جندي إيراني للعمل على هذه السفن على أن يكونوا تحت إمرة الحكومة البريطانية .

وقبل أن توقع هذه المعاهدة ، توفي جيمس الأول ، وتولى مكانه شارل الأول الذي ماطل في توقيعها ، حتى وفد إلى بريطانيا نقد عليبيك السفير الإيراني موفداً من قبل الشاه عباس ليساعد روبرت شرلي في مهمته ، ويحاول إقناع التجار البريطانيين المعارضين للتعاون مع إيران على حساب التبادل التجاري مع العثمانيين ، ولكن نقد عليبيك بدلاً من تسهيل مهمة شرلي ، فقد طعن في صحة الرسائل التي حملها روبرت ، وادعى أنه ليس موفداً من قبل الشاه عباس ، وكان ذلك بتعريض من رجال شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، مما حدا بملك إنجلترا أن يصدر أوامره بوقف المفاوضات ، وتكليف مبعوث بريطاني بأن يصعب كلا من روبرت شرلي ونقد عليبيك ويتوجهوا صوب بلاط الشاه

(١) تاريخ روابط إيران وأوروبا در دورة صفويه ، ص : ١٣٧ - ١٤٠

عباس للتأكد من صحة الرسائل التي قدمها إليه روبرت شرلي، والتحقق من صدق الادعاءات التي أثارها نقد عليك^(١).

وفي طريق العودة إلى إيران عن طريق رأس الرجاء الصالح، أقدم نقد عليك على الانتحار بتناول السم في جنوب أفريقيا خوفاً من أن ينفك الشاه عباس دمه لما فعله مع روبرت شرلي، ثم واصلت السفينة رحلتها إلى إيران حاملة روبرت شرلي ومبعوث ملك إنجلترا وهو سير دور مر كوتن وقد وصلا إلى إيران في ربيع الثاني عام ١٠٣٦ هـ (٩ يناير ١٦٢٧ م).

وبعد فترة وجيزة من عودة روبرت إلى إيران اجتهد بعض رجال البلاط الإيراني في تشويه صورته لدى الشاه عباس، الذي غضب عليه وأمر بإخراجه من إيران، مما أشعر روبرت بالمرارة والألم، فدهمه المرض في قزوین، وتوفي في شهر شوال من عام ١٠٣٦ هـ، ثم لحق به بعد شهر واحد سير دور مر كوتن، ودفن كلاهما بمدينة قزوین^(٢). وفي رأي أن تغير الشاه عباس على روبرت شرلي يرجع إلى جانب الوشاية، إلى أن الشاه عباس قد استنفذ أغراضه من استخدام روبرت شرلي كمبعوث خاص له في أوروبا، إذ كان هدفه الأكبر من إيفاده إلى أوروبا إثارة الملوك المسيحيين ضد الدولة العثمانية وحثهم على التعاون المشترك مع الشاه عباس لمحاربة ذلك العدو المشترك، والآن وقد تم عقد صلح بين الشاه عباس والعثمانيين وهدأت المعارك بين الجانبين، فلم يعد الشاه في احتياج لمبعوث روبرت بعد ذلك، وأعل تغيره عليه راجع كذلك إلى تحسن صلات الشاه عباس التجارية والسياسية بشركة الهند

(١) زندگانی شاه عباس اول، ج ٤، ص ٢٦١ وما بعدها

(٢) تاریخ ایران از مغول تا افشاریه، ص ٣٤٩

الشرقية الإنجليزية ، والتي كان رؤساؤها ومنذوبوها لا يستريحون لروبرت شرلي ، ولا يحبون التعامل معه ، بل حاولوا في كل مرة سافر فيها إلى إنجلترا إفساد مهمته لدى البلاط البريطاني ، فأراد الشاه عباس التخلص منه إرضاء لهم ، وتوثيقا لعلاقته التجارية والسياسية معهم .

وهكذا انتهى دور روبرت شرلي في الحياة ، دون أن يحقق التعاون الكامل الذي كان يناديه الشاه عباس مع ملوك أوروبا المسيحيين ، فلم يحدث أن استجاب أي ملك أوروبي تباحت معه روبرت شرلي ، وأرسل جيوشه تحارب مع الجيش الصفوي ضد الجيوش العثمانية ، وإذا كان روبرت شرلي قد فشل في هذه المهمة ، كما فشل أخوه أنتوني من قبل فإنهما ورفاقهما قد قدموا خدمة جليلة للشاه عباس ، وهي تطوير النظم العسكرية في الجيش الصفوي ، وتسليحه بالأسلحة النارية التي ساعدته على الصمود أمام الجيوش العثمانية ثم الانتصار عليها .

— ٢ —

العلاقات بين الشاه عباس وشركة الهند الشرقية الإنجليزية :

تم توقيع عقد تأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية في ١٤ من جمادى الآخرة عام ١٠٠٩ هـ (٣١ من ديسمبر عام ١٦٠٠)^(١) ، ومنذ تأسيسها وحتى عام ١٠٢٤ هـ ونشاطها قاصر على تدعيم الصلات التجارية البريطانية مع الهند دون غيرها من البلاد المطلة على الخليج الهندي ، ولكن حدث في

(١) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٤٦

عام ١٠٢٤ هـ تكس في البضائع الإنجليزية بميناء سورات ، وهنا بدأت الحاجة تدعو إلى البحث عن أسواق جديدة يتم فيها تصريف هذه البضائع المكسدة ، وبخاصة الأصواف التي لا تلائم جو الهند الحار .

أولا : بعثة ريتشارد استيل :

وبينما كانت الشركة الإنجليزية منمكة في البحث عن أسواق جديدة لتصريف بضائمتها ، وفد إلى سورات شاب إنجليزي يدعى ريتشارد استيل ، قدم لتوه من إيران ، وأدرك مدى احتياج الإيرانيين للأصواف نظرا لشدة البرودة هناك ، فعرض على مجلس إدارة الشركة الإنجليزية فكرة بيع الصوف الإنجليزي المكس إلى الإيرانيين ، فسر الجميع لهذا الرأي ، وعلى الفور أصدر رئيس الشركة أوامره بأن يتوجه ريتشارد استيل ومعه جون كروتر لتفقد سوق إيران ، ومعرفة مدى احتياجه للبضائع الإنجليزية ، ومحاولة مقابلة الشاه عباس ، والحصول منه على تسهيلات تجارية للشركة الإنجليزية^(١) .

وهكذا كانت بعثة ريتشارد التي وصلت إلى إيران عام ١٠٢٤/١٠٢٥ هـ (١٦١٦ م) أول محاولة إنجليزية جادة للتجارة مع إيران^(٢) ، وقد أحسن الشاه عباس استقبال ريتشارد ورفاقه وبالغ في إكرامهما ، وتفاوض معهما بشأن التبادل التجاري بين الشركة الإنجليزية وإيران ، وعلى الفور أصدر أوامره إلى جميع عماله ورعاياه بأن يحسنوا وفادة التجار الإنجليز ، كما سمح للسفن الإنجليزية بالقدوم إلى الموانئ الإيرانية الجنوبية ، لشراء الحرير الإيراني وبيع الصوف الإنجليزي ، وأعطى المندوبين الإنجليزيين الحق في تفقد موانئ إيران

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ٤ ، ص : ٢٥٦

History of Persia, Vol II P. 189

(2)

المطلة على الخليج واختيار واحد منها لترسو فيه السفن الإنجليزية ، فوق
اختيارها على ميناء جاسك الذي يبعد تسعين كيلو مترا عن جزيرة هرمز ،
لتكون سفنهم بعيدة عن تطاول القوات البرتغالية^(١) .

ومما يدعو إلى الدهشة أن روبرت شرلي البريطاني الجنسية ، عاد من
رحلته الأولى في أوروبا والهندوبان البريطانيين موجودان في أصفهان ، وإذا
به لا يحسن لقاءهما ، بل عاملهما بكل تجاهل ، وامل ذلك راجع الى موقف
مندوبى الشركة من عروضه في إنجلترا عندما زارها في عام ١٠٢٠ هـ ،
ولكن عل الرغم من مسلك روبرت معهما ، فقد أصر الشاه عباس على
التعامل مع الشركة الإنجليزية ، ومنحها الكثير من التسهيلات^(٢)

ثانيا : بعثة ادوارد كنووك :

مأن عاد ريتشارد اسفيل وجون كروثر إلى سورات حيث يوجد
مركز الشركة الإنجليزية ، ونقلوا إلى الجميع ترحيب الشاه عباس بالتجار مع
الإنجليز ، حتى سارعت الشركة بتجهيز البضائع التي ستصدرها إلى إيران ،
وخرجت القافلة البحرية برئاسة ادوارد كنووك ، ورست السفن الإنجليزية
في ميناء جاسك في أوائل عام ١٠٢٦ هـ (١٦١٧ م) ، وسافر أعضاء البعثة
بعد ذلك إلى أصفهان ومنها إلى بلاد الكرج حيث رحب الشاه عباس
بمقدمهم^(٣) ، وسمح لهم بإقامة دور إنجليزية في كل من أصفهان وشيراز ،
كما اتفق ادوارد كنووك مع الشاه عباس على أن تشتري الشركة جزءاً من

(١) تاريخ روابط إيران وأوروبا در دورة صفويه ، قسمت اول ، ص :

١٣٢٠ ١٣٢

(٢) المرجع السابق . ص : ١٣٢

(٣) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص : ٣٤٧

الحرير الإيراني؛ بشرط أن تدفع ثلث الثمن نقداً ، والباقي تتم مقايضته ببضائع إنجليزية تصدرها الشركة إلى إيران ، كما سمح لهم الشاه عباس بالتجوال في جميع أرجاء إيران ، والاتجار مع جميع مدنها لأمع الموانئ الجنوبية فقط كما كان الأمر بالنسبة للاتفاق السابق مع ريتشارد اسكيل ، أضيف إلى ذلك أنه سمح لأعضاء البعثة بالاحتفاظ بأسلحتهم حتى يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم إذا دعت الضرورة لذلك^(١) .

وبعد أن كالت مساعي ادوارد كنفوك بالنجاح في أصفهان توجه صوب جزيرة هرمز على أمل الحصول على بعض التسهيلات للسفن البريطانية والسماح لها بدخول الخليج ، ولكنه توفي هناك^(٢) ، لذا قال البعض بأن البرتغاليين دسوا له السم لكي يتخلصوا منه ، نتيجة لضيقهم الشديد من التقارب الإيراني الإنجليزي .

ثالثاً : بعثة توماس باركر :

بعد وفاة إدوارد كنفوك تم تعيين توماس باركر مندوباً عن الشركة الإنجليزية في إيران فحضر إلى إيران في عام ١٠٢٧ هـ ، والتقى بالشاه عباس ، وتباحث معه بشأن شراء المزيد من الحرير الإيراني مقابل بيع الملابس الصوفية الإنجليزية في إيران ، فوافق الشاه عباس بشرط أن تشتري الشركة الإنجليزية ستائة حمل من الحرير الإيراني ، بنفس الشروط التي سبق الاتفاق عليها مع ادوارد كنفوك .

وفي أثناء سير المفاوضات وفد إلى إيران أحد مندوبي الشركة وبدعى

(١) زندگانی شاه عباس ، ج ٤ ، ص : ٢٥٧

(٢) إيران در زمان صفویه ، ص : ٢٠٢

جيزلر هويس^(١) ، وتشاور مع توماس باركر في شروط الشاه عباس ، ووافقا في النهاية على قبولها ، ثم طلبا من الشاه احتكار إنتاج ايران كلها من الحرير . وهنا ثارت نائرة التجار الأرمين في جلفا بأصفهان ، لأن موافقة الشاه على بيع الحرير كله إلى الشركة الإنجليزية ، سيجرهم من المشاركة في هذه التجارة التي تدر عليهم أرباحا هائلة ، مما اضطر الشاه لعرض الحرير الإيراني في مزاد علني ، فامتنع مندوب أسبانيا وكذلك مندوب الشركة الإنجليزية عن دخول المزاد ، وفي نفس الوقت عرض الأرمين سعرا يفوق سعره في العام الماضي فحفظوا بالصفقة واشتروا الحرير الإيراني كله في عام ١٠٢٨ هـ^(٢) ، وإن ذكر البعض بأنه على الرغم من عرض الأرمين السخي ، فقد اضطر الشاه عباس إلى أن يبيعه بأقل من السعر المقدم من الأرمين ، للشركة الإنجليزية خطباً لودها ، وأملا في مساعدتها لقواته في طرد القوات البرتغالية من جزيرة هرمز^(٣) .

رابعا : المشاركة في طرد القوات البرتغالية من جزيرة هرمز .

نتيجة للتقارب بين الشاه عباس والشركة الإنجليزية ، ومعايبتها في عقد صفقات الحرير الإيراني ، بدأت العلاقات الإيرانية البرتغالية تتمم بالسوء والقوت ، مما أدى إلى التفاوض بين إيران والشركة الإنجليزية للتخلص من الوجود البرتغالي في منطقة الخليج العربي ، وانتهى الأمر - كما سبق أن فصلنا ذلك - باشتعال المعارك حول جزيرتي قشم وهرمز ، وبما بلغت النظر أن الشركة الإنجليزية قد اتخذت قرار المشاركة في الحرب دون إذن مسبق من ملك إنجلترا وحكومتها مما جعل الحكومة البريطانية تعقد محاكمة لرئيس الشركة الذي

(١) زندكاني شاه عباس اول ، ص ٤٨ ، ص : ٢٦٥

(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٦٦

(٣) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٠٣ ، ٢٠٤

دافع عن نفسه بأنه اتخذ القرار أملاً في تنمية التجارة البريطانية وتفوقها على المنافسة البرتغالية الأسبانية ، كما أنه اضطر إلى ذلك أمام تهديد إمامقليخان حاكم فارس بحرمان البريطانيين من التعامل التجاري مع إيران ، وعلى الرغم من هذا التبرير فقد أصدرت المحكمة قرارها بإدانة الشركة وتغريمها بمبلغ عشرين ألف جنيه استرليني حتى لا تقدم على مثل هذا العمل مرة أخرى دون إذن مسبق من الملك والحكومة البريطانية (١) .

وإلى الحكومة البريطانية لجأت إلى هذه المحكمة السورية والفرامة حتى تسترضى ملك أسبانيا الذي كان على وفاق في ذلك الوقت مع ملك إنجلترا ، وحتى تتظاهر بأنها غير راضية عن مسلك الشركة ولا تؤيده ، على الرغم من المكاسب العظيمة التي تحققت لبريطانيا على الأمد الطويل من طرد القوات البرتغالية من جزيرة هرمز ، ويمكن إجمال هذه المكاسب في النقاط التالية: (٢) :

١ -- لم يكن الإنجليز يقدرّون قبل ذلك على مواجهة البرتغاليين في الخليج مطلقاً .

٢ -- كانت المصالح الإنجليزية والمؤسسات البريطانية في الخليج عرضة دائماً لغزوات القوات البرتغالية ، كما لم يكن في استطاعة شركة الهند الشرقية الإنجليزية منافسة المركز النشط للبرتغال وأسبانيا في هرمز .

٣ -- الحصول على امتيازات وتسهيلات تجارية كبيرة من الشاه عباس الأول .

(١) إيران در زمان صفويه ، ص: ٢٠٥

(٢) انقراض سلسله صفويه ٠٠٠ : ٤١٣

٤ — وجود بعض السفن الحربية التابعة للشركة الإنجليزية بصفة منتظمة في مياه الخليج ، لكي ترد بسرعة على أى حملة انتقامية تقوم بها القوات البرتغالية .

وهكذا أصبح العلم البريطاني يرفرف فوق سطح مياه الخليج العربي ، وبدأت السفن الإنجليزية تبهر وسطه دون إذن مسبق من القوات البرتغالية التي سيطرت على مدخل الخليج وأهم موانئه أكثر من قرن من الزمان ، كما أصبحت الشركة الإنجليزية بعد ذلك لا تجد منافسة حقيقية في منطقة الخليج إلا من حلفائهم الهولنديين الذين آثروا بعد فترة من المنافسة ، الاتحاد مع الإنجليز للوقوف جبهة واحدة أمام القوات البرتغالية ، والتي تمثل العدو المشترك والمنافس للوجودين البريطاني والهولندي في منطقة المحيط الهندي . وقد حرصت الشركة الإنجليزية والحكومة البريطانية على التواجد الدائم بعد ذلك في منطقة الخليج ، وكثيراً ما دعمت هذا الوجود التجاري بقوات عسكرية مهدت لإنجلترا إحكام السيطرة على كثير من موانئ الخليج ، وإعلان تبعيتها للتاج البريطاني مما جعل شعوب منطقة الخليج تعاني كثيراً من ويلات الاستعمار البريطاني الذي وفد الى المنطقة أول الأمر في صورة نشاط تجارى تشجيع من الشاه عباس الأول .

* * *

ثالثاً : علاقات الشاه عباس مع هولندا

بعد أن تمكن الشاه عباس من طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز بمساعدة القوات التابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية في عام ١٠٣١ هـ ، سارعت شركة الهند الشرقية الهولندية المتحالفة مع الشركة الإنجليزية بالظهور في الخليج بحجة مساعدة القوات البريطانية في صراعها المشترك مع الوجود البرتغالي بمنطقة المحيط الهندي والخليج العربي^(١) ، ولدى تضييق البقاء بالمنطقة استأذنت الشاه عباس في بناء دار للتجارة الهولندية في بندر عباس ، فأذن لهم ، وتم تأسيس هذه الدار في عام ١٠٣٢ هـ أي في العام التالي لإخراج البرتغاليين من جزيرة هرمز^(٢) .

وبعد أن استقرت أقدام الهولنديين في إيران ، بدأوا بتعلمون للقيام بدور مستقل في تجارة إيران . فوافقهم الشاه عباس على شراء كمية من الحرير الإيراني كل عام حرصاً منه على إيجاد منافسة بين أكبر عدد من مشتري الحرير مما يحقق له ولإيران مكاسب كبيرة . فدامت هذه الفترة وجيزة حتى تحولت الآمال العريضة التي كانت تتوقها الشركة الإنجليزية من وراء الاتجار مع إيران إلى نوع من اليأس ، حيث أصبحت الشركة الهولندية أكبر منافس تجاري للإنجليز في الخليج^(٣) .

والذي تدعمه هولندا بعلاقاتها التجارية مع إيران ، أرسلت إلى إيران وفداً هولندياً في عام ١٠٣٣ هـ (١٦٢٤ م) ونجح الوفد في عقد اتفاقية مع الشاه عباس يتم

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ص ٥٠ ، ص : ١٧٠

(٢) انقراض سلسله صفويه ... [لكهارت] ، ص : ٤١٤

(٣) المرجع السابق . نفس الصفحة

بمقتضاها تقديم تسهيلات تجارية للرعاعا الهولنديين ، كما نصت بعض بنودها على السماح للهولنديين بإقامة كنائس وأماكن عبادة خاصة بهم ، ومن حقهم مجازاة أى هولندي يعتقد الدين الإسلامى ، بأن يلقوا القبض عليه ويحاكموه ويصادروا أمواله^(١) .

ولعل الشاه عباس وقع معهم هذه المعاهدة على أمل أن يساعده ضد القوات البرتغالية الموجودة في مسقط والتي كانت تحاول استعادة جزيرة هرمز؛ لذا نجده يرسل وفدا إيرانيا إلى هولندا ليتفاوض مع ملكها بشأن مطلبين هامين بالنسبة لإيران وهما: ^(٢)

١ - قطع الصلات التجارية والسياسية بين هولندا والدولة العثمانية .

٢ - مشاركة القوات البحرية التابعة لشركة الهند الشرقية الهولندية للقوات الإيرانية في طرد القوات البرتغالية من مسقط وعمان .

استقبل ملك هولندا الوفد الإيراني بترحاب ، ولكنه اعتذر عن تحقيق المطلبين، وبين لرئيس الوفد تعذر تحقيق المهمة التي أوفد من أجلها، وعلى الرغم من هذا الرفض، نجد ملك هولندا يرسل رسالة إلى الشاه عباس يخبره بأنه يرحب بالتعاون المشترك للقضاء على البرتغاليين في منطقة الخليج، وأنه سيرسل رسولا من قبله صوب إيران ليتفاوض مع الشاه عباس في الشروط التي سيتم بمقتضاها القيام بحملة مشتركة ضد البرتغاليين . ولعل ملك هولندا لجأ إلى هذا التمويه حفاظا منه على المصالح التجارية التي تحققت للهولنديين في إيران ومنطقة الخليج العربى ، وقد أقاد هذا الوعد شركة الهند الشرقية الهولندية في تدعيم موقفها

[١] زندكاني شاه عباس أول ، ص ٥٠ ، ص ١٧١ - ١٧٢

[٢] المرجع السابق ، ص : ١٧٥ - ١٧٦

التجاري بإيران ، وزادت من عملياتها التجارية . ومن منافستها لشركة
 الإنجليزية ، حتى أصبحت هذه الشركة الهولندية على الرغم من قصر المدة
 التي وفدت فيها إلى إيران ، تشرف على النصيب الأكبر من تجارة إيران الخارجية .
 طال انتظار الشاه عباس للسفير الهولندي الذي وعد ملك هولندا
 بإرساله ، مما جعله يشعر بالضيق من الهولنديين ، فأرسل عباس رسولا من
 قبله إلى البلاط الهولندي ليستفسر عن الأسباب التي منعت السفير
 الهولندي من القدوم إلى إيران حتى ذلك الوقت . وقد تضمنت الرسالة عتاباً
 وتلويحاً بقطع العلاقات بين البلدين ، مما جعل ملك هولندا يسارع بتكليف
 أحد مبعوثيه بالتوجه صوب إيران ومقابلة الشاه عباس وتطبيب خاطره ،
 وإعلان استعداد هولندا للتعاون المشترك معه ضد البرتغاليين . وسافر المبعوث
 الهولندي إلى إيران واسكنه وصلها بعد وفاة الشاه عباس بشهرين
 ونصف تقريباً .

وعلى الرغم من أن المدة التي وفد فيها الهولنديون إلى إيران وحتى وفاة
 الشاه عباس عام ١٠٣٨ هـ كانت قصيرة ، إلا أنهم استطاعوا إثبات وجودهم
 وتدعيم موقفهم وبنوا لهم في إيران ثلاث دور تجارية ، في أصفهان وبندر
 عباس ولار ، فكانت دار تجارتهم في أصفهان بمثابة المركز الرئيسي لشركة
 الهند الشرقية الهولندية بإيران ، وقد بنيت هذه الدار على مقربة من سوق
 القيصرية بالعاصمة . وكانت دارم بيندر عباس تشرف على تفريغ السفن
 الهولندية القادمة ، وكذلك إعداد الحمولات من البضائع الإيرانية التي ستحملها
 هذه السفن في طريق عودتها ، أما دارم في لار فكانت بمثابة مكان لتسريح
 فيه القوافل التي تحمل البضائع الهولندية من بندر عباس إلى أصفهان (١) .

[١] انقراض سلسلة صفويه . . . ص ٢٥٥ وما بعدها

وأهم البضائع التي كانت تستوردها هولندا من إيران الحرير والسجاد،
والخمل والمسكوكات الذهبية، أما وارداتها إلى إيران فكانت تشمل
الأصواف والأواني والعطور، وجميع الأدوية، ولعل هولندا كانت أكبر
مورد للعطور والأدوية إلى إيران^(١).

وهكذا كانت العلاقات الإيرانية الهولندية تعتمد على النشاط التجاري
دون غيره، وقد حاول الشاه عباس استثمار هذا التعاون في مجال السياسة،
ولكن هولندا رفضت الاستجابة لمطالب الشاه، ومع ذلك فقد كان لوجود
سفنهم بالخليج أثر عظيم في زيادة المنافسة البحرية بين كل من الهولنديين
والإنجليز والبرتغاليين في منطقة الخليج، مما عرض ثروات شعوب المنطقة
لأنهب والسلب.

(١) المرجع السابق، ص: ٤٣٨ - ٤٤٠

رابعاً : علاقات الشاه عباس مع روسيا

كانت هناك صلات ودية بين الشاه عباس وقيصرة روسيا ، وذلك منذ السنوات الأولى لتتويج عباس ، فقد ذكرت المصادر أن الشاه عباس أرسل في عام ٩٩٧ هـ (١٥٨٩ م) - أى في العام التالي لتتويجه - وفداً إيرانياً برئاسة هادى بيك وبوداق بيك إلى موسكو^(١) ، وكلف هذا الوفد بطلب العون من روسيا لمساعدة إيران في حروبها ضد العثمانيين ، وقد جاء في رسالة الشاه عباس المرسلة إلى قيصر روسيا ما يلى :

ترحب إيران بتقدم الجيش الروسى صوب باكو ودر بند ، بل إنها تمنى أن يتقدم هذا الجيش الروسى صوب آذر بايجان وشروان وكرجستان ، حتى يبعد السيطرة العثمانية عن هذه المناطق^(٢)

ومنذ ذلك الوقت وتبادل الرسائل والرسائل قائم بين البلاطين الصفوى والروسى ، وساعد على ذلك أن عدداً كبيراً من رسل الشاه عباس إلى أوروبا ، كانوا يتوجهون أولاً إلى موسكو ، ثم يواصلون مسيرتهم بعد ذلك صوب العواصم الأوربية المختلفة . ومن هؤلاء المبعوثين أنتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات فى عام ١٠٠٧ هـ ، وروبرت شرلى فى عام ١٠١٦ هـ ، ومن المفارقات التى حدثت أثناء سفارة أنتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات ، معاملة أنتونى شرلى بازدراء بالغ فى موسكو ، بل ذكر البعض بأنهم زجوا به فى السجن فترة من الزمن ، ثم أفرج عنه بعد ذلك وسمح له بمقابلة القيصر^(٣) ؛

[١] لغت نامه ، شماره ٧٦ ؛ ص : ٤٣

[٢] زندگانی شاه عباس اول ، ص : ٥٣ ، ص : ١٣٤

History of Persia, Vol. II p. 77

(٣)

ويقول البعض بأن هذا التصرف كان تعبيراً عن ضيق البلاط الروسي بأن يكون المبعوث الإيراني شخصاً بريطانياً .

وإلى جانب تبادل السفراء ، كان هناك تبادل تجارى بين البلدين ، فقد كان الشاه عباس المولع بالتجارة يحاول تشجيع تجار روسيا على الوفود إلى إيران ، والمشاركة في شراء الحرير الإيراني . ومما ضاعف النشاط التجارى بين البلدين أن جزءاً كبيراً من البضائع الإيرانية المصدرة إلى أوروبا كان يرسل عن طريق الأراضي الروسية ، والسبب في ذلك إغلاق الدولة العثمانية للطرق الأخرى التي كانت القوافل التجارية تسلكها عبر العراق والشام قبل اندلاع الحروب الصفوية العثمانية^(١) .

وعندما استرد الشاه عباس آذربايجان وكرجستان وشيروان ، أصبحت أراضي الدولة الصفوية تجاور الأراضي الروسية ، فزادت الصلات الودية بين البلدين وارتفع حجم التبادل التجارى بينهما ، كما زادت العلاقات السياسية نمواً وازدهاراً ، وتم تبادل السفراء بين البلاطين^(٢) .

وهكذا كانت السمة الواضحة لهذه العلاقات الود والمعاملة ، ولكن حدث في عام ١٠٢٧ هـ ما ألقى على هذه العلاقات ظلاً من الإهمال والتجاهل ، فقد حدثت في هذا العام بعض الاضطرابات في البلاط الروسي ، مما وضع البلاد في ضائقة مالية ، فسارع القيصر ميخائيل رومانوف بمراسلة الشاه عباس ، وطلب منه العون المادى والمالى ، وكان يتوقع ألا يتأخر صديقه الشاه عباس في تلبية الطلب ، ولكن رسله فوجئوا بتجاهل الشاه عباس لهذه المطالب

(١) شهيد أمان الله جهانباني : مرزهاى إيران وشوروى ، ص : ٣ طهران

١٣٣٦ سنة

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشارية ، ص : ٣٥٠ ، ٣٥١

ومماطلته في الاستجابة لها ، مما أغضبهم ، فرجعوا خالي الوفاض إلى موسكو^(١) .
ونتيجة لهذا المسلك توقفت الاتصالات الودية بين البلدين ، ولم يرد في
الأخبار بعد ذلك أن تبادلوا للرسائل أو الرسائل تم بين البلاطين منذ ذلك
العام وحتى وفاة الشاه عباس الأول ، في عام ١٠٣٨ هـ .

(١) دندكانى شاه عباس أول ، ج ٥ ، ص : ١٦٠ وما بعدها .

خامساً : علاقات الشاه عباس مع باقى الدول الأوربية

حرص الشاه عباس على أن يكون على علاقات طيبة مع جميع ملوك أوروبا. على أمل أن يقدم له هؤلاء الملوك العون والمساعدة ضد الدولة العثمانية ، وكذلك لزيادة التبادل التجارى بين إيران وجميع الدول الأوربية . فإلى جانب علاقاته بملوك كل من أسبانيا وانجلترا وهولندا وروسيا ، فقد كانت هناك علاقات بين الشاه عباس وعدد آخر من ملوك أوروبا ، وبعض هذه العلاقات كانت تتوقف عند مستوى تبادل الرسل والرسائل التى تتحدث عن ضرورة التعاون المشترك ضد الدولة العثمانية ، دون أن يبرز هذا التعاون إلى حيز الوجود ، وكانت بعض العلاقات الأخرى تشمل إلى جانب ذلك تبادل البضائع بين إيران وبين بعض البلاد الأوربية .

ومن هؤلاء الملوك الذين راسلهم الشاه عباس الأول ، امبراطور ألمانيا رودلف الثانى ، الذى زاره من قبل الشاه عباس كل من أنتونى شرلى وحسينعلى بيك بيات ومهد يقلى بيك وروبرت شرلى ، كما أرسل رودلف الثانى وفداً ألمانيا وصل إلى إيران فى عام ١٠١١ هـ (١٦٠٢ م) وذلك للتأكد من رغبة الشاه عباس فى التحالف مع ملوك أوروبا المسيحيين ضد الدولة العثمانية . وكان على رأس هذا الوفد الألمانى شخص يدعى كاش ، واتفق أن وصل الوفد والشاه عباس مشغول بحروبه ضد العثمانيين فى أذربايجان ، مما أخر لقاء الوفد بالشاه عباس ، وفجأة تناول الوفد طعاماً فاسداً أودى بحياة رئيس الوفد وثلاثة من رفاقه ، وأخيراً جاء الشاه عباس من أذربايجان والتقى ببقية أعضاء الوفد الألمانى ورحب بهم ، وأبدى أسفه لما ألم برفاقهم ، ثم حملهم رسالة ودية إلى امبراطور ألمانيا^(١) .

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٤٨ ، ٢٤٩

ومن الملوك الذين اتصل بهم الشاه عباس كذلك ملك بولندا ، حيث تبادلوا الرسائل والمنافع التجارية ، كما أرسل الشاه عباس إليه ذات مرة يسأذنه في السماح للقوافل التي تحمل الحرير الإيراني بعبور الأراضي البولندية في طريقها إلى وسط أوروبا ، وذلك بعد أن أغلق الطريق عبر الأراضي العثمانية^(١).

ومن الذين اتصل بهم الشاه عباس كذلك بابا روما ، وحاول عن طريقه حث ملوك أوروبا المسيحيين على وحدة الكلمة والتعاون مع إيران في القضاء على الدولة العثمانية ، كما اهتم البابا بتوطيد علاقاته بالشاه عباس تدعياً لموقف المسيحيين في إيران ، وقد أرسل البابا عدة رسائل للشاه عباس يوصيه فيها بحسن معاملة مسيحيي إيران والسماح لهم ببناء الكنائس وإقامة الشرائع المسيحية . ومن الرسائل الهامة التي تصور لنا حرص بابا روما على تعميق هوة الخلاف بين الشاه عباس والعثمانيين تلك الرسالة التي أرسلها البابا بول الخامس مع وفد وصل إلى إيران ليهنئ الشاه عباس بانتصاره على الأوزبك ويحرضه على محاربة العثمانيين ، ومن بين ما جاء في الرسالة ، النقاط التالية^(٢).

١ - كم يتمنى البابا إضعاف الدولة العثمانية ، وكم يأمل في التعاون مع جميع القوى الراغبة في تحقيق هذا الأمل ، وسيجتهد البابا في استنفار جميع الملوك المسيحيين للاتحاد فيما بينهم ، كي يقوموا بهجمة مشتركة ضد الدولة العثمانية من الغرب ، في حين يقوم الشاه عباس بهجمة أخرى من الشرق .

٢ - يعد البابا بإرسال المهندسين والخبراء العسكريين للعمل من أجل تقوية جيش إيران .

(١) زندكا في شاه عباس أول ، ج ٥ ص : ٢١٧ - ٢٢٥

(٢) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٢٠ - ٢٤١

٣ - يرغب البابا في إنشاء سفارة في كل أصفهان وروما للاشراف على توطيد العلاقات بين الطرفين .

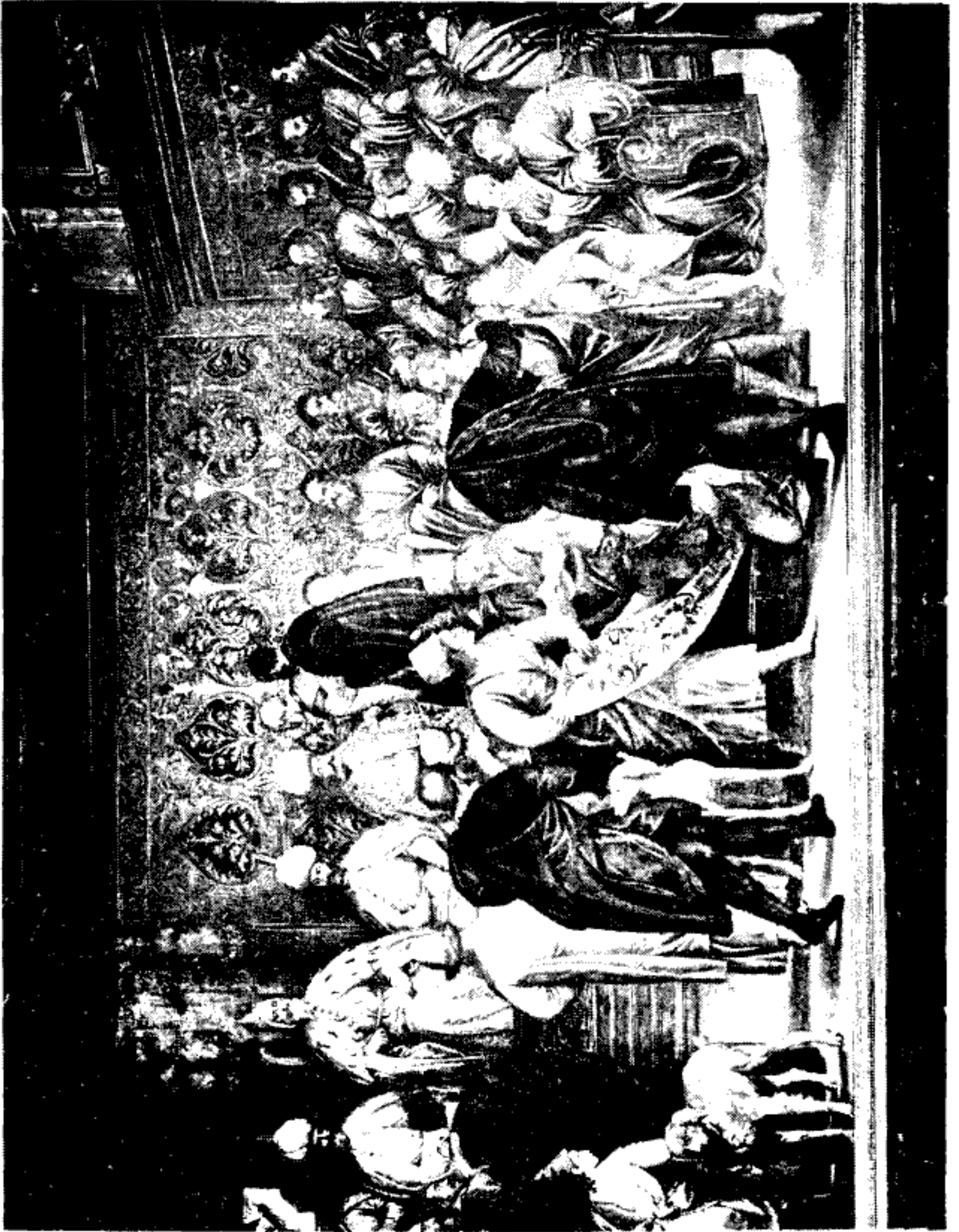
٤ - يأمل البابا من شاه إيران أن يحسن معاملة مسيحيي إيران، وكذلك المسيحيين الأجانب، وألا يعاقب من يعتقد الدين المسيحي، وألا يجبرهم على التخلي عن دينهم، وفي مقابل ذلك يعد البابا بأن يحظى الإيرانيون وسائر المسلمين بنفس المعاملة في البلاد المسيحية .

وحرص الشاه عباس كذلك على توطيد علاقاته الودية بحكام فينيسيا وبخاصة في النواحي التجارية، إذ كان تجار فينيسيا يقومون بدور كبير في التبادل التجاري بين آسيا وأوربا، فحرص الشاه عباس على الاستفادة من خبرة هؤلاء التجار، لذا كان يشجعهم على المجيء إلى إيران، والمساهمة بنصيب في رواج تجارة الحرير الإيراني الذي كان حكرًا خاصًا للشاه عباس الأول^(١)

ولكن على الرغم من هذه الصلات العديدة بين الشاه عباس الأول وعدد كبير من ملوك أوربا، فلم تكن هناك صلات من أي نوع بين الشاه عباس وملوك فرنسا^(٢) .

(١) وندكافي شاه عباس أول، ج ٥، ص ٢١٧ - ٢٢٥

(٢) إيران در زمان صفوية، ص : ٩٨



تعقيب على العلاقات الإيرانية الأوربية

في عهد الشاه عباس الأول

لقد استعرضنا أهم العلاقات الإيرانية الأوربية مع التركيز على علاقات إيران بكل من البرتغاليين والإنجليز ، وذلك للدور المباشر الذي لعبوه في منطقة الخليج في عصر الشاه عباس واستمر هذا الدور بعد عصره كذلك ، وأدركنا كم كان الشاه عباس حريصا كل الحرص على توثيق علاقاته بجميع ملوك أوروبا على وجه التقريب ، ويمكن تلخيص الأهداف التي سعت إليها هذه العلاقات ؛ فيما يلي :

١ - العداة المشترك للعثمانيين .

٢ - زيادة التبادل التجاري بين إيران وأوروبا .

٣ - التبشير بالدين المسيحي في إيران .

فإلى أي مدى تحققت هذه الأهداف ؟

من ناحية العداة المشترك للعثمانيين ، والرغبة في عقد معاهدات دفاع مشترك بين إيران والدول الأوربية ، نجد أن الأمر اقتصر على مجرد الوعود من جانب ملوك أوروبا ، دون مبادرة أحد منهم لتقديم أي عون عسكري للشاه عباس وهو يحارب الدولة العثمانية زهاء عشرين عاما أو أكثر ، كما لوحظ أن عددا من هؤلاء الملوك كان يرسل الشاه عباس ويعده بالعون والمساعدة ، وفي نفس الوقت يعمل على تنقية الجو بينه وبين العثمانيين ، وعلى سبيل المثال نجد رودلف الثاني إمبراطور ألمانيا يرسل وفدا من قبله إلى بلاط الشاه عباس ليؤكد على ضرورة المشاركة في محاربة الدولة العثمانية ، وبعد فترة تصل إلى إيران الأنباء بتوقيع معاهدة صلح بينه وبين السلطان العثماني . ولعل الشيء الوحيد الذي أفادته إيران من الأوربيين من الناحية الحربية

تلك الجهود التي بذلها الأخوان شرلي ورفاقهما البريطانيون في سبيل تنظيم الجيش الصفوي وإعادة تدريبه وتسليحه ، مما وفر له القدرة على مجابهة القوات العثمانية ، وإحراز العديد من الانتصارات في آذربايجان وبغداد ، ولكن هذا التعاون كان فردياً ، ولم يكن تعاوناً بين حكومة إيران وأى حكومة أوروبية وعدت الشاه عباس بتقديم العون العسكري .

وأمام الناحية التجارية ، فيجب الاعتراف بأن إيران أفادت من التبادل التجاري ، حيث راجت سوق الحرير الإيراني ، فقد أدت المنافسة بين البرتغاليين والإنجليز والهولنديين والأرمن وغيرهم إلى زيادة ثمنه ، كما نتج عن هذا الانفتاح التجاري إقامة العديد من المراكز التجارية في إيران ، حيث أقامت كل من إنجلترا وهولندا والبرتغال عدة مراكز تجارية لها في أصفهان وشيراز وبندر عباس ، كما ساعد هذا التبادل التجاري على توفر البضائع الأجنبية بأسعار معقولة في إيران ، وذلك نتيجة للمنافسة الشديدة بين الموردين الأوروبيين .

ولكن هذا الانفتاح التجاري جعل منطقة الخليج إحدى مناطق الصراع الساخنة بين الدول الاحتكارية الأوروبية التي كانت تتطلع إلى فرض سيطرتها على أسواق العالم ونهب ثرواته .

أما عن التبشير بالدين المسيحي ، فقد نجح الأوروبيون في حمل الشاه عباس على التعاطف الشديد مع مسيحيي إيران وكذلك مسيحيي أوروبا الذين كانوا يفتنون إلى إيران . كما جعلوه يوافق على بناء الكنائس في أصفهان وغيرها من المدن الإيرانية ، كما أنه سمح للبعثات التبشيرية بالقدوم إلى إيران ومنحها حرية الحركة والتبشير ، وقد أدى هذا إلى إعتناق بعض الإيرانيين - ومنهم عدد من مستشاري الشاه عباس - الديانة المسيحية ، بل إنه أدى إلى اهتمام

البعض للشاه عباس نفسه بالميل إلى الديانة المسيحية ، كما أدى تعاطفه مع البعثات التبشيرية ، إلى أن عرض عليه أحد القساوسة الدخول في الدين المسيحي ، فرد عليه الشاه قائلاً : لنترك هذا إلى وقت آخر !

وهناك نقطة تستلفت النظر في علاقات الشاه عباس الخارجية، حيث أسند مهمة تمثيله في أوروبا إلى الأخوين انتونى شرلى وروبرت شرلى، وقد أغضب هذا عدداً كبيراً من الإيرانيين ، فدار صراع كبير بين هذين البريطانيين وبين رفاقهما من الإيرانيين ، مما أدى إلى فشل مهمة انتونى شرلى وحسين على بيك بيات ، كما أدى أيضاً إلى فشل مهمة روبرت شرلى الثانية في إنجلترا ، عندما تشاجر معه نقد عليبيك وادعى أن الوثائق التي يحملها مزورة ، وأنه لا يمثل إيران ولا الشاه عباس ، لذا كان الأجدى أن يسند هذه المهمة لإيرانيين يثق فيهم بدلاً من إسنادها لأوروبيين منعاً لما حدث من مشاكل . وليكونوا أكثر حرصاً على مصلحة إيران في أى معاهدة يوقعونها مع أى حاكم أوروبى .

وعلى هذا يمكن القول بأن الفوائد التي جنتها إيران من صلاتها بأوروبا ، تمثلت في الازدهار التجارى ، دون غيره ، أما المكاسب التي أحرزتها الدول الأوربية ؛ فقد تمثلت في وجود الأوربيين في منطقة الخليج كتجار أولاً ، ثم مستعمرين بعد ذلك ، وتمثلت أيضاً في صورة مبشرين ودعاة للديانة المسيحية ، ولا يخفى علينا أثر هؤلاء المبشرين في تعميق هوة الخلاف بين الشيعة الإيرانيين ، وبين أهل السنة من جيران إيران في الشرق والغرب ، وأثر ذلك على علاقات إيران بجيرانها .

وخير ما أختتم به التعقيب على علاقات الشاه عباس بملوك أوروبا ، ذلك

التعليق الذي كتبه الباحث الإيراني أحمد تاج بخش في كتابه : « إيران
در زمان صفويه » ، وقال فيه (١) :

كان أكثر سلاطين إيران وبخاصة الشاه عباس يحرصون على توثيق
صلاتهم بملوك أوروبا أملا في عقد حلف يعمل ضد الامبراطورية العثمانية ، وفي
كل مرة كان السفراء يسافرون إلى أوروبا ، كانت إيران تقدم المزيد من
التسهيلات والامتيازات للتجار الأوربيين .

وإيران في ذلك الوقت كانت قوية ، لذا لم تكن مجبرة على إعطاء
امتيازات متعددة للانجليز والهولنديين والأسبان ، أو أن تطلب المنافع
الأجنبية على المنافع الوطنية ، فالتصريح للمعاهدات التي عقدت أيام الشاه عباس
يدرك كم أعطى من امتيازات للتجار الأوربيين وللأجانب عامة .

وعلى الرغم من تلك الامتيازات ، فإن ممالك أوروبا لم تقدم أي مساعدة
فعالة لمحاربة الدولة العثمانية ، بل كانت في كل مرة تكفي بالوعود دون
تنفيذ لهذه الوعود ، حتى ولو كانت الدولة الأوربية هي التي اقترحت
تقديم المساعدة .

وإذا دققنا النظر نجد أن المعاهدات كانت منحازة وتعمل على زيادة
الرعاية للتجار المسيحيين ؛ حتى تبدو هذه المعاهدات وكأنها بين دولتين
إحداهما قوية والأخرى ضعيفة !

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٥٣

الفصل السادس

وفاة الشاه عباس ونظرة التاريخ اليه

الفصل السادس

وفاة الشاه عباس ونظرة التاريخ إليه

- ١ -

وفاة الشاه عباس :

عاش الشاه عباس سنوات طوالاً في صراع وعراك مستمرين ، سواء كان هذا الصراع من أجل تثبيت دعائم حكمه بالداخل ، أو سواء كان العراك مع أعداء وطنه وبخاصة الأوزبك في الشرق والعثمانيين في الغرب ، ولم يترك له هذا الصراع فرصة لكي يستريح ، فما أن ينتهي من جبهة ، حتى يندلع الصراع في جبهة جديدة ، كل هذا أثر على صحته ، وبدأ الخور والضعف يديان في جسده ، فأصيب بمرض الصفراء^(١) وأخذت صحته في التدهور والذبول ، لذا فكر في التوجه صوب منطقة أشرف بماندران للاستشفاء والاستجمام لعله يبرأ من علته .

وقبل أن يتوجه إلى منطقة أشرف حرص على أن يختار ولياً للعهد حتى لا يفاجئته الموت ولا وجود لوريث شرعي يخلفه ، مما قد يعرض الدولة للفتن والمؤامرات ، وأخيراً وقع اختياره على حفيده سام ميرزاً بن صفى ميرز الذى اغتيل بأمر الشاه عباس نفسه ، واستطاع الشاه عباس أن يأخذ لحفيده البيعة من جميع أمراء البيت الصفوى^(٢) .

(١) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص : ٤٣٦

(٢) تاريخ إيران از مغول تا افشاريه ، ص ٣٣٧

بعد ذلك سافر إلى أشرف بما زاندران وقضى هناك فترة من الزمن على أمل أن يبرأ من علته ، ولكن المرض كان يشتد باستمرار ، وظل على هذه الحال إلى أن قضى محبه في صبيحة يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى عام ١٠٣٨ هـ^(١) (والموافق التاسع من يناير عام ١٦٢٩ م)^(٢) .

بعد ذلك نقل جثمانه إلى منطقة كاشان ، حيث أودع خلف قبر الإمام زاده حبيب بن موسى^(٣) في منطقة پشت مشهد على مشارف كاشان ، وقيل إن ذلك كان بصفة مؤقتة ، حتى ينقل بعد ذلك إلى أحد الأماكن المقدسة ، ولكن لا يعرف على وجه اليقين ، هل نقل إلى أى مكان مقدس بعد ذلك أم ظل بمنطقة كاشان ، فقد قال البعض بأنه اتخذت الترتيبات لنقله إلى المنطقة المقدسة بمدينة قم ولكن لم يتم نقله ، وبقي في منطقة پشت مشهد بكاشان ، ورواية أخرى تقول بأن الشاه عباس كان حريصا على أن يكون قبره غير معلوم ، لذا أعد كبار معاونيه ثلاثة توابيت ، أرسلوا أحدها إلى مشهد والثاني إلى أردبيل ، والثالث إلى النجف ، ولا يعلم إلى أى واحد فيها نقل جثمانه بعد ذلك .

ويعلق عباس إقبال على هذه الروايات بقوله : « الحقيقة أنه لا يوجد أحد مطلقا يعرف ماذا حدث لجثمان أكبر ملوك الدولة الصفوية ، وأين استقر به اللطاف في النهاية^(٤) » .

(١) مجله یادگار ، سال سوم ، شماره دوم ، ص : ١٣ مقالة بعنوان : مباحث تاریخی : از ابتدای صفویه تا آخر قاجاریه : (پادشاهان ایران : هریک در کجام دفونند)

(٢) H. F. Farmayan : The Policies and Reforms of shah Abbas 1, Utah'1969, p.11.

(٣) لغت نامه ، شماره ٧٦ ، ص : ٤٣

(٤) مجله یادگار ، سال سوم ، شماره دوم ، ص : ١١



الشاه عباس الأول (نقلا عن تاريخ ادبيات ايران ج ٣ لادوارد براون)

الإشادة بالشاه عباس :

أشاد عدد كبير من المستشرقين والإيرانيين بالشاه عباس ، وامتدحوا العديد من أعماله ، ومن المستشرقين الذين أشادوا به سيربيرسي سايكس فقد قال :

« إن شهرة الشاه عباس لا تعتمد فقط على مقدرته العسكرية وحدها ، بل إنها قامت كذلك على عبقريته الفذة في مجال الإدارة والحكومة .. »^(١)

وقال إدوارد براون :

يتفق المؤرخون على أن مملكة إيران وصلت في فترة حكم الشاه عباس ، إلى درجة من العظمة وال عمران والشوكة لم تبلغها طوال عصورها الإسلامية .. كما أن قصة الدولة الصفوية تشبه قصة سيدنا سليمان الذي مات ، ولم تعرف الجن نبأ وفاته حتى نخرت السوس عصاه ، وسقط على الأرض ، فأدركت الجن نبأ وفاته وبدأت تتحرر من القيود التي فرضها عليها ، وهكذا أبقى اسم الشاه عباس على الدولة الصفوية بعد موته بما يقرب من مائة عام ، ذلك بفضل حسن سياسته وتعميره على الرغم من ضعف من تبعوه ، وسهولة القضاء عليهم^(٢) .

وقال ه . ف . فارمايان معلقاً على فترة حكم الشاه عباس الأول :

عندما نستعرض تاريخ إيران إبان هذه الفترة ، يعجب الإنسان أيما إعجاب

History of Persia, Vol. II p 180

(١)

(٢) تاريخ أدبيات إيران از آغاز عهد صفويه تا زمان حاضر ،

ص ٩٩ - ١٠٦

بمحكمة وجلد الشاه عباس الذي أعاد الحياة إلى دولته من الناحيتين العسكرية والإدارية ، وقد توفى هذا الإمبراطور وله من العمر ستون عاما منهيًا بذلك حكمًا قويًا راسخًا استمر ثنتين وأربعين سنة ، استطاع خلالها انتشال إيران من هوة الانحطاط السياسي ، والارتفاع بها مرة أخرى حتى أصبحت أكبر قوة قادرة على أن تمثل خطورة حقيقية على الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي (الحادي عشر الهجري)^(١) .

أما إشادة أبناء وطنه وهم الإيرانيون بشخصيته وسياسته ، فتصل إلى حد التقديس والتمجيد ، وسنكتفي بذكر آراء بعضهم وذلك على سبيل المثال لا الحصر ، فقد قال رضا قليخان هدايت :

أوصل الشاه عباس الدولة الصفوية إلى معارج الكمال ، وأعاد فتح البلاد التي انفصلت عن إيران قبل حكمه ، وفي الحقيقة كان ملكًا عادلًا عاقلًا كريمًا ذاهمة وسياسيًا ذا كياسة ومدبرًا ، وقد تمكن من إنجاز أعمال عظيمة ، وخلف اسمًا لامعًا ، وكان عديم النظير في نشر الشريعة (المذهب الشيعي) وفي الأخذ بيد الضعاف والمكدودين ، وكان في العدل قربةً لكسرى الثاني (كسرى أنوشيروان)^(٢) .

وقال نصر الله فسافي :

حقًا لقد تجدد الاستقلال السياسي لإيران ، وعادت إليها وحدتها الوطنية بعد سقوط الدولة الساسانية بفضل هذا الملك العظيم (الشاه عباس) ، وقد سلكت إيران طريقًا جديدًا بفضل رجاحة عقله وحسن تديره في السياستين

The Policies and Reforms of Shah Abbas p. 11 (١)

(٢) ملحقات تاريخ روضة الصفا ، ج ٨ ، ص ٤٣٨

الداخلية والخارجية ، حيث حقق لها أساس القدرة والرفعة والشهرة في ربوع العالم أجمع ولاشك أن هذا الوطن الواسع العامر المستقر وتلك الدولة القوية الذائعة الصيت التي أوجدها عباس لم تكن تتاح لولا استعداده الذاتي ونبوغه وحسن سياسته وتدييره وسعة علمه ووضوح فكره ، وجسارته وشجاعته^(١)

وقال رضا پازوكي :

ما أن تنازل السلطان محمد خدا بنده عن الحكم لابنه الشاه عباس الأول حتى دبت الحياة من جديد في كيان الدولة الصفوية ، حتى يمكننا القول بأن الشاه عباس كان المؤسس الثاني للدولة الصفوية^(٢)

وفي رأبي أن الشاه عباس يستحق الإشادة به ، كما يستحق التفاف قلوب مواطنيه حوله وحول اسمه حتى اليوم ، وذلك للأسباب الآتية :

١ - بذل عباس المزيد من الجهد في مجال السياسة الداخلية والإدارة ، فقد تسلم دفة الحكم وإيران تهاوى أمام جبروت رؤساء طوائف القزلباش وحكام الأقاليم ، ومحاولة كل رئيس منهم الخروج على الحكومة المركزية ، فاستطاع الشاه عباس القضاء على هيبة هؤلاء الرؤساء وأعاد للحكومة المركزية هيبتها ، ولم يعد هناك قوة مهيمنة داخل إيران كلها إلا شخصية الشاه عباس وحدها ، وهكذا أعاد إلى إيران وحدتها السياسية التي مكنتها من التصدي للأخطار الخارجية وهي مرتكزة على جبهة داخلية قوية تغذى الجبهة الخارجية بكل احتياجاتها ومقومات نجاحها .

٢ - ومن الناحية العسكرية استطاع الشاه عباس الانتصار في العديد

(١) زندگانی شاه عباس اول ، ج ١ ، ص : ١٠٠

(٢) تاریخ ایران از مغول تا افشاریه ، ص : ٣١١

من المارك التي أحالت إيران من دولة مغلوبة على أمرها ، وأرضها نهبا
مباحا لكل طامع في الشرق والغرب، إلى دولة فتيحة تمكنت من رد الأوزبك
والعثمانيين وطرده القوات البرتغالية من جزيرتي قشم وهرمز ، وهكذا أعاد
للشخصية الإيرانية افتخارها وعزتها ، بعد أن عادت الراية الإيرانية ترفرف
على جميع أراضي الدولة الصفوية من جديد .

ومن الناحية العسكرية أيضاً ، استطاع الشاه عباس تكوين جيش
صفوي مدرب على أحدث النظم العسكرية المألوفة في ذلك الوقت ، وزوده
بأسلحة نارية حديثة ، وجعل هذا الجيش يرتبط بشخصه ويتلقى الأوامر منه
مباشرة بعد أن كان الجيش الإيراني قبل فترة حكمه ، يأتربأوامر رؤساء طوائف
القبائل ، ولا يستطيع الشاه الصفوي قبل عباس أن يصدر أوامره إلى الجيش
إلا من خلال رؤساء الطوائف ، ولكن الشاه عباس سلب هذا الحق من جميع
رؤساء الطوائف ، وجعل الجيش يتمتع برئاسة واحدة تتمثل في شخص الشاه
نفسه ، مما ساعده على تحريك الجيش في أي اتجاه يرغبه ، وساعده هذا على
تحقيق انتصارات حاسمة على أعدائه في الداخل والخارج .

ومن الناحية العسكرية أيضاً ، انسم الشاه عباس بالذكاء في رسم الخطط
العسكرية ، حيث امتنع عن دخول معركتين في وقت واحد ، حتى لا يشتت
قواته ومجهوداته ، فعندما هاجمته القوات العثمانية والأوزبكية في وقت واحد
بعد توليه الحكم مباشرة ، آثر عقد صلح مع العثمانيين حتى ينتهي من حروبه
مع الأوزبك ، وبعد ذلك يتفرغ لمحاربة العثمانيين ، ونجح في هذا المخطط ،
واستطاع تحقيق انتصارات حاسمة على الجبهتين الأوزبكية والعثمانية كل
على حدة .

ويبدو ذكاؤه الحربي كذلك في استخدامه أسلوب الإخلاء والتهجير

إذا ما واجه عدوا تفوق قواته قوات الجيش الصفوى عددا وعدة ، إذ كان يترك الطبيعة القاسية تحارب العدو بدلا من الجيش الصفوى ، وبعد أن تكون الطبيعة قد أنهكت العدو ، فإن جيشه يستطيع بأقل مجهود أن يحقق الانتصار عليه ، وقد استخدم الشاه عباس هذه الطريقة بكفاءة في أكثر من موقعة في آذربايجان أثناء معاركه العديدة مع الجيوش العثمانية .

ومما يثبت ذكاه الحربى كذلك ، تحريكه الجيوش من أصفهان حتى قزوین وهى لاتعرف الوجهة الحقيقية التى تقصدها ، وقد أفادته هذه السرية والكتمان فى مفاجأة للقوات العثمانية فى تبريز دون أن يكون لديها علم مسبق بوصوله ، مما ضمن له الانتصار عليها وتحرير تبريز .

ومن مظاهر ذكائه الحربى كذلك ، اتباعه طريقة "الكاشة" فى العديد من معارك آذربايجان مع العثمانيين ، وأشهرها تلك المعارك التى استطاع فيها جيشه التغلب على الجيش العثمانى وانتصار قائده چقال أو غلى بعد ذلك .

٣ — نجح الشاه عباس عن طريق إيجاد منافسة تجارية بين الدول الأوربية فى رفع أسعار الحرير الإیرانى الذى كانت جميع البلاد الأوربية تتكالب على شرائه ، وبذلك تخلص من احتكار البرتغاليين لهذا المحصول الإیرانى الهام ، وحقق من وراء ذلك أموالا وأرباحا طائلة أفادته فى تعبير إیران ، وبناء جيش قوى .

٤ — يحمده للشاه عباس اهتمامه بالعمران والتشييد ، فعلى الرغم من حروبه العديدة فى كل الجبهات إلا أنه اهتم بإقامة العديد من المباني الفخمة التى تعتز بها إیران الحديثة ، وتحرص على أن يؤمها للسائحون ، إذ أن معظم هذه المباني مازال قائما فى عاصمته أصفهان ، حيث بذل الكثير من الجهد

والمال حتى أحالها إلى مدينة غاية في الجمال والتنسيق ، استعجقت أن يطلق عليها في ذلك الوقت : « أصفهان نصف الدنيا » .

— ٣ —

مآخذ على سياسية الشاه عباس :

على الرغم من الأعمال المجيدة التي اقترنت باسم الشاه عباس الأول ، ورفعت اسمه ومكانة وطنه ، فقد ارتكب عدة أخطاء استحق من جرائمها لوم المؤرخين ؛ فقد قال ادوارد براون الإنجليزي :

مع أن الشاه عباس زاد من مهابة السلطنة ، إلا أنه دفع الأمة في النهاية إلى هاوية الضعف ، وأدى إلى انحطاط أخلاق الحكام ، فقد كان الملوك السابقون يطلبون العون من أقوامهم وأقاربهم ، ويحيطون أنفسهم برؤساء الطوائف القوية ، وليكن الشاه عباس اعتمد على نفسه دون غيره ، وبدلاً من أن يعين أولاده في المناصب الإدارية العليا ، وبشركهم معه في حروبه ، فإننا نجده إما حرمهم من حلية الإبصار ، أو جعلهم حبيسي جدران أربعة ، وهكذا تركهم — كما يقول كرونسكي — يقاسون الشدة والمشقة والحرمان ، ولم يعطهم الفرصة لكي يتمتعوا بمباهج السلطنة ، فنشأوا ناقصي الإعداد والتربية ، وجعلهم تحت إمرة رجال البلاط حتى أصبح رجال البلاط هم أصحاب الكلمة الأولى في الدولة بعد ذلك^(١) .

وقال المستشرق الفرنسي شارديان الذي زار إيران بعد وفاة الشاه عباس

(١) تاريخ ادبيات إيران أز اغاز عهد صفوية تا زمان حاضر ، ص : ١١٤

الأول بحوالى نصف قرن : مما لاشك فيه أن عباس الكبير عمل على توفير الرخاء والتعمير لإيران ، ولكن على الرغم من كل مافعله لسيادة وطنه وجلاله ، فإنه بذر بذور المصائب فى أرض إيران كذلك^(١) .

ويوضح لورانس لكهارت الهولندى هذا الرأى ؛ فيقول :
على الرغم من الخدمات الجليلة التى قدمها عباس الكبير لوطنه ، إلا أنه مسئول عن سبب هام من أسباب انحطاط وزوال أسرته ، فإن الشاه عباس بسبب الخوف من أبنائه وبسبب الحقد عليهم ، ابتدع سنة سيئة وضارة ، وهذه السنة تناهض فى تحديد إقامة ولى العهد داخل الحرم . . . وأنى لولى العهد أن يستقل بتصريف الأمور عندما يتولى السلطنة وهو عديم التجربة ؛ ولو نظرنا بعين فاحصة إلى فترات حكم خلفاء الشاه عباس لوضح تماما أن تربية كهذه قد أثرت تأثيرا سيئا وشوفا على الأمراء ، وبخاصة من الفاحية الأخلاقية^(٢) .

ونلخص سرجان ملكم مضار هذه التربية فى العبارة المقتضبة التالية :
« لا يمكن أن يتوقع من سلطان لم يسمح له بالخروج من هذا السجن (الحريم) إلا وقت جلوسه على كرسى العرش ، أن يتصرف كالرجال ذوى الكفاية ، بل سيعمد إلى السلطة المطلقة ، ويكون خضوعه لحكم الهوى نتيجة حتمية لحرمانه السابق وانعدام التجربة عنده^(٣) . »
ومن المآخذ التى سجلها أحمد تاج بخش على الشاه عباس ، عقده معاهدات مجحفة لإيران مع ملوك أوروبا ، وقال فى نهايه تعليقه على هذه المعاهدات :

(١) نقلا عن انقراض سلسلة صفويه ، ص : ١٩

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩ - ٣٠

(٣) سرجان ملكم : تاريخ إيران ، ج ١ ص : ٢٥٥٦ ٥٥٧ ، وذلك

نقلا عن المرجع السابق ص : ٣٠

إذا دققنا النظر نجد أن المعاهدات كانت منعازة وتعمل على زيادة الرعاية
للتجار المسيحيين ، حتى تبدو هذه المعاهدات ، وكأنها بين دولتين إحداهما
قوية والأخرى ضعيفة^(١) .

وإلى جانب هذه المآخذ التي سجلت على الشاه ، يمكننا أن نضيف
ما يلي :

١ - كان الشاه عباس في أحيان كثيرة ظالما مستعبدا بلا سبب مقنع إلا
الرغبة في سفك الدماء والبطش ، فكان يأمر أحيانا وهو في مجلس الشراب
بأن يقتل فلان ، فينفذ فيه حكم الإعدام بلا مناقشة ، حتى أصبح ندماءؤه
يخشون الجلوس معه خوفا من أن يأمر بقتل أحدهم دون جريرة أو ذنب . كما
كان يبادر بقتل أبناء من يقتلهم ، وكذلك من يعيشون في كنفهم حتى
لا يبقى منهم أحد قد يثار منه في المستقبل ، فعندما قتل مرشد قليخان ، أمر
بقتل جميع أبنائه وأخوته وصادر أموالهم ، ونكل بهم جميعا دون ذنب
اقترفوه أو جريمة ارتكبوها ، إلا قرابتهم لمرشد قليخان .

ومن مظاهر قسوته إصداره الأوامر للأبناء بقتل آبائهم ، أو للآباء
بقتل أولادهم ، وما فعله مع الأكراد دليل واضح على قسوته وجبروته ، حيث
نكل بهم في كردستان ، ثم أمر بنقل عدة آلاف منهم للعيش في خراسان ،
على الرغم مما سيقاسونه من الإحساس بالفرقة والتشرد .

إلى غير ذلك من مظاهر القسوة التي اتسمت بها أخلاق عباس ، مما جعل
الملك الهندي أكبر ينفر من قسوته ، فأرسل ينصحه بالكف عن مثل
هذه المآسى .

(١) إيران در زمان صفويه ، ص : ٢٥٣ ، وقد أوردت التعليق كاملا
ص ٢٧٨ من هذا الكتاب .

٢ - كان الشاه عباس لا ينظر إلى المستقبل وهو يتعامل مع الأوربيين الذين وفدوا إلى منطقة الخليج ، فقد شجع كلا من الإنجليز والهولنديين على الحجىء إلى منطقة الخليج والمشاركة في النشاط التجارى في هذه المنطقة، ولينافسوا البرتغاليين الذين فرضوا سلطانهم على المنطقة أكثر من قرن من الزمان، وبذلك أدخل الشاه عباس منطقة الخليج العربى في دائرة الصراع الاحتكارى والاستعمارى بين الدول الأوربية المتنافسة على بسط سيطرتها على ربوع العالم ونهب ثرواته ، وقد تأثرت إيران نفسها بعد ذلك بخطر وجود هذه القوى الاحتكارية والاستعمارية التى جاءت إلى المنطقة بتشجيع من الشاه عباس .

٣ - على الرغم من اهتمام الشاه عباس بالنواحى العسكرية ، وتسليحه جيشه بأسلحة نارية حديثة مكنته من مجابهة القوات العثمانية والانتصار عليها ، إلا أنه أهمل تكوين قوة بحرية إيرانية تلعب دورا مهما في بحر قزوين والخليج العربى ، وأمام هذا العجز لجأ الشاه عباس إلى البحرىتين الإنجليزىة والهولندية لتخلصاه من القوات البرتغالية المتمركزة في هرمز . ولو اهتم الشاه عباس بتكوين أسطول إيرانى مستقل ، لما أصبح في حاجة لمساعدة من البحرىة الإنجليزىة ولما عانت المنطقة من وبيلات الاستعمار البريطانى بعد ذلك .

٤ - على الرغم من حرص الشاه عباس الشديد على الافراد بالحكم إلا أنه كان يؤمن بإيماننا جازما بأقوال منجمه جلال الدين محمد يزدى الذى التحق بخدمته منذ عام ٩٩٤ وحتى عام ١٠٢٩ هـ ، فكان الشاه يستشيرها في كل صغيرة أو كبيرة ، ولا يقدم على أى شىء لا يتفق ورؤية هذا المنجم ، ولا يغيب عن بالنا قصة تنازل الشاه عن العرش لمدة ثلاثة أيام لأحد أتباع المذهب المنقطوى ، عندما رأى الشاه رؤية مؤداها أن عظيمها إيرانيا سيموت بعد ثلاثة أيام ،

وظن أنه المقصود بهذا العظيم ، فأشار عليه المنجم بتخليه عن الحكم لهذا النقطوى ، ثم ينفذ فيه حكم الأعدام بعد ثلاثة أيام^(١) .

٥ - عداؤه الشديد للدولة العثمانية جعله يقدم على أفعال كثيرة تتجافى والعقيدة الإسلامية ، وقد ارتكب هذه الأفعال الجحافية إرضاء لمسيحي أوروبا الذين كان يلمث وراء التقرب منهم ، على أمل أن يساعده ضد العثمانيين ، ومن هذه الأعمال المستهجنة ، مشاركته إيام الاحتفال بأحد أعيادهم ، وشربه الخمر في نهار رمضان ، ثم أمره لجميع رجاله باحتساء الخمر وهم صائمون ، فيضطرون للإفطار على محرم خوفا من سطوته ، ثم أتبع كل ذلك بحديث وجهه لأحد قساوستهم ، قال فيه :

« عندما تذهب إلى روما ، وتمثل أمام البابا ، أخبره كيف شربت الخمر في نهار رمضان ، وأن ذلك كان في محضر القاضي والمفتى ، وكيف جعلت الجميع يشربون ، وقل له إنه على الرغم من أنني لست مسيحيا ، فإنني جدير بالتقدير والاحترام^(٢) »

ونتيجة لتعاطفه الشديد مع المسيحيين ، طلبت منه الكنيسة الكاثوليكية السماح لقساوستها بإعادة المسيحيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي إلى الدين المسيحي مرة أخرى ، فقبل الشاه عباس هذا الطلب ، وعلى سبيل المثال ما حدث مع أحد غلمانه وبدعى (الكساندر) ، فقد استطاعت الجماعات التبشيرية إعادته إلى الدين المسيحي بعد أن كان قد أعلن إسلامه من قبل^(٣) .

فكيف يقبل الشاه عباس هذا الطلب ، ولم يطالب هو الآخر ملك أسبانيا

(١) راجع القصة هامش ص : ٢٤٧ ، من هذا الكتاب

(٢) زندكاني شاه عباس اول ج ٢ ، ص ٢٦٤

(٣) المرجع السابق ج ٣ ، ص ٨١ - ٨٤

بإعادة دون جوان ورفاقه الذين اعتنقوا الدين المسيحي إلى الدين الإسلامي مرة أخرى ، ولا يخفى علينا أن تعاطف الشاه عباس مع المبشرين كان العامل المؤثر في اعتناق بعض رجال البلاط الإيراني للدين المسيحي .

وقد كان عباس حريصا كل الحرص على التعاطف مع المبشرين ، ولكنهم كانوا يضمرون له السوء ، ففي أثناء استعداد القوات الإيرانية والإنجليزية لمهاجمة جزيرة هرمز ، أرسل قساوسة فرقة القديس أغوستين الموجودون بأصفهان إلى البرتغاليين في هرمز، يؤازرونهم ويوصونهم بضرورة محاربة الشاه عباس والانتصار عليه^(١) .

ومن الأقوال التي قال الشاه عباس، وتجاوى الروح الإسلامية ، ولا يقبل أن يقولها أى مسلم مهما كان على خلاف مذهبي مع بعض أعدائه هذه العبارة التي قالها لأنتونيو دى جوفيا المبعوث الأسباني ، وهو يحضه على محاربة العثمانيين : « كم أتمنى أن أرى في أقصر وقت ممكن جميع مساجد الأتراك وقد تحولت إلى كنائس ، وكلى أمل أن أرى سقوط الخلافة العثمانية وخرابها^(٢) »

ولاشك أن هذا التعصب الديني الشديد كان ذا آثار ضارة على المسلمين عامة سواء أ كانوا من أهل السنة أو من الشيعة .

. . .

وهكذا كانت شخصية الشاه عباس مزيجا من القوة والقسوة ، كما كانت أعماله مزيجا من الانتصارات والتردى في بعض الأخطاء ، ولكن على

(١) زندكاهي شاه عباس ج ٤ ، ص ٢١٢

(٢) المرجع السابق ص : ١٥

الرغم من هذه الأخطاء، والمآخذ التي سجلت عليه ، فإن الإيرانيين - حتى اليوم - يكبرونه ، ويعتبرونه بطلا قوميا استطاع أن يرفع من شأن وطنه ، ويبعد آمال الإيرانيين ويحقق أهدافهم ، وبخاصة في الانتصار على أعدى أعدائهم وهم العثمانيون .

ومما يزيد من احترام الإيرانيين للشاه عباس أنه تسلم الدولة ضعيفة أسيرة التطاحن والانقسام فإذا به ينجح في معالجة كل مشاكلها ويجعلها مرهوبة الجانب من جميع جيرانها ، ولكن ما أن ودع الدنيا حتى عادت إيران إلى سابق عهدها من الضعف والتخاذل ، وقوي أعداؤها عليها وتطاولوا على ممتلكاتها ، ففي الجهة الغربية ، هاجمت الدولة العثمانية إيران أكثر من مرة حاصرت فيها العاصمة أصفهان ، كما أخرجت الإيرانيين من الأماكن المقدسة في العراق العربي ، أما في الجهة الشرقية فقد هاجم الأوزبك خراسان عدة مرات ، كما ثارت القبائل الأفغانية ضد الوجود الصفوي ، وأعلنت أفغانستان استقلالها لأول مرة عن إيران وفي منطقة الخليج العربي فقد زاد الوجود الأوربي . واستولت القوات الإنجليزية على جميع موانئ الخليج ومدت نفوذها بعد ذلك إلى جميع البلدان المحيطة بالخليج .

وكلما تذكر الإيرانيون ما أصاب بلادهم من اضطراب وتقلص بعد الإزدهار الذي أحرزته في عصر عباس ، تذكروا عظمة الشاه عباس الأول ، وما فعله في سبيل إيران ، وجعلها مرهوبة الجانب . مزدانة بأبهى مظاهر العمران ، ثم نسوا كل ما يوجه إليه من أخطاء ، لأن أعماله العظيمة قد غطت - في رأيهم - على أي خطأ قد ارتكبه !

المراجع

المراجع^(١)

أولا : المراجع العربية

- ١ - أبو بشير شيبه بن نور الدين عبدالله بن حميد السالمى :
نهضة الأعيان : بحرية عمان - دار الكتاب العربى بالقاهرة .
- ٢ - أحمد بن زين دحلان :
الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية . القاهرة ١٣٢٣ هـ
- ٣ - أحمد محمود الساداتى (دكتور) :
تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم . الطبعة
الثانية القاهرة ١٩٧٠ .
- ٤ - البديسى :
أمير شرف خان : شرفنامه تحقيق محمد على عوفى نشر فرج الله زكى
طبع القاهرة ١٩٣٠ م .
- ٥ - أرمنيوس قامبرى :
تاريخ بنغارى ، ترجمة الدكتور أحمد محمود الساداتى ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٦ - جمال زكريا قاسم (دكتور) :
الادعاءات الإيرانية فى الخليج العربى : أصول المشكلة وتطورها
التاريخى (بحث مستخرج من المجلة المصرية للدراسات التاريخية ،
المجلد العشرون) القاهرة ١٩٨٣ م .

(١) نذكر هنا قائمة بأهم المراجع التى ورد فيها فى ثنايا الكتاب .

٧ - حسن ظاظا (دكتور)

اسرائيل كفضيلة خاصة من فصائل المعسكر الاستعماري (القسم الأول
من كتاب : الصهيونية العالمية وإسرائيل) . القاهرة : ١٩٧١ م

٨ - حسين مجيب المعري (دكتور)

فضولي البغدادي ، أمير الشعر التركي القديم ، القاهرة ١٩٦٧ م

٩ - صلاح العقاد (دكتور)

التيارات السياسية في الخليج العربي . القاهرة ١٩٦٥ م

١٠ - عبد العزيز سليمان نوار (دكتور)

مصر والعراق . دراسة في تاريخ العلاقات بينهما حتى نشوب الحرب
العالمية الأولى القاهرة ١٩٦٨ م

١١ - عبد النعيم محمد حسنين (دكتور)

دولة السلاجقة . القاهرة ١٩٧٥ م

١٢ - محمد أمين زكي .

خلاصة تاريخ السكردو كردستان من أقدم العصور التاريخية حتى
الآن ترجمة محمد علي عوني . القاهرة ١٩٣٦ م

١٣ - محمد السعيد جمال الدين (دكتور)

دولة الاسماعيلية في إيران القاهرة ١٩٧٥

ثانيا : المراجع الفارسية

- ۱۴ - أبو القاسم رفيعی مهر آبادی :
آثار ملی أصفهان تهران ۱۳۵۳ ش
- ۱۵ - أحمد تاج بخش (د کتر)
إيران در زمان صفویه ، تبریز ۱۳۴۰ ش
- ۱۶ - أحمد علی خان وزیر کرمانی :
تاریخ کرمان ، تصحیح محمد ابراهوم پاستانی پاریزی ۱۳۴۰ ش
- ۱۸ - إدوارد برادن :
تاریخ ادبیات ایران از آغاز عهد صفویه تا زمان حاضر ، ترجمه رشید یاسعی چاپ دوم ، تهران ۱۳۲۹ ش
- ۱۸ - اسکندر بیک ترکان منشی :
تاریخ عالم آرای عباسی تهران ۱۳۳۴ ش
- ۱۹ - أمان الله جهانبانی (سپهبد)
مرزهای ایران و شوروی ، ایران : ۱۳۳۶ ش
- ۲۰ - أمير يحيى بن عبد اللطيف الحسيني
لب التواريخ
- ۲۱ - حسن روملو
أحسن التواريخ ، بسمی و تصحیح جارلسن نارمن سيدن از انتشارات
کتابخانه صدر طبع طهران ۱۳۴۲ ه . ش

۲۲ - حسین پسر ابدال (شیخ)

سلسله^۱ النسب صفویه برلین ۱۳۰۲ ش

۲۳ - حمد الله مستوفی قزوینی

نزہة القلوب ، بسمی گای ایستراج

۲۴ - خواندمیر (غیاث الدین بن ہمام الدین)

حبیب السیر فی أخبار افراد البشر : تہران

۲۵ - دھجدا

لفت نامہ، مراجعہ دکتر محمد معین تہران

۲۶ - رحیم زادہ صفوی :

شرح جنگها و تاریخ زندگانی شاه اسماعیل صفوی بہ اہتمام یوسف

پور صفوی ، تہران ۱۳۴۱ ش

۲۷ - رضا پازوکی :

تاریخ ایران از مفل تا افشار بہ . چاپ اول ، تہران ۱۳۳۴ ش

۲۸ - طہماسب صفوی

تذکرہ^۱ طہماسب : شرح وقایع و احوالات زندگانی شاه طہماسب

صفوی ، بہ اہتمام عبد الشکور ، تہران

۲۹ - طہماسب صفوی (شاہ)

مجموعہ^۱ اسناد و مکاتبات تاریخی ، بہ اہتمام : دکتر عبدالحسین نوائی

تہران ۱۳۵۰ ش

۴۰ - عباس اقبال :

مطالعاتی در باب بحرین و جزایر و سواحل خلیج فارس طبع
طهران ۱۳۲۸ ه. ش ، کما نشر ضمن مجله یارکار سال چهارم ،
شماره سوم و چهارم

۳۱ - عبد الله رازی همدانی :

تاریخ ایران از ازمنه باستانی تا سال ۱۳۱۶ ش ، طهران ۱۳۱۷ ش

۳۲ - عبد الله شوشتری :

تذکره شوشتر ، تصحیح جان بهادر قلی و محمد هدایت حسین

۳۳ - کلیفورد ادمون بوسورث

سلسله های اسلامی ، ترجمه فریدون بدره ای تهران ۱۳۴۹ ش

۳۴ - لورانس لیکهارت :

انقراض سلسله صفویه ، و آیام استیلای افغانه در ایران

ترجمه : مصطفی قلی عماد . طهران ۱۳۴۳ ش

۳۵ - مسعود گبهان :

جغرافیای مفصل ایران تهران ۱۳۱۱ ش

۴۶ - نصر الله فلسفی :

تاریخ روابط ایران و اوربا در دوره صفویه ، قسمت اول

طهران ۱۳۱۶ ش

۳۷ - نصر الله فلسفی :

زندگانی شاه عباس اول -

جلد اول : چاپ اول تهران ۱۳۳۴ ش

جلد دوم چاپ چهارم تهران ۱۳۴۷ ش
 جلد سوم چاپ دوم » ۱۳۴۵ ش
 جلد چهارم چاپ دوم » ۱۳۴۶
 جلد پنجم چاپ اول » ۱۳۵۲ ش

۳۸ - نظام الدین مجبر شیبانی (دکتر)

تشکیل شاهنشاهی صفویة (احیای وحدت ملی) تهران ۱۳۴۶ ش

۳۹ - هدایت (رضاقلیخان)

ملحقات تاریخ روضة الصفا ناصری جلد هشتم قم ۱۳۳۹ ش

۴۰ - تذكرة الملوك

به اهتمام مینوبسکی

۴۱ - عالم آرای صفوی به اهتمام یدالله شکری تهران ۱۳۵۰ ش (مجهول المؤلف)

مقالات فارسیة

۴۲ - عباس اقبال: مباحث تاریخی از ابتدای صفویة تا آخر قاجاریه:

پادشاهان ایران: هریک در کجا مدفونند. مجله یادگار، شماره

دوم، سال سوم

۴۳ - عباس اقبال مهرماه ۱۳۵۵ ش اصفهان و آثار تاریخی آن مجله

یادگار، شماره نهم سال دوم

۴۴ - عباس زریاب خوئی:

دیوان شاه اسماعیل خطائی، راهنمای کتاب، شماره چهارم

سال سوم

۴۵ - نصرالله فلسفی:

جنگ چالدران؛ مجله دانشکده ادبیات دهی ۱۳۳۲ ش

ثالثاً مراجع آخری

۴۶ — فریدون بیگ

منشآت فریدون بیگ بر مبنی جلد استانبول ۱۲۶۳ ھ (ترکی)

Ismael Hakke: Uzuncarsile: Osmanli Tariki, Ankara 1964 — ۴۷

Farmayan: H.F : The Policies and Reforms of Shah — ۴۸

Abbas I Utah 1969.

Syikes (Sir Percy) : History of Persia, London 1951). — ۴۹



الفهرست

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم :
٧	تمهيد ،
	١ - الصفويون ٢ - الدولة الصفوية قبل عباس

الفصل الاول

١٥	اقامة عباس ميرزا في خراسان وتتويجه في قزوين
	١ - مولده ٢ - ولايته أمر خراسان ٣ - الامر باغتياله ٤ - التحفظ عليه في هراة ٥ - تنصيبه ملكا في هراة ٦ - عباس في مشهد ٧ - النزاع حول ولاية العهد ٨ - تحركه صوب قزوين ٩ - تتويجه .

الفصل الثاني

٤٧	سياسة الشاه عباس الداخلية
	١ - الانفراد بالحكم ٢ - التخلص من نفوذ القزلباس ٣ - الاهتمام بالجيش ٤ - اخماد الفتن الداخلية ٥ - النظام الاداري ٦ - النشاط الاقتصادي ٧ - سياسته مع عامة الشعب ورجال القبائل ٨ - سياسته المذهبية .

الفصل الثالث

١١٣	اصفهان في عهد الشاه عباس
-----	--------------------------

الفصل الرابع

حروب الشاه عباس مع جيران ايران

١٤٧

اولا : مع الازبيك

١ - مقدمات الهجوم الازبيكي على خراسان ٢ - سقوط هراة ٣ - تحرك عباس صوب خراسان وتراجعها ٤ - سقوط مشهد ٥ - تحرير هراة والتخلص من الخطر الازبيكي .

ثانيا : حروب الشاه عباس مع العثمانيين

١ - معاهدة ٩٩٨ هـ ٢ - الجولة الحربية الاولى ٣ - الجولة الحربية الثانية ٤ - مفاوضات الصلح ٥ - الجولة الحربية الثالثة ٦ - الاستيلاء على بغداد ٧ - تعقيب على العلاقات الصفوية العثمانية في عهد الشاه عباس .

ثالثا : حروب الشاه عباس مع الدولة المغولية في الهند .

الفصل الخامس

علاقات الشاه عباس بالدول الاوربية

٢١٣

اولا : علاقات الشاه عباس مع البرتغال واسبانيا

١ - العلاقات قبل عصر عباس ٢ - تبادل السفراء ٣ - المعارك قبل تحرير هرمز ٤ - اخراج القوات البرتغالية من هرمز ٥ - العلاقات بعد الاستيلاء على هرمز .

ثانيا : علاقات الشاه عباس مع بريطانيا

١ - بعثات الاخوين شرلي ٢ - العلاقات بين الشاه عباس وشركة الهند الشرقية الانجليزية .

ثالثا : علاقات الشاه عباس مع هولندا .

رابعا : علاقات الشاه عباس مع روسيا .

خامسا : علاقات الشاه عباس مع باقي الدول الاوربية

١ - تعقيب على العلاقات الايرانية الاوربية في عهد الشاه عباس الاول .

الفصل السادس

وفاة الشاه عباس ونظرة التاريخ اليه

٢٧٩

١ - وفاته ٢ - الاشادة به ٣ - مأخذ على سياسته

٢٩٧

المراجع

